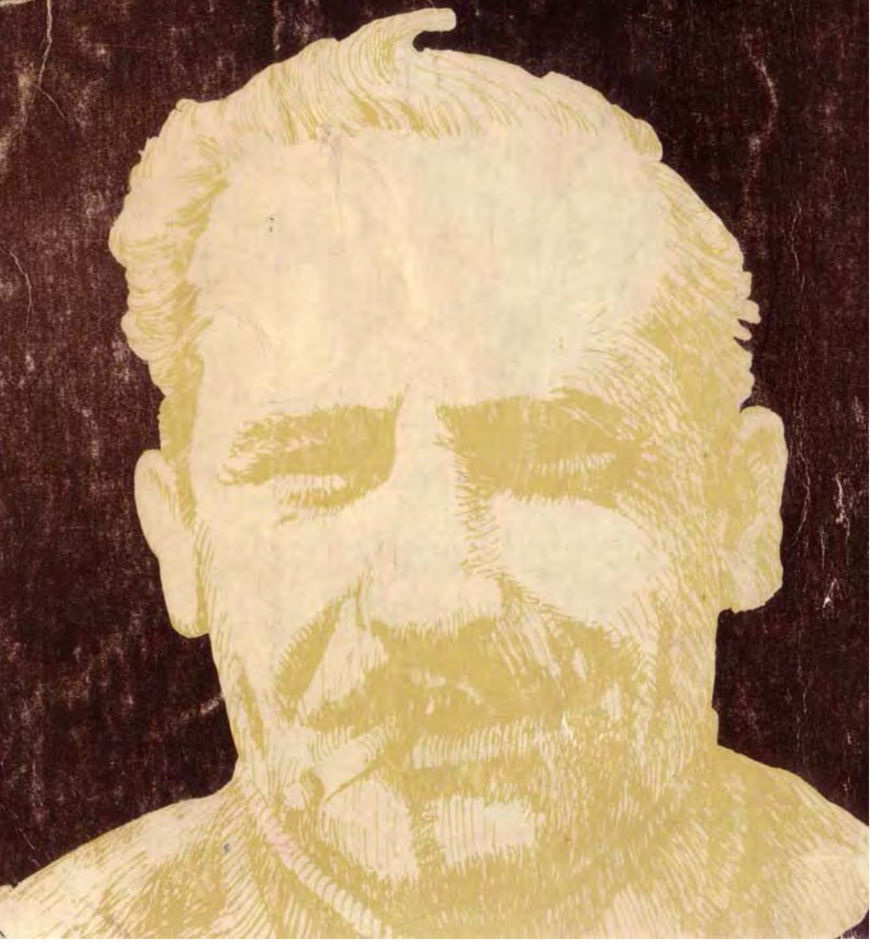
حنامينة

ألدّقل



دار الآداب

حنّا مينة

الدّقل

رواية

الكِتابُ الثاني

من « حكاية بحّار »

منشورات

دار الآداب - بيروت

الطبعة الأولى

أيّار (مايو) ١٩٨٢

المقدّمة

هذه ليست مقدمة كما أرادها حنا ، اذ لم تعد بيننا مقدمات ، ولن تكون نهايات . ثلاثون سنة ونيف مضت على المقدمة الأولى ، على اللقاء الأول ، ذات صباح ، حين توقف أمامي ، في حي باب التبانة من طرابلس ، وقد وصل للتوّ من اللاذقية ، ماشياً على قدميه ، أشعث الشعر ، مغبّراً ، متوقّد النظرات كما الآن . . .

كنت أعرفه لماماً ، فشدّ على يدي وقال : سنلتقي في المساء . والتقينا في المساء ، وأصبحت أحبه !

. . . .

قال لتكن رسالة ، تسجل اسمك إلى جانب اسمي، كما أنا الى جانبك .

هو فعلاً الى جانبي . دائماً . لقد جمعنا الخيار الواحد منذ ثلاثين سنة ونيّف . وقامت « صداقة الرجال » التي يرفع شعارها ، والتي يصبح ، بمقتضاها ، « أحدنا ظهراً للآخر في الملمّات » . . .

وأنا فعلاً اكتب له الرسائل .

رسالة يوم أعدموا أحد المناضلين . . ورسالة يوم سقطت سايغون في أيدي الغزاة . ورسالة كلما استبدّت الحاجة الى صديق ، واشتدّ الحنين إلى « رجل » ، وامتلأ الصدر ولم يعد يتّسع . . !

. . . .

لكن هذه ليست مقدمة . هذه ليست رسالة . هذه شهادة .

شهادة على ميلاد « بحّار » ، جمعت خيوطه من أطراف البر والبحر ، البحر الذي نسبح فيه كلنا ، ونطمر فيه أسرارنا ، ونودعه أحلامنا ونجاوانا ، فيأتي بحارنا الغواص ، ويصطادها ، وصبح زاد الناس البسطاء ، من خبز وملح .

. . . .

يقبل دون موعد ، كما يقبل دائماً ، مشعشعاً ، فاتحاً ذراعيه ، ليحتضنني مع الدنيا ، وضحكته البريئة الصغيرة تدغدغ أذني : « لقد اشتقت اليك » كأنها تقول ، سعيدة باللقاء .

ويجلس قائلاً بفرح طفولي :

ـ اسمع ! سأكتب قصة بحار عظيم ، يمشي على الشاطىء ، من طرطوس إلى اللاذقية ، ويتذكّر . . !

وعندما يضمّنا مجلس المساء ، وينعقد الحديث ويطيب ، وتتفتح القلوب ، ينبري فجأة :

ـ اسمعوا ماذا حدث لي في مخزن التحف ، عندما كنت في الصين . . .

ويتقدم الليل ولا ينتهي الحديث ، وهو منتشٍ بالكلام ! وأقول في نفسي : بدأت رواية جديدة . حنا يعمل . لقد بدأ « الوحام » عند حنا .

ويميل اليّ فجأة :

ـ حدثني عن الميناء ، ماذا يجري هناك . كيف تسير الأمور . كيف أعمالك ؟ ماذا يصنع الناس ، كيف يفكرون ، ما هي مشاعرهم ؟

ويصغي طويلاً ، ويتجهم وجهه ، ويتألم .

ـ لقد زال فرحي بلقائكم ، الى متى تبقى الأمور هكذا ؟ لو أستطيع أن أتوقف عن الكتابة !

هذه المهنة التي أشقتني . أود أن أموت قبل أن تقهرني الحياة . لكن لا بأس . لا تهتمّ .

هل أنت بحاجة الى شيء ؟ اطلبني في أي وقت ، من أي مكان ، سأطير اليك ، طالما جئت الى هنا لأراك فقط . حافظ على عنفواننا .

وعندما تقترب خيوط الفجر ، أرافقه الى المنزل ، ويلفّنا صمت طويل حزين . . .

كلا ! حنا لن يتوقف . إنها آلام المخاض فقط .

ويأتي صباح جديد ، وألقاه أمام طاولته الصغيرة ، مهندماً ، معطراً ، يمسك قلماً كمن يمسك برعم وردة ، وينكبّ على ورقة كأنه يصلي ، أو يداعب طفلاً ، أو يطرز هدية ثمينة .

ـ اسمع ! لقد وصل بحاري الى طرطوس . سيعجبك . كلا ! أبوه سيعجبك أكثر . لن يستسلم ، لا الى الزمن ، ولا الى الحياة ، سيعاركها حتى النهاية . سيتذكّر وينتصر .

ـ اسمع ! لنذهب الى المقهى . سنلتقي بعض الشباب هناك . بينهم بحّارة . سنتحدث . ونتسع الحلقة ، ويطول الحديث .

ـ اسمع ! هيا بنا إلى مقهى البحر العتيق ، مقهى الحاج لطفي ، في نهاية الطريق الصاعدة من كهوف الميناء . سنسلّم على الحاج ، ونسأله عن أحواله ، وعن البحر .

ويأتي المساء :

ـ تعال نمشي في شوارع المدينة القديمة . كان دكاني هنا . يا إلّهي . كم هي ممتعة هذه النزهة في الشوارع الأليفة .

ونعود الى الشاطىء من جديد . ويضمّنا مجلس مساء جديد .

ـ مررنا اليوم أمام الدكان التي كانت للحلبي . أتذكرون الحلبي الذي قتل السنوسي ؟ أتعرفون كيف افتعل قريبه مشكلة ليدخل السجن وينتقم من الحلبي هناك ؟ وكيف عضّه في أنفه ؟

كنت في السجن آنذاك . اسمعوا !!

ويلفّنا الليل . ويلفّنا سمر ودود أليف .

وأقول في نفسي : الجنين يكبر بسرعة . لن يطول المخاض . رواية جديدة قادمة . شهور فقط . وتأتي منه رسالة ، ثم رسالة . حنا يسأل : أين المقدمة ؟ الرواية جاهزة .

هذه ليست مقدمة . هذه ليست رسالة . هذه شهادة .

هل عرفتم سعيد حزّوم الآن ؟

حنا لم يقع على كنز عندما اختار البحر ميداناً لصراعه . الكنز في داخله . « في مخزون التجارب » . منه ينبع البحر ، ومنه يولد البحارة .

البحر الحياة ، ميداناً اختاره حنا ، لأنه الوجه الأصخب والأغنى ، يخرج اليه الناس ، ومنه يعودون ، انهم يعودون دائماً . بلا حدود ولا قيود . يرتاده البحارة وغير البحارة . هو ميدان لكل الصراعات ، ويربط بين كل الناس ، ويفرق بينهم أيضاً ، وتنتقل عبره الأفكار ، وتلتقي الشعوب .

في الحقيقة ، هذا البحر ليس بحراً . انه كناية ورمز . انه الحياة كلها . والبحارة كل الناس ، يناضلون على البر ويصارعون البحر ، ويعاركون الحياة بكل زخمها وتنوع جوانبها .

ألم نخرج جميعاً من البحر ؟ هل يتحدث حنا عن البحارة فقط ؟ والخياط ؟ والعامل ؟ والمحاسب ؟ وابن العائلة . . . ؟

لكن المعركة بحاجة الى ميدان ، والى مقاتلين .

وهكذا عند حنا ، كان البحر ميداناً وشاهداً ، وكان البحارة أيضاً ! البحارة الذين « يلبسون ثياباً ارجوانية ، وعلى سيكاراتهم تلمع نجوم حمر ،

ينهضون من مطاوي الموج ، ويعودون على أشرعة بيضاء ، ويتعلقون بالغيوم ، ومن عيونهم ينتشر ضوء النهار ، وفي أفواههم أغاني القوة ، يصارعون النوء ، ولا يسمحون للعواصف أن تقهرهم ، فرسان معارك مظفرة ، لا يغرقون ، كالشمس لا تغرق في البحر ، وخلف ياقاتهم شارات حمراء . . . » .

هل عرفتم البحـارة الآن ؟

. . . .

هل يتحدث حنا عن البحارة فقط ؟ والمرأة ! كيف هي هذه المرأة ؟

أخطأ صديقي صاحب المكتبة اذ قال لي عند صدور« حكاية بحار »: ابدأ بالصفحات ١٩٧ ـ ١٩٩ ! كيف هي هذه المرأة التي يقبل عليها « البطل » بهذا الشغف والجوع ، والتي يستطرد حنا في وصف الكوامن من شبقها وفسقها ، ومن نبلها وعنفوانها ، ومن كرمها ومحبتها ، ومن انتقامها وعفوها ، ملاحقاً إيّاها في أدق التفاصيل ، حتى ينتزع منها كل ما هو خيّر وطيّب ونبيل ؟

ألا ترون انها في كل « نهاية » ، نهاية اللعبة ، لا تترك سرير الصراع ، ولا تغيب عن ذهننا، حتى تذكرنا فوراً،بالوجه الآخر للمسألة : « ماذا يخبىء المستقبل ؟ لماذا تسير الأمور هكذا ، متى ينتقم الصبي الأسود . . ؟

لعل صديقي توقف عند النصف الأول من الصفحة ١٩٩ . .

هذه المرأة التي تفتدي بنفسها كل البحارة ، وكل الصبيان السود ، وتحمل أوزارهم وخطاياهم ، وتقودهم إلى طرح الأسئلة ، وتدعو الى التمرّد ومقاومة الظلم ، تكون لعبتها مشفوعة دائماً بهذه الرموز التي تشير الى « الوجه الآخر للمسألة » . . من يمكن أن تكون ! كيف أخطأنا ورأينا فيها مجرّد امرأة ؟

هل عرفتم هذه المرأة الآن ؟

. . . .

هذه ليست مقدمة . هذه ليست رسالة . هذه شهادة .

شهادة على مسيرة لم تكتمل بعد . مسيرة بدأها القدامى بالضرب على « حديد بارد » والدقّ على « الأرض النائمة » .

بدأ الحديد يسخن . والأرض تفيق . تحية أيّها القدامى !

وأخذت أقلب الصفحات من جديد . عجباً ! كيف قال بعض الأصدقاء إن حنا قد ابتعد . لقد فاتنا أن سعيد حزوم لم يتوقف على الشاطىء . كان يسير . وقطع مسافة كبيرة في غفلة منا . وأصبح الحديث أكثر شمولاً وغنى وحبكة . لقد خرج البحار إلى العالم ، وأمسى أكثر نضجاً وفناً .

لقد كبر سعيد حزوم !

وعدت إلى صفحات أكثر قدماً . وسمعت الهتاف نفسه :

« ليس المهم الا نخاف ، المهم أن نقاوم الخوف » .

الحوت يعود إلى المدينة . وسيعود البحار ليدافع عنها . لم يعد يختبىء في الغابة . لقد خرج من « تحت الحجر » ، إلى البحر .

ماذا يشهد على مرحلتنا التاريخية أكثر من هذا ؟

كلا ! حنا لم يبتعد .

أيها البحارة الجدد ! عندما نسلّمكم البحر ، تذكّرونـا !

. . . .

هل عرفتم سعيد حزوم ؟ هل عرفتم البحارة ؟

لعلكم عرفتم الآن ، ان سعيد حزوم ، عندما يصل إلى قصر السيدة على الشاطىء ، سأكون هناك ، وسيكون لقاء آخر .

. . . .

حنا ، يا حنّانا ، يا كاتب ملاحمنا و « حكواتينا » العزيز ، يا فخر جيلنا وظهيرنا الشامخ ،

يا ابننا الحبيب الذي به سررنـــا !

سندق « الأرض النائمة حتى تفيق». . و « تشرقَ شمسنا الموعودة » . . ويكبرَ وطني .

وسنهتف للشمس كلما اشرقت ، وانحسر ظلام عن الأرض . . .

وسنكون « العين التي تلاطم المخرز »

« وسنكون دائماً في الموعد »

وها أنذا أشهــد . . !

واكيم أستور

١

لم أعثر على أبي . .

أنا واثق أنه في البحر. لم أجده حتى الآن. ما همّ. الشمس، حين تغيب في البحر، لاتظهر ليلاً. تختفي. وفي الغداة تظهر من الشرق. لم يقتلها البحر، البحر لايقتل الشمس، والشمس لاتخاف الكمون في البحر. تغطس فيه قرصاً أحمر، ووراء الماءالأزرق، في مكان ما عند الافق، تنحدر رويدا رويدا، حاجبة أشعّتها عن دنيانا. . والدي أيضا احتجب في مكان ما في البحر. هو لم يغرق. لو غرق لوجدته في الباخرة. لقد عدت اليها في اليوم الثاني وما بعده، وظللت أعود إليها، وأغطس في اعماقها، حتى مشّطت هذه الأعماق، وتأكدت أن جثة والدي ليست فيها. عندئذ غادرتها نهائياً وأنا على يقين أن والدي لم يغرق. لعلّه اغاص فيها وخرج من جانبها الآخر. لعلّه غافل البحارة وغاص في البحر إلى مسافة معيّنة، ثم خرج وذهب بعيدا. . إن والدي حي. والدي لايموت بهذه السهولة، ثلاثون عاماً والبحر ملعبه. ثلاثون عاما والكفاح بينه وبين الموج مستمر، وأبداً لم تستطع العاصفة إغراقه وتصفيته. بعض الأشياء، بعض القضايا، تستعصي على التصفية. شجرة راسخة في الأرض تكون، وتمرّ الأعاصير بها، وتعجز عن اقتلاعها. وتهبّ الريح عليها وتعجز عن إيباسها. جذورها هناك، في أحشاء الثرى. جذور والدي كانت عميقة في أرض الوطن، وفي بحره أيضاً، وفي هوائه كذلك. كان يملأ

الدنيا، ويخيل إلي أنه مازال يملأ الدنيا، وأنه سيبقى، وسيظهر يوماً كما اختفى . .

البحر كالقَدَر، كثيراً ما يدور بالانسان، يخدعه، ويضحك عليه. البحر ضحك عليّ، خدعني، دار بي دورات طويلة، وبدلاً من جثة والدي، بعد ذلك الكفاح الطويل، أعطاني جثة غريبة، مشوّهة، ممسوخة. أنا احترم الانسان! لكنني لا أحب المسخ. بحثنا عن إنسان فاذا البحر يعطينا مسخاً. لماذا، يا بحر، بعد كفاحنا الطويل، بعد تعبنا المضني، تعطينا مسخا؟ قد لايكون الانسان كذلك، وربما كان في الأصل شيئاً سوياً، لكن الأسماك شوّهته، والأيام أنتنته، ونحن نرفض جثّة مشوّهة نتنة. نرفض الغشّ. مع من تواطأت يا بحر على هذا الغشّ؟ ثلاثون عاماً ولِمْ تستطع أمواجك، ولا عواصفك، ولا أمطارك، أن تبدّل من والدي، أن تغيرّ من وضاحة الوجه، أو توهن ألق العينين، أو تخلع القلب الشجاع، فكيف حدث، في تواطؤ مع اعدائه، أنك اردت خداعنا، وإيهامنا أن تلك الجثّة الغريبة، هي جثة بحّارنا الحقيقي؟

البحر لايجيب. هذا الصامت لايجيب. أعرف أن المعركة بيننا ستطول، وأن أيام انتظار والدي ستطول، لكنني أنا، سعيد حزوم، ابن صالح حزوم، مستعدّ لطول المعركة، ولطول الانتظار، واثق أن الشمس التي غابت في البحر منه ستظهر أيضاً، فالبحر لايقتل الشمس، لا أحد يستطيع قتل الشمس، وغاية جهد الماء أن يحجبها، ثم لاتلبث أن تظهر من الشرق.

حين فوجئت، ذلك المساء، أن الجثّة ليست جثة والدي، وليست الجثة التي بحثنا عنها إلى درجة التضحية بأنفسنا لإخراجها، كنت أمام خيارين: الاستسلام الى التعب واليأس من العثور على الجثة، أو المقاومة والاستمرار في البحث. طيور النورس كانت تطير

على البحر، ترسم دوائر بيضاء ساعة المغيب، والليل ذو الطراوة، المنعش النسمات الغربية، يهلّ وفي مقدمه الغسق. الليل، على شاطىء اسكندرونة الجميل، يقدم كنوزه وأسراره للبحر، ونحن البحارة اعتدنا ان ننعم بهذه الكنوز، ونحس أننا على اتصال مبهم بأسرار الليل. ولقد أنعشتني النسمات الرهوة، فيما أنا أحدق في الجثّة الغريبة، وفي داخلي شعوران من حزن وفرح، من خيبة وأمل. ولم يلبث الأمل أن فاض في الذات وخدعها. كانت ذاتي مستعدّة لأن تُخدع، ما دام ذلك يعيد إليها الرجاء.

قال أكبر البحّارة سناً:

ــ خسارة.. لقد ذهب تعبنا سدى..

وقال بحار شاب:

ــ سعيد بذل كل جهده.. غاص إلى درجة المغامرة. إن لم يعثر على جثة والده، فمعنى هذا أنها ليست في الباخرة، أو أنها في زاوية مجهولة منها.

وأكد أكبر البحارة سناً:

ــ لم تبق في العنابر زاوية مجهولة.. البحث شملها كلّها.. الجثة ليست في الباخرة..

ــ أين ذهبت إذن؟

ــ اسأل البحر..

ــ لو كان البحر يجيب سألناه منذ البدء.. طالبناه بالغريق والدية معاً.

وقلت في نوع من توكيد:

ــ أنا سأسأله.. سأفعل ذلك على طريقتي.. منذ الصباح سأكون هنا.. ولن أترك خرماً في هذه الباخرة.

عاود أكبر البحارة سناً يقول:

ـ الصباح رباح.. لاتقرّر منذ الآن.. سنتناقش في هذا الأمر.. في الحي بحارة من أصحاب الخبرة.

ـ البحارة على رأسي. خبرتهم موضع احترامي، لكنني، مهما يحدث الليلة، سأستأنف البحث غداً، فمن شاء منكم أن يساعدني فهو مشكور.. ومن كان لديه عمل فهو مشكور أيضاً.. لن ادع والدي في قاع الباخرة.

ـ هذا إذا كان في الباخرة..

لم أجب.. كنت في سري أمارس أملاً في ألّا يكون فيها. وكان الليل قد بدأ يهبط، والجثّة الغريبة ماتزال أمامنا، وبحّار شابّ يسأل:

ـ ماذا نصنع بها؟

ـ نعيدها الى الباخرة. قال أحدهم..

ـ لايمكن.. ستعوم ثانية..

ـ نبلغ السلطات عنها..

اعترض أكبر البحّارة سنّاً:

ـ إذا فعلنا ذلك عَلِقْنا مع السلطة.. ستفتح معنا سيناً وجيماً.. تجنّبوا المشاكل..

ـ ندفنها على الشاطىء..

ـ وهذا عمل محفوف بالخطر.. ربما رآنا احد.. إضافة الى أنه ليس لدينا ما نحفر به..

ـ مازال على الشاطىء بعض الناس.. إنهم ينتظروننا..

ـ هذا أكثر مجلبة للخطر.. سيعرف هؤلاء أننا عثرنا على جثّة غريبة، وينتشر الخبر في الحي، ثم يشيع في المدينة كلّها..

ـ ماذا نفعل بها إذن؟

قال أكبر البحّارة سنّاً:

ـ ندعها في البحر ونمضي.. وحتى الصباح يكون الموج قد قذف بها الى جهة بعيدة على الشاطىء.

ـ نعيد بذلك أمانة البحر للبحر..

ـ هذا هو الحل.. الجثة ليست لنا.. والبحر الذي أهدانا اياها يستعيدها منا.. بذلك نتخلّص من المسؤولية، ونرفض شيئاً غريباً ومشوهاً.. برغم أن هذا ليس عملاً إنسانياً.

قال أكبر البحّارة سناً:

ـ ما هو غير الانساني؟ نحن لسنا ازاء شخص حي.. لو كان هناك إنسان يغرق لكان من الإنسانية، من شرف البحّارة، ألّا ندَعه يغرق، وأن نبذل جهدنا لإنقاذه.. أما هذه الجثة فقد ماتت منذ زمن.. ونحن كبحارة نعرف ما يصنعون بالبحار الميت.. يُلقونه في البحر، ويمضون في طريقهم..

قال البحّار الشاب:

ـ هذا يكون خلال السفر.. لكننا نحن على الشاطىء.. لاتنسوا اننا على الشاطىء..

ـ مفهوم مفهوم.. لكننا في وضع غير طبيعي.. لانريد مشاكل مع الشرطة.. دعوا الجثّة مكانها.. وليتصرّف بها البحر كما يريد..

ـ ولكننا أمام ميت.. وإكرام الميت دفنه..

وقلت في نفسي: «هذا صحيح.. إكرام الميت دفنه.. علينا أن ندفن هذه الجثة.. في البحر أو في البر.. لو كان عندنا ما يجعلها تغوص في القاع.. قطعة حديد او حجر ضخم.. ذلك ضروري.. هذا الغريب بحار أيضاً.. زميلنا في المهنة.. أخونا في الانسانية.. لو كان والدي لفعل ذلك.. ما كان يترك جثّة بحار بغير دفن.. لنفكر قليلاً.. هل ثمة ما يفيدنا في هذه الباخرة؟»

وقلت بصوت عال:

ـ ما رأيكم أن نُغرقها في البحر.. هذه طريقة للدفن أيضاً..

ـ كيف؟.. لا حديد لدينا ولا حجر.. لا كيس ولا حبل.. لقد فكرنا بهذا قبلك.

ـ لنبحث قليلا في هذه الباخرة..

ـ نعود إلى البحث والليل قد هبط؟

تلفّتّ حوالي.. كان البحر يغمر الباخرة.. والدنيا قد أظلمت، ومن المحال أن نعثر على بغيتنا. كان الموقف حرجاً، ومن الضروري أن نتخلص من الجثة بأسرع ما يمكن. هي ليست جثتنا على كل حال، ومهما يكن تظلّ غريبة عنا، إنها لبحارة الباخرة، للفرنسيين الذي أتوا بها وعليهم أن يأخذوها. هذه بضاعتهم صنع أيديهم، ويجب أن تُردّ إليهم، أن تُعاد إلى البحر الذي جاء بها، وعلينا نحن، أن نبحث عن بحّارنا، هو وحده قضيّتنا، ومهما طال البحث، وطال الكفاح، فإننا لن نستبدل به جثة أخرى.

أخيراً وافقت على رأي أكبر البحارة سنّاً:

ـ لندع الجثة الغريبة حيث هي ونمضي. إنها ليست من أرضنا، ولاتقبلها أرضنا، والبحر الذي جاء بها يعيدها، أو يقذفها حيث شاء.. هذا هو الصواب.. هيا بنا ايها الإخوان.

وافقوا جميعاً على هذا الرأي. الموجة الجانحة التي تأتي الشاطىء تموت عليه. إنه مقفر، وسيظل مقفراً، مغلقاً في وجه الغرباء. ليس لدينا وقت للاعتبارات الانسانية. هم لم يضعوا هذه الاعتبارات في حسابهم. لقد نهبونا. الفرنسيون نهبوا سورية. مثلهم مثل الاتراك. والدي قاومهم كما قاوم الاتراك. كلاهما عدوّ. الرحمة مع العدوّ لاتصحّ. إذا ضُبطنا فلن يرحمنا أحد. الفرنسيون أجاعوا الناس، لم يرحموهم، لم يرحموا والدي أيضا. لو أمسكوه لأعدموه. لقد نجا منهم

بالموت أو الفرار. صار الأمر واضحاً. منذ الغد أستأنف البحث في هذه الباخرة، فإذا لم أعثر على الجثة يكون والدي قد نجا بنفسه. إنه بحار ويعرف كيف ينجو بنفسه. سأقيم على أمل عودته، على أمل اللقاء به، وبانتظار ذلك أمشي في دربه. أكافح مثلما كافح. أصارع البحر وأقاوم الفرنسيين. صرت مسؤولاً عن العائلة الآن. ينبغي أن أنهض بالمسؤولية، أن أعتادها، أن أتحمّل كل شيء برجولة، أوردتي ليست شبكات مخزوقة. في عروقي يجري دم بيت حزوم، إنني أحمل اسمهم. هذا ما يجب أن أذكره دائماً، عليّ ألاّ أنساه أبداً. أن أكافح كي أصون هذا الاسم، أحفظه شريفاً كريماً. لن أصبح سمكة هزيلة، ولن أدع لأيّما سمكة أخرى أن تبتلعني. والدي كان كذلك، وأنا مثله. يجب أن أكون مثله.

غادرنا الباخرة.. تركنا الجثة طافية على وجه الماء. هي الآن كالولد الحرام، لا أحد يتبنّاه. نحن لنا ولدُنا، من صُلْبنا، من هذه الأرض، من هذا البحر، من هذا الشاطىء، وعنه فقط سنبحث، فاذا لم نعثر عليه، واصلنا البحث، قمنا مقامه إلى أن يعود.. وسيعود.. الشمس لاتغرق في البحر. تغوص فيه لكنها لاتسمح له أن يُغرقها. في اليوم التالي تُتمّ دورتها. تشرق صباحاً من الجهة الأخرى. بحارتنا لايغرقون ايضا. لايسمحون للعواصف أن تقهرهم. يكمنون في البحر، يذهبون مع التيّار، يصارعون النوء، وكالشمس، بعد ذلك يقفزون من اليمّ، كالأخطبوط الوردي يصعدون الى أعلى، يتعلّقون بالغيوم ويرتفعون، يعودون على أشرعة بيضاء، فرسانَ معارك مظفرة، ثيابهم أرجوانية، ومن أصابعهم ينقط لون أزرق أزرق.. إنها مياه البحر، تودع جسومهم التي احتضنتها، ومن عيونهم ينتشر ضوء النهار، وعلى رؤوس سيكاراتهم تلمع نجوم أليفة، وفي أفواههم أغاني القوّة، اغاني البحارة الذين يعودون منتصرين.

سبحنا باتجاه الشاطىء. وشاح الليل كان نسيجاً رمادياً ملقى على وجه البحر. الماء أصبح رصاصياً داكناً، والرغاء الأبيض الذي تستثيره سواعدنا يجلببه الغبش بلون قاتم. سقسقة الماء ونحن نشقّ البحر بجسوم مندفعة إلى أمام باتت أكثر وضوحاً. حركاتنا الإيقاعية بعثت نوعاً من الاصوات الجماعية. الجوقة تعزف لحن الخيبة. تعود بلا شيء بعد جهد يوم كامل. هي مرتاحة لأنها قامت بواجبها. أنا أيضاً قمت بواجبي. لكن ما يعدّه الآخرون فشلاً أعده نجاحاً، قد لايكون هذا هو الاسم. أنا لم أنجح في شيء، لم أعثر على جثة والدي، ولعل هذا، في الرغبة المضمرة بتأجيل المناحة، قد بعث شعوراً بالرضى بين جوانحي. والدي كان في الجبل. وهو الآن في البحر. كان مفقوداً وظل مفقوداً. لم يكن بيننا ليلة أمس، ولن يكون بيننا الليلة، ومثلما رقدنا البارحة على أملٍ اللقاء به نرقد اليوم. لن نقيم مناحة لغائب. أنا لن أسمح بأن تُقام مناحة لغائب. والدي غائب، مفقود، ضائع في البحر.. لكنه ليس بغريق ولا ميت.. يمكن أن نقول أي شيء، إلّا تلك الكلمةالرهيبة: مات. سأقول لأمي: لم أعثر عليه. معنى هذا أن الأمل لم ينقطع. قد لايكون هذا أملاً حقيقياً، ولا املاً كاملاً، لكنه أمل على كل حال. إنه تأجيل للاعلان الفاجع.. لابأس! الفاجعة مؤجّلة. نستطيع الليلة أن نفكر كثيرا، أن نتصور حلولاً مختلفة، أن نمضي مع الظنّ حيثما شاء أن يطوف بنا. كل هذا متاح، وكل هذا مقبول ومشروع، وهو أفضل من العودة بالجثة. لو عدت بها كنت أمام واقع محدّد، أمام كارثة حقيقية. كان الموت سيّد الموقف عندئذ. لانستطيع أن نقول شيئاً أمامه، ولانقوى على أي أمل حياله. هو سيموت يوماً. والدي، سيموت كغيره، لكنه، اليوم، ليس بميت.. وهذه نتيجة طيّبة، هذه مكافأة البحر على صراعي معه طوال هذا النهار.

ظللنا نتقدم باتجاه الشاطىء. الريح في وجوهنا، والموج ينزلق

على جسومنا، كانت ريحاً شرة[1] مباركة. ريح الصيف على البحر، وهي لم تلمسنا بمكرها وخداعها وحكاياها. الموج أيضا لم يلمسنا بشيء من دهائه وقصصه. نحن بحارة الحي، ذهبنا في طلب جثّة، في طلب رجل، سعينا وراء ثمرة بحرية كريمة، ونحن نعود دونها، ولنا قصة واحدة نقولها، وسيفهمها الناس، ويفهمون أننا بذلنا كل ما يمكن من جهد، فاذا لم نوفق فذلك لأن «الثمرة البحرية» غير موجودة على شجرتها. لقد ارتفعت كقنديل باتجاه القمر. غاصت كالشمس وراء تخوم الأفق. ذهبت إلى مكان ما، بواسطة ما، لكنها لم تخلف أثراً. لم تقل للبحر شيئاً، ولم يقل البحر لنا شيئاً، ونحن لن نقول إلّا أنّ والدي مفقود فلا داعي للحزن والبكاء.. يستطيع الحي أن يقضي ليلة هادئة.. بانتظار ما يُسفر البحث عنه في الغد.

سمعنا لغطاً على الشاطىء الرملي. تبينّ الواقفون عليه عودتنا برغم الغبش. رأونا في ضوء الغسق نقترب منهم. كانت رؤوسنا كرات سوداً على وجه الماء، كانت تتحرك وتقترب من البر، وأصوات سواعدنا تسبقنا اليهم، كانوا متلهّفين لرؤية الجثة معنا، إن الناس، في اللعبة مع الموت، يريدون أن يروا ميتاً. الهدف، في كرة القدم، يستثير المتفرّجين، سقوط مصارع الثيران قتيلاً، شيء مثير بالنسبة للذين يشاهدون مصارعة الثيران. العودة بالجثة، بعد هذا الصراع الطويل مع البحر، شيء مريح لأعصاب المنتظرين. تراكضوا الينا، يبحثون بأحداق فارغة عن المكان الذي أخفينا فيه الغريق.. ورغم الليل كانت عيونهم تومض، كانت تدور في محاجرها، تسأل، تلحّ في السؤال، تريد أن تبكي، فهي، منذ الصباح، موعودة بحفلة بكاء. وأن تعود بلا شيء، بعد هذا الانتظار الطويل، فإنها خيبة شخصية

---

١) ريح مؤاتية.

لكل منهم، وهي مجانبة للتوقّع الذي غذوه من الصباح الى المساء. لقد انطووا على غير ما انطوينا عليه. نحن كنا هناك، على الباخرة، في باحة الصراع، في ميدان اللعب، ولم نكن نحمل مشاعر المتفرّجين نفسها. كنت أختلف حتى عن زملائي البحارة.. بقيت هادئا اكثر مني في الصباح، راضياً اكثر، غير مستعجل لقول أيما شيء سوى لوالدتي التي تنتظر في البيت، ومن حولها نسوة الحي، اللواتي منعنها من الذهاب إلى الشاطىء.

سبحنا حتى صارت قاماتنا تلامس الأرض. وقفنا بعد ذلك ومشينا في البحر. كنا بحاجـة الى المشي بعد نهار كامل ونحن نعوم في الماء. كان بنا شوق الى الأرض. وعلى غير اتفاق عبّرنا جميعا عن شوقنا بالوقوف والسير. صرنا نخبّ كأننا في بركة ماء كبيرة. كان الرذاذ يتطاير من حولنا، والذين على الشاطىء جاءوا إلينا. لم ينتظروا وصولنا. لاقونا في البحر. وصاح رجل متقدّم في السن، هو جارنا في الحي:

ـ ماذا فعلتم؟

ـ لاشيء!

ـ كيف لاشيء؟ والجثة؟

ـ ليست هناك جثة!

ـ هل ابتلعها البحر؟

ـ من يدري؟!

رانت لحظة صمت. هل أسفوا لاننا لم نعثر على الجثّة؟ لأننا تركناها لوحوش البحر؟ لأن والدي كان عزيزا عليهم فهم يريدون أن يدفِنوه كما يليق برجل ضحّى بحياته في سبيلهم؟ هل صارت الفاجعة مضاعفة لأنه غريق ومفقـود؟ لست أدري لماذا سكتـوا. لعلهم لم يصدقوا للوهلة الأولى.. لعلهم لم يروا جيداً فراغ أيدينـا. وحين

بلغناهم واختلطنا بهم علت الأصوات من كل جانب، مرتفعة، متداخلة، متقاطعة، ونسوا، في غمرة الصدمة، أن يسألوا عن حالي، وأن يتوجّهوا الي بتلك الاستفسارات التي توجهوا بها الى البحارة.

كان البحار الكهل يتولى الإجابة:

ـ لم يتــرك سعيد مكاناً في الباخرة إلا وفتّشه.

ـ نزل إلى العنابر؟

ـ كلّ العنابر..

ـ كيف؟

ـ كاد يضحّي بحياته دون طائل..

وسأل أحد الفتيان:

ـ كان قاع الباخرة مظلمًا؟

ـ مظلمًا جداً..

ـ وكيف بحث في الظلمة؟

كان السؤال منطقياً. أُرتج على البحار. تورّط في جواب غير دقيق. ولم أشأ أن أصحح الإجابة. دوري في الكلام لم يأت. انتبهت فجأة الى فضول الناس وأهميّة تفاصيل القصة. لذت بصمت مثير. تركت للبحّارة ان يقولوا ما رأوه على السطح. خبّأت ما عندي الى البيت. سيأتي أهل الحي بعد قليل. ستكون بينهم نساء. وبين النساء صبايا. عندئذ سأتكلم. أروي القصة من بدايتها. أرويها بتمهّل، بتوقّف عند النقاط المهمّة، كما كان يفعل والدي، وكلما جاء فوج جديد سيستعيدني الحكاية. ومن سمعها سيرويها بدوره. المرأة ستقصّها على فتاتها، والفتاة على صاحبتها. الأولاد أيضاً سيسمعون ويتحدّثون. حين كنت طفلا كنت أسمع حكايات والدي وأخرج الى الحي فأرويها لأصحابي. هكذا ينشغل الحي بي. أصير حديثه. أحقق شهرة غير متوقّعة. تصير لي شعبيّة. يقولون ويتزيّدون حول شجاعتي.

أغدو بحاراً شهيراً. صالح حزوم لم يمت. إنه لايموت. سعيد حزوم مكانه. يليق بي أن أكون مكانه.. وغداً، إذا عاد، يسمع بأذنيه كل شيء. يعرف أنني ابنه وخليفته. وسيفخر، يحقّ له أن يفخر. أنا لن أفعل ما يجعله يفقد فخره. أعرف طريقه وسأسير عليه.. منذ الآن بدأت السير عليه..

ارتديت بنطلوني وقميصي. ارتدى البحارة ثيابهم الخفيفة. كانت الثياب مكوّمة بحذاء دغل على الشاطىء. كنت متعباً إلى درجة الإعياء. لكن ذهني كان نشطاً وحاضراً. كنت جائعاً أيضا. لم يكن ثمة ماء. الذين بقوا على الشاطىء لا ماء معهم. لا نساء بينهم. بضعة رجال وفتيان. التفّوا حولنا. حاولوا أن يساعدونا. سألني فتى منهم عما اذا كنت قادراً على السير، كان السؤال تعبيراً عن ودّ، وربّما عن إعجاب، شكرته. قلت: «أستطيع السير حتى الحي»، قال: «استند عليّ قليلا» نصحني آخرون أن أفعل. رفضت. كنت أمارس شعور البطل، سعادته، مظهره الخارجي. كانت صورتي تتراءى لي كما في مرآةٍ إطارُها من الصدف المذهّب. انقضى إحساس العذاب والألم. اندمجت في الدور أكثر. لم أعد أكره الباخرة. صارت الآن صانعة مجدي. والبحر لم يعد طحالب على الصخور. بات عالماً من الفتنة. بقي صمته الذي لايقطعه سوى خرير الموج، وكان هذا يذكّرني بمغامرتي، فأزداد سروراً لأن الواقع كان كذلك، ولأنني لم أعثر على جثة والدي. رحت أهيىء الكلمات التي سأقولها لأمي، وللناس في بيتنا. انتقيت أكثرها إقناعاً. كنت بحاجة لإقناع الناس أن والدي لم يمت. لقد ذهب في البحر إلى مكان ما. ذهب على مركب ما، إلى مدينة مجهولة. هذه الحقيقة وحدها، اذا ترسخت، تبرر ما أنا فيه من هدوء ورضى. وحتى لو كان والدي ميتاً، فان الشك في موته يعطي أملاً في حياته، الشك لمصلحتي، علي أن أغذّيه في داخلي، أن اتمسّك

به. أن أواجه به الأعداء. السلطة الفرنسية لن تكون مرتاحة. كانت تودّ أن نعثر على الجثة وينتهي الأمر. أن تُصفّى القضية وتُحجز. إنها بذلك تُغلق باباً. لاتريد أن يصبح والدي أسطورة. هي تكره الأساطير، خاصة حول الرجال الشجعان، حول الذين قاوموها وحملوا السلاح ضدها. مجرد الظن أن والدي لايزال حيا سيرفع المعنويات. سينتظر الرجال عودته، سيأخذون مكانه، وسيرفضون الاستسلام. هذا معناه كسب لنا، للحيّ، للمدينة للبحّارة. وعليّ أن أؤكد أن والدي لم يمت. ثم إنه لم يمت حقيقة.. لو مات فأين جثته؟ البحر لايحتفظ بالجثث. يلفظها الى الشاطيء، ولأنه لم يفعل، ولأن الجثة ليست في الباخرة، فإن مصيره مازال مجهولا، وهذا يعطينا الحق في أن نقدر ما نريد، وننتظر ما نشاء.. إنه يسمح لنا، نحن بالذات، ان نثق أنه مازال حيا.

كنا نسير الآن عائدين إلى الحي. كنا نودّع صارية السفينة الغارقة. إنها واقفة في مكانها. ستظل كذلك غداً وبعده وبعده. ليس من فانوس عليها، لاحاجة للفانوس ما دامت السفن لاتمرّ بها. في اللجج، والميناء، وأماكن الخطر، يضعون عوّامات. على الصواري يرفعون شارات تحذير. هنا لاشيء. السفينة الجانحة مسالمة. مقطوعة. مهجورة. لعلّها فرحت بنا اليوم. أعدنا إليها الحياة. ذكّرناها بماضيها. وقد تكون أشفقت فأعطتنا تلك الجثة الغريبة. لم تكن تملك غيرها. كافأتنا على طريقتها. أنا سأعود إلى هذه السفينة. غداً سأعود. يجب أن أتأكد .. يسرّني ألا تكون الجثّة فيها، وأن يظل أملي بحياة والدي قائمًا. لكنني سأغوص فيها أيضاً لكي أعزّز هذا الأمل، أجعله يقيناً.

نسيم عذب يهبّ من الجنة، طراوة منعشة. نجوم كثيرة في السماء. ما أسعد الجسم بطراوة النسيم بعد السباحة! ما أروع النسيم

البحري في ليالي الصيف أية مروحة كبيرة خضراء تموّجه! إنه يأتي خفيفاً، لذيذاً، يبترد له العنق، تبترد له الضلوع. ينتعش الجسم كله بعد أن اغتسل وبات مستعداً لتقبّل أعطيات اليابسة، بعد أن عاد الأمل يعمر الصدر. الآن أنا على اليابسة. كم تقت اليها هذا النهار! كم فكرت فيها، وتمنيت الوقوف عليها، والاستلقاء فوقها! الأرض، الأرض، الأرض، ما أطيب الأرض! أية نعمة أن تكون موجودة، وأن نعود إليها بعد تعب، فنتمدّد ونسترخي، ونستريح! أية متعة أن نحسّ، ونحن فوقها، بالأمان الذي حُرمنا منه. كانت الباخرة قريبة من اليابسة لكنها لم تكن على اليابسة. كان هناك بحر. السماء والبحر. يطير الانسان أو يغوص، يحسّ بفرحة في الحالتين، غير أنه يبقى متلفتاً إلى الأرض. عليها يضع قدميه بوثوق. قبلها يظلّ قلقاً. أنا الآن على الارض، لقد تعلّمت، هذا اليوم، أن أحب الأرض، وأسجد عليها إكراماً لها، فهي ملاذنا، رجاؤنا، وقد صدق والدي حين قال: «لاشيء يعوّضنا عن الأرض يابنيّ!».

تضخّم موكبنا ونحن ندخل الحيّ. لحق بنا البحّارة والجيران، رجالاً ونساء وأطفالا. استوقفوا الذين كانوا معي وسألوهم. حاولوا أن يستوقفوني فأبيت. كنت راغباً في الوصول إلى أمي. أنا لا أحمل خبر السوء. سأدعها تبكي قليلاً ثم أوقفها. لا مجال للدموع. الدمع على الميت فقط. نحن ليس لدينا ميت. لقد غاب والدي في البحر. هذا ما استطيع تأكيده. غاب دون أن يترك أثراً. هو يعرف لماذا لم يترك أثراً. لعله فعل ذلك من باب الاحتياط. ليس من عادته أن يفعل ذلك. أن يخفي أنباءه عنا إلى هذه الدرجة. لكنه شاء ذلك، فليكن ما شاء. تظل إرادته مقبولة.

كان بيتنا يقوم على طرف الحي من جانب الطريق العام. كان أقرب البيوت إلى الطريق العام. وكان قنديلنا قد بدأ سهرته. أعدّوه

جيّداً لهذه السهرة. رتّبوا الأشياء في الداخل. الباحة، أمام البيت، كنسوها وصفّوا بعض الكراسي فيها. كانت الليلة صيفية وحارّة. أفرغوا إحدى الغرفتين لوضع الجثمان. تركوا الغرفة الأخرى لنا، ومن المؤكد أنهم جمعوا فيها كلّ أغراض الغرفة الأخرى. تعاون الجيران على هذا الترتيب. في المآتم يقوم تعاون بين الجيران. توديع الفقيد العزيز يحتاج إلى ذلك. بعض النساء يتركن أعمالهن ويأتين للمساعدة. بعضهن يأتين للفرجة أيضاً. الأولاد يتخلّفون. كان هناك عدد منهم. وكان بعض الرجال يجلسون في الباحة، تجلببهم عتمة المساء. نهضوا للقائي من بعيد. انفجر الصياح والبكاء في البيت. خرجت النساء ووقفن أمام الباب. شققت طريقي الى الداخل. بدت أمي، في فستانها الأسود، كأنها ترتدي ثوباً مصنوعاً من قماش الأشرعة بعد صباغه. كانت تمسك صورة شمسية صغيرة لوالدي. الصورة ضرورية في مثل هذه المواقف. وكانت في حالة إعياء كامل. بكت منذ الصباح. كان عليها أن تبكي كلما وصلت امرأة جديدة. وفي أوقات الراحة، كانت النساء يستعدن ذكرياتهن التي لاتلبث أن تهرب كالرمل من بين إصابعهن. ولم يكن في الغرفة سوى سرير والدي. كان سريراً عريضاً، ذا قوائم عالية، عليه شرشف أبيض، وقد بدا كسفينة، وبدت الناموسية عليه كشراع مضموم، ومن حواليه يطل حزن أخرس، وقد أُبقي في الغرفة لسبب لم أفهمه، وجلست أمي على الأرض، ومن حولها النساء النادبات، وإلى وراء، فيما يلي ظهرها، قام صندوق عرسها عند الجدار، وقد أُلقيت عليه قماشة سوداء، فبدا كتابوت طفل، ومن فوقه القنديل، وإلى جانبه سمكة طائرة فضّية محنّطة. أما المرآة فقد حجبوها، كي لايرى أحد من أهل البيت صورته فيها.

حين صرت في العتبة ألقيت تحية المساء. كنت مرتبكاً، محتاراً، لا أعرف كيف أتصرّف ولا من أين أبدأ، وقد شرعت أمي، منذ

رأتني، تلطم خدّيها، تضرب صدرها، وانطلق إخوتي في بكاء جماعي، شارك فيه الحاضرون، وتجمّع الناس على الباب والنوافذ، حتى خُيّل إلي أنني أختنق. انجردت امي وألقت بنفسها على صدري وهي تسأل، بصوت باك، زاعق:

ــ أين أبوك يا سعيد؟

ــ أبي سافر في البحر..

وصاحت مولولة:

ــ لا، لا.. أبوك غرق.. وكنت تبحث عنه.. أبوك غرق.. أبوك مات.

أردت أن أصرخ: «لم يمت.. ذهب في البحر فقط..» لكن صوتي اختنق في حلقي. كان العويل من حولي يُسربلني، كان يُعديني. كدت أبكي أنا نفسي. تبخّرت جميع الكلمات التي هيّأتها. حوصرت بالجو المأتمي. بدت كلمات النفي هزيلة، بائخة، غريبة في ذلك الجو المشبع برائحة الموت، وبالدموع، والأصوات واللغط، والتدافع.

جاء بحّار من الجيران لإنقاذي. كان رجلاً كبيراً، له هيبة واحترام، وقادر أن يوقف موجة الالتياع التي تتفجّر كلما هممت بإخمادها. دفع الناس ودخل. طلب من النساء إمساك أمي وإرجاعها الى وراء.

صاح محتدّاً:

ــ دعونا نفهم.. دعوه يتكلم.. ليقل لنا ماذا جرى..؟ ماذا وجد..؟ كيف عرف أن صالح ذهب في البحر؟

فجأة تحوّل كل شيء الى همهمة. طفقت كل امرأة تسكت الأخرى. انصعن لطلب البحّار العجوز، غير أن السكوت ظل متعذراً. رفضت أمي أن تصدّق. ظلّت تبكي وتعول. تراجعت مع

النساء الى وراء، جلست على الحصير كما كانت، لكنها لم تتوقف عن لطم خديها وصدرها، ولم أكن قادراً على فعل شيء، فاندفعت نحوها وعانقتها:

ــ يا أمي! يا أمي!.. ابي لم يمت.. لم يغرق، البحارة قالوا إنه ذهب في البحر.

ــ البحارة قالوا إنه غرق.. منذ الصباح قالوا إنه غـرق.. وإنك تبحث عنه.

ــ بحثت عنه طويلا.. لو غرق لوجدته.. الإنسان ليس إبرة في قشّ..

ــ البحر كبير.. أين تجده في البحر؟ لو كان حياً لعاد الى البيت..

التقطت العبارة الأخيرة وقلت:

ــ والدي لايستطيع العودة إلى البيت.. وأنت تعرفين هذا..

وقال البحار العجوز:

ــ هذا صحيح.. إذا لم يكن في البحر فإنه في مكان آخر.. صالح في مكان آخر وسيعود.. إنتظري يا أختي يا أم سعيد.. دعينا نفهم كيف جرت الأمور.. تكلّم يا سعيد.. قل لنا ماذا جرى..

زعقت أمي:

ــ أنا لا أصدق.. لا أصدق.. أنتم تضحكون علي.. صالح غرق.. أين جثّته؟ دعوني أراه.. دعوني أودّعه.. أكلّمه.. أرى وجهه.. لماذا لم تخرجوه من البحر؟

ــ في البحر لايوجد شيء..

ــ في الباخرة..

ــ ولا في الباخرة..

ـ على الشاطىء..

ـ بحثنا على طول الشاطىء..

قالت أمي وهي تحدق فيّ بعينين حمراوين من البكاء الطويل:

ـ أين ذهب إذن؟.. أين أبوك يا سعيد؟.. كيف تأتي دونه إلى البيت؟

قلت بصوت مختنق، أبح، يحاول أن يكتسب سيطرة على الموقف:

ـ أبي ليس في البحر، ولا في الباخرة.. من الصباح وأنا ابحث عنه.. والبحارة كذلك.. لم نعثر له على أثر.. الذين كانوا معه قالوا إنه ذهب في البحر..

ـ الى أين؟

ـ لا أعرف.. أبي في وضع لايستطيع معه أن يقول إلى أين يذهب.. انتظري الى غد.. صدّقي ما أقول.. أبي لم يمت..

رفعت يديها الى السماء:

ـ ان شاء الله! إن شاء الله! ليبق حياً وليذهب حيث يريد.

ـ هو حي.. أنا واثق أنه حيّ.. ذهب مع أحد المراكب وسيعود.. نجا بنفسه من السلطة.. هل كنت تريدين أن يمسكوه ويُعدموه؟

ـ باطل.. وفّقه الله.. أخذ بيده.. حفظه سالما..

ـ إنه سالم.. وسيعود..

وقال البحار العجوز:

ـ كنت من الصباح مطمئناً.. صالح بحار ولا كل البحارة.. يستحيل أن يغرق وهو قريب من الشاطىء.

قالت أمي:

ـ الله يصبّر قلبي..

وقلت في ذاتي «آمين».
وقال البحار العجوز:
ـ انزعي هذا السواد عنك وعن البيت.. لبس السواد لايجوز على الحيّ، وكذلك البكاء.. لماذا هذا المأتم؟ ياالله، كل امرأة الى بيتها.. وانت يا أم سعيد، التفتي الى أولادك.. صالح بخير.. وسيعود.. انتظريه..

وقالت أمي كرة اخرى:
ـ الله يصبّر قلبي!
وقلت في ذاتي «آمين». وقال العجوز:
ـ هيّا..

ونهض خارجا. نهضت النسوة أيضاً. ظلّت أمي صامتة. كانت تعبة. كل من في البيت كان تعباً. كنت أجلس على الحصير بجانبها، راغباً أن أستلقي، هكذا، بثيابي، فلا آكل ولا أتكلم. نظرت أمي إليّ متفرّسة، تستنطق ملامحي، فخفت أن تعود الى الأسئلة، وإلى البكاء، لذلك هربت، متمنياً أن يبقى الرجال في الخارج، وألّا نُترك وحدنا بهذه السرعة.

كان الحيّ يعرف واجبه. وبقدر ما كان الرجال يحبّون والدي كانوا حريصين على التعبير عن هذا الحب بالمجيء الينا، بتقديم المساعدات الصغيرة، الممكنة، لنا، وبقول كلمات طيبة، لايملكون غيرها. ومن المؤكد أن أشياء عزيزة قد بيعت، وأن لقمات عن الأفواه قد اقتُطعت، حتى تمكّن بعضهم أن يبعث إلينا بالطحين والسكر وقليل من النقود، يقدّمونها على استحياء، وفي عيونهم اعتذار عن الأيام الصعبة، ثم لايقبلون نقاشاً ولاتوسّلاً في أمرها، لأنها ليست مما يُذكر، في موقف كهذا.

إنني ، وأنا استعيد صور هؤلاء الرجال، هؤلاء البحارة الشجعان، الذين تفوح رائحة الخطر من شعورهم، وينقط البحر من أناملهم، وعلى وجوههم هديره وعواصفه، أحسّ بشيء يذوب في صدري حنيناً اليهم، وبسعادة غامرة أن أكون منهم، وأن يكون أبي زميلهم، وأن أشهد بعيني كيف أن الشدائد لم تبلغ أن تلوي من عزائمهم، أو تحملهم على مهادنة الخطر، من أي نوع، أو الاستسلام لذلك الواقع المؤلم، وللسلطة الفرنسية التي فرضته. إن فرسان الريح هؤلاء، مصارعي الامواج، قاهري الأنواء، قد تكشّفوا، كما عند كل حادث يمرّ بالحي، عن روح عالية من التضامن، وعن نبل بحري لايعرفه ولايحفظه الا ذلك الأزرق الواسع الذي منه كلّ كرامة وكلّ خير.

كان خبر عودتي من البحر قد انتشر بينهم. تكلّم البحارة الذين كانوا معي وأفاضوا. حتى خبر الجثّة الغريبة همسوا به. ما شعروا أنهم يفشون سراً. كانوا يتحدّثون عن واقعة بحرّية بإعجاب، يزدهون بسرد تفصيلاتها، ويضيفون ويتزوّدون، كما فعلوا بقصّة والدي يوم تحدّى التيّار النهري وأنقذ المراكب والزوارق. كنت، كما قدرت، بطل القصة. كان الحيّ جائعاً إلى البطولات. كان لديه مقدار طيّب منها، إلا أنه نِهم يطلب المزيد. يُصرّ على توليدها، على اختراعها، على استعارتها من بحّارة البلدان الأخرى. وفي ظروف الجوع، والمحنة، والنضال ضد فرنسا، كانت البطولة مطلوبة، وها قد أعطاهم البحر أكبر كميّة منها اليوم، فتقاطروا الى بيتنا وفي عيونهم قمر من الفرح.

كنت قد خرجت الى باحة البيت. توصّل البحّار العجوز الى تهدئة العائلة. عاد الأمل الى أمي. كانت تدرك أن ما قيل غايته طمأنتها، إلا أنها تعلّلت بعدم العثور على الجثة. قالت في نفسها «لو غرق لظهرت جثته». كان اختفاء الجثة عاملاً مساعداً في التعلّق برجاء

واهٍ. أنا نفسي تعلّقت بهذا الرجاء وما أزال. في قلب كل شدّة، على البرّ أو البحر، كان عقلي دائمًا يبحث عن خيط من رجاء. صدق الذي قال: «ما أضيق العيش لولا فسحة الأمل!» حسناً! الأمل الصغير الذي انبثق في صدر الأم جعلها تكفّ عن البكاء. هذا أتاح للبيت أن يهدأ. قامت امرأة من الجيران بنزع الغطاء الأسود عن الصندوق. ستارة المرآة رُفعت، دون اتفاق تحرّك الجميع لتغذية الأمل الوليد. إخوتي ابتسموا. أمي غسلت وجهها. نذرت إنْ عاد والدي أن تذبح خروفا. وافقها الحاضرون على نذرها. هذا ايضا مفيد في ترسيخ الانفراج الذي طرأ على جوّ البيت.

خرجت الى الباحة. كنت أفضل حالاً الآن. أصعب ما في الموقف مضى. يئست في البدء من إقناع امي، كدت أسقط في الشرك . وأبكي مثلها. الحزن لايدوم مع الجمع. كنا جمعاً فقهرنا الحزن. أرجأناه الى ما بعد. انتهينا من مظاهر المأتم. بقيت لدينا عدة نساء. من الجارت والقريبات. حملن بعض الطعام لإخوتي. أمي رفضت أن تأكل. تغذّت من فرحتها المضمرة بأن والدي حيّ. كانت قادرة، مقابل خبر كهذا، أن تصوم أسبوعاً. شاع في نفسي هدوء حذر. وبخلاف ما نشدته في المساء، صرت الآن راغباً في أن يأتي الناس، وأن يمكثوا لدينا، حتى تنام والدتي، فلا تخضعني لامتحان جديد.

في الباحة كان بعض الرجال. لم يكن ثمة ضوء. ولم تكن الظلمة شديدة. في المدن الساحلية يمكن السهر، في ليالي الصيف، دون ضوء. نجوم السماء تكفي، وعلى وهج السكائر، حين يعبّ منها الشاربون، يمكن رؤية الوجوه، وتبادل الأحاديث. أنا أعرف تلك الليالي، وخاصة المقمرة منها، وأحبها جداً. لذلك لم أطلب من أهلي إخراج فانوسنا الغازي . كان ضرورياً في الداخل ، ولم يكن لدينا غيره، ثم لم يلبث أحد الجيران أن جاءنا بفانوس، موضوع في بيت

من زجاج، فعلّقناه في شجرة تين، وصار بالامكان أن يرى بعضنا بعضاً، وأن تشترك العيون في الحوار الدائر حول الباخرة الجانحة وبحثنا فيها عن الجثة طوال اليوم.

كانوا يتّجهون نحوي. وجوههم وعيونهم تتّجه نحوي، تتركّز علي. تلتقط كلّ كلمة أقولها. وحين كان يصل بحّارة جدد، كانوا يعانقونني. كانت كلماتهم غصوناً من حبق تضفر إكليلاً حول رأسي. يقولون ولايقتصدون. يفاخرون بي كأنني ابن لكل منهم. كان اخوتي يسمعون، وكم تمنّيت أن تسمع أمي، لكنها أبت الخروج، إكتفت بجلستها داخل البيت على الحصير. كنت أرتاح. تتجدّد قواي. أنسى المجهود الشاقّ الذي بذلته في يومي. أرغب في المزيد، فهذه ليلة تتويجي بحاراً. كنت أروي كيف جاء بدر وأيقظني، وكيف ذهبت الى البحّارة عند المنارة، ثم الغوص في عنابر الباخرة، والعثور على تلك الفجوة في جدار العنبر. ولا أقول شيئاً عن جثّة البحار الغريب، كنت أتجنب الكلام عليها، حتى لايشيع خبرها في الحيّ، ويبلغ السلطة الفرنسية. وكانوا هم، الحاضرين، لايشبعون من الكلام على الحادث، فإذا رويت لهم كيف غامرت، حتى كدت أختنق، نظر بعضهم الى بعض، وقال قائل بينهم:

ـ آه.. كان يجب أن تنتبه.. مهما تكن غواصاً كان يجب أن تنتبه.

او يقول آخر:

ـ لو ضللت الطريق، لاسمح الله، لدفعت حياتك ثمناً لمغامرتك..

وعندئذ يتدخّل بعض البحّارة الذين كانوا معي:

ـ لقد ضلّ طريقه.. انتشلناه من فوهة العنبر وهو في الرمق الأخير.

ـ ومع ذلك تابع الغوص؟

ـ حتى هبوط الليل.

ـ يا للرجولة!

وقال البحار العجوز:

ـ كأنما هو صالح في شبابه.. بارك الله فيك يا سعيد!

وقلت منتشيا:

ـ كانت أعماق الباخرة مظلمة وباردة.. كانت نتنة حتى كدت أختنق.. آه كيف نزل والدي إليها ليلا؟ أية جسارة! أي وثوق بالنفس!

ـ وأنت أي جهد هذا الذي بذلته من الصباح الى المساء.. أما خفت يا سعيد؟

ـ كان والدي معي.. كنت أفكر فيه وأغطس.. وفي القاع كان يتراءى لي فأجاهد لأمكث أطول وقت ممكن.

ـ ومتى قطعت الأمل من العثور عليه؟

ـ حين مشّطت العنابر كلها..

ـ ألم يحدث أن دخلت باباً غير الذي نزلت منه؟

ـ كنت أحدد طريقي سلفا.. أحفظه جيدا..

ـ ألم تكن هناك بضائع؟

ـ ليس في الباخرة سوى صفائح الكاز..

ـ كيف مررت بينها دون ان تفقد طريق العودة؟

ـ كنت كالسمكة.. أحوم حولها ولا أدخل بينها.. الصفائح صفوف متراصّة.. من المحال أن يكون والدي قد عَلِقَ بها.

وقال البحّار العجوز:

ـ أليس في الباخرة فجوات؟

ـ بلى، كانت هناك فجوة.. وقد دخلتها.. لقد غامرت ودخلتها.. ورأيت سلمًا خشبياً يصعد الى أعلى..

ـ هذا سلّم يؤدي الى الغرف العليا..

ـ عرفت ذلك فتجنّبته.. ليس لوالدي شغل هناك.. هو لم يتجاوز العنابر.. أنا متأكد أنه لم يتجاوز العنابر..

أضفت:

ـ لماذا يفعل ذلك إذا كان قد نزل لتعويم الصفائح وليس للنزهة؟

ـ ربما ضلّ طريقه..

ـ والدي لايقع في خطأ كهذا.. شغله كان مع الصفائح.. وهذه كثيرة في العنابر..

وقال بحّار:

ـ مهما يكن، مهما يكن.. النزول الى عنبر باخرة غارقة جنون.. كيف أقدم صالح على هذه المجازفة؟

نبر البحّار العجوز:

ـ وتساءل أيضا؟ فعل ذلك لأجلنا.. لأجل الحي.. كان رجلنا في البر والبحر.. ليحفظه الله.. ليردّه سالماً الينا..

أضاف بعد وقفة:

ـ لقد آلمه أن يرى الناس جياعاً.. انتزع رزقهم من البحر انتزاعا.. هكذا يكون البحّارة.. هذه حكاية بحّار من سواحلنا.. احفظوها وحفّظوها.. يجب أن يعرف أولادنا كيف كان آباؤهم.. تُرى.. يكون الأولاد كما كان الآباء؟ تبقى فروسية البحر كما عرفناها؟ يتخطّى البحار لّجة بعد لّجة، بينما الخطر يبتلع النفوس، والعاصفة تمزّق الأشرعة وتُغيِّب المراكب في القاع؟

ساد الصمت لحظة. خيّمت علينا رهبة كأنما كلام العجوز موجّه

إلى كل منا. . لقد نسينا أنفسنا. البحر، ببروقه، بأمطاره، برياحه، بأمواجه، بصرخاته، بعيون الغرقى الجاحظة، تبدّى لنا في الكلمات التي تُعيد إلى الأذهان بطولات الأجداد الذين كانت مشاعل السفن تضيء وجوههم الغريبة، القاسية.

كان المرفأ، والمنارة، والحوض البحري، والسفن، والمراكب، والمواعين، والزوارق، والغلائل، وكل ما يمتّ الى البحر بصلة، قد صار لوحةً ارتسمت عبر عتمة الليل، وسمعنا في الجو المكهرب صافرات البواخر، وهي تستغيث، إبان العاصفة، وتبدّت لنا الأمواج جبالا، تتعالى، تتهادى، تُقبل من بعيد، وترتطم على صخور الشاطىء فتتحطّم وتتبعثر مزقاً، ثم ترتدّ نثاراً مائياً بخارياً، ينحطّ في اليمّ، ويصير رغاء بدوره، وينسرب في الماء الرصاصيّ الداكن محاولاً اقتحام البحر، لكن الموج ما يلبث أن يصدمه ويعيده معه ليرتطم على الصخر ويتمزّق ويتحوّل إلى نثار مائيّ بخاري كرة أخرى. وتنهمر الأمطار، وتعنف الريح وتتدحرج الرعود في مكان ما من السماء، وتفرقع في انفجار داوٍ عند الأفق، يصحبه برق يومض فينير صفحة السماء السوداء المتّصلة بالبحر، ويغلي الماء المالح ويفور ويشرئب ويندفع باتجاه الشاطىء، وكل ما في البحر يضطرب، يدور، يستغيث، والبحارة المردة، بزنودهم القوية، مفتولة العضل، يقاومون هذا الهول، ويشدّون الحبال، ويطوون الأشرعة، وجلود أعناقهم متوتّرة كالحبال التي تصفر فيها الريح وهي ماتنفكّ تهاجم.

وشيئاً فشيئاً تهدأ العاصفة. ينقشع الغيم. تظهر السماء الزرقاء. تختبىء الريح في مكان ما. يتوقّف المطر. يتجرجر الموج تعباً على وجه اللجّة، يتراخى، يهمد، ومكان البروق المرعبة تبزغ نجوم مزهرة في السماء الصافية، وعوضاً عن الرعود تنتشر موسيقى هادئة، تتصاعد من القاعات السحيقة، وتتنداح في الجوّ، تاركة صدى رخيًا. . وما

تلبث الأنوار المشعّة في السفن أن تنطفىء وتشتعل في لحظة واحدة، وتدوي الصافرات معلنة ميلاد سنة جديدة، على عادتها في المدن الساخلية كلما تصرم عام وولد عام.

لقد اكتملت الدورة. حياة البحر التي تحدّث عنها العجوز تراءت، تجسّمت في شدّتها ويسرها. في إظلامها وتنوّرها، في رعبها وطمأنينتها، في حزنها وفرحها. خُيِّل إلينا أننا نسمع المقاومة الباسلة والاستسلام الصامت، وأن بحارتنا ينهضون من مطاوي الموج وعلى سيكاراتهم تلمع نجوم حمر، وفوق طاقيّاتهم الصوفية تتفتّح زهور بحريّة بيضاء، والقمر يجري على الأمواج، ككرة نورانية غير قابلة للانطفاء.

وقلت كأنني أؤدي قسمًا:

ـ سنكون مثلهم بغير شك.. روح البحار لاتموت، بل تنتقل من الأب الى الابن.

قال البحار العجوز:

ـ هذا ما يقوله البحّارة.. روح ابيك تعيش فيك،

ـ ولكن والدي مازال حيّاً..

ـ أعرف، أعرف.. روح الاب تجري في الابن مع الدم، منذ أن يكون نطفة في الرحم..

أضاف:

ـ أعرف من أنت إذن.. كن بحاراً شجاعاً وطيّباً مثل أبيك..

ـ هذا ما سوف أكونه.. مهما يبلغ الخطر..

ـ لاخطر مع الرجولة.. البحار والخطر توأمان.. بيته الخطر يا بني، لذلك يألفه..

في هذه اللحظة أقبل أحد الفتيان راكضاً، صائحاً وهو يطل على الباحة:

ـ الشرطة!

وقفنا جميعا. ماذا تريد الشرطة في مثل هذا الوقت؟ هل بلغها أمر الباخرة وصفائح الكاز؟ هل ذهب من أخبرها بأن والدي غرق وأنني بحثت عنه طول النهار؟

صاح بي البحّار العجوز:

ـ اهربْ يا سعيد.. اختفِ بين البيوت، لاتَدَعْهم يقبضون عليك.

لكن بحاراً آخر قال:

ـ ولماذا يختفي؟ ماذا فعل؟ إذا فرّ أمامهم سيصبح من المطلوبين.. سيظنّون أن له صلة بالثوار.. الأفضل ان يبقى..

خرجت أمي على أصواتنا وهي تولول:

ـ يا ولدي!

أطلت رؤوس ثلاثة من العتمة. جاويش وشرطيان. كانت مسدساتهم على جنوبهم، وفي يد الجاويش كرباج يضرب به على جزمته ذات العنق، وكان يبدو مغضباً، متنمّراً، يوشك أن يرفع كرباجه ويضرب. قال بنبرة تهديد:

ـ ماذا تفعلون هنا؟

ردّ البحّار العجوز:

ـ نسهر..

ـ هل تعقدون اجتماعا..

وقال بحّار فتى..

ـ نحن لانعرف ماذا تعني.. قلنا لك نسهر.. هل حرام السهر؟

صاح الجاويش محتدّاً:

ـ ترفع صوتك يا كلب؟.. أليس هذا بيت صالح حزوم؟

وقالت أمي وهي تبكي:

ـ نعم يا سيدي.. ماذا تريد؟
ـ أين هو؟
تكلّمت لأول مرة فقلت:
ـ لاندري..
ـ ومن تكون انت؟
ـ ابنه..
ـ انت الذي كنت في الباخرة؟
ـ نعم كنت أبحث عنه...
ـ هيّا معنا..
وصاحت أمي:
ـ يا ويلاه! لماذا تأخذونه؟ ماذا فعل؟
وقال أحد الشرطيين:
ـ زوجك مطلوب.. وابنك ايضاً..
وقال الجاويش:
ـ فتّشوا البيت.. (وملتفتاً الى الحاضرين) لا أحد يتحرك.. سنطلق النار على من يعترضنا.

لفّنا الذهول للوهلة الأولى. فكرت بالمقاومة. لم أخف التهديد باطلاق الرصاص. كنت أعرف أن ثلاثة من رجال الشرطة لايستطيعون شيئاً في هذا الحي. يعرفون أن مسدساتهم لن تحميهم.. رجال الحيّ قادرون على مواجهة فصيلة كاملة. من السهل أن نختفي في الحي، ثم نغادره ليلا إلى الجبل. هكذا فعل والدي والآخرون.. لكن والدي غير موجود.. ليفتّشوا البيت. لقد نجا منهم في الحالين. كان هذا أشرف وأدعى الى الراحة. أن يموت الإنسان برصاص عدوّه أفضل من أن يموت على مشنقته. عليه أن يقاوم حتى النفس الأخير، وبعد ذلك، حين لايبقى لديه ما يدفع به عن نفسه، تستوي عنده الأشياء.

تـراكض الجيران. وصـل البحـارة أيضـاً رغب بعضهم في التدخّل. البحّار العجوز عارض. كنت في قبضتهم. المعركة ستسفر عن قتلى وجرحى. سيزيد عدد الفارّين والمطلوبين. القضيّة لاتستحقّ مثل هذا العراك الدامي. إنهم يطلبون صالح حزوم. هذا واضح منذ وصولهم. حسناً! صالح غير موجود ــ فكّر البحّار العجوز ــ وإذن لن يجدوا شيئاً. وقال لي، فيما بعد: «لم أكن قلقاً عليك يا سعيد. . كنت أعرف ألّا علاقة لك بما قام به أبوك. وأنهم يطلبونك للاستجواب، بغية معرفة مكانه. . ولأنه غير معروف المكان، ولا ندري أين سافر، فقد قلت إن الاستجواب سينتهي بسرعة وتعود الى بيتك، تعود الى أمك وإخوتك. . لقد أخطأت، يابني، سامحني».

نعم لقد أخطأ البحّار العجوز.

أخطأ وأنا أسامحه. .

فقد قادوني الى النظارة، وعذبـوني كثيراً، كي أخبـرهم أين والدي، ولما كنت أجهل مكانه، فقد ذهبت جهودهم سدى. وفـي اليوم التالي أطلقوا سراحي.

ذهبت الى الباخرة وبحثت عن والدي دون أن أقع على جثّته، وعدت إلى البحث في اليوم التالي، وبعد ذلك اقتنعت أنه لم يغرق. . وأنه سافر وسيعود. . وعندما اعتقلوني ثانية قلت للمحقق كلّ هذا، لكنّه لم يقتنع. أمر بسجني، وفي هذه المرة توسَّع معي في التحقيق، وفتح دفتر تلك الجثّة الغريبة، واعتبروني مسؤولاً عن بحّار فرنسي غريق. . «كيف؟ ــ قلت له ــ والجثة كانت في الباخرة، والباخرة غرقت قبل عام كامل؟» وقال المحقق: «أنت وجدتها بعد هذا العام وأنت مسؤول عنها. . كان يجب أن تحافظ عليها، أو تخبر السلطة، بدلاً من أن تمثّل فيها وتتركها لوحوش البحر» أنكرت أنني مثّلت فيها، لكن المحقق أحالني الى المحكمة المختلطة في حلب، وهناك

طالب النائب العام الفرنسي بسجني قائلاً: «هذه جريمة بحقّ الانسانية الدافع اليها الكره والوحشية ومقاومة السلطة الفرنسية.. إن دم الفرنسي لايسقط بالتقادم، وان المتهم وجد الجثة ولم يحافظ عليها، ولم يخبر عنها، بل مثّل فيها ودفعها ثانية الى البحر.. هذا جرم إنساني، والقانون لايتسامح مع الجرائم الانسانية.»

ودافع عني أحد المحامين العرب، ودافعت عن نفسي ما استطعت، لكن المحكمة كانت فرنسية، وكانت فرنسا تستعمر سورية، وتريد الانتقام من أبنائها، فحكم علي بالسجن ثلاث سنوات.

أدركت وأنا أُرمى في الزنزانة، أنني حُكمت نيابة عن والدي، وأنني فدية عنه، وأنّ ما اعتزمته يتحقّق فأنا أسلك طريقه في البرّ والبحر معاً.

٢

«.. وياسعيد ــ قال في نفسه وهو في السجن ــ، عليك أن تكبر بسرعة. أنت فتى ما تزال، لكن فتوّتك استُلبت بطريقة ما، فأنت صغير في العمر كبير في التجربة، أو هكذا ينبغي أن تكون. أنت رجل الآن لانك تعيش بين رجال، ولن تشفع لك السنّ إذا ما أخطأت التصرّف. عليك أن تعي ما حولك، أن تراقب الأشياء والأقوال جيداً، أن تراقب حركاتك وأقوالك قبل كل شيء. لاتقل «لا أعرف» . تعلَّم. الحياة مدرسة والسجن جزء من الحياة، فهو إذن جزء من المدرسة. الكلمات هنا محفورة على الظهور، منقوشة على الوجوه، مرسومة على الجدران، مدوّنة على الأرضية الاسمنتية للقاووش الكبير، وفي كل يوم تتغير الكلمات، ويتبدّل الاشخاص، وتختلف الحكايات. ويبقى خطّ وحيد ثابت: أن تكون رجلا وتعامل الآخرين كرجال، كي يعاملوك بمثل ما تعاملهم.»

في اليوم الأول ، بعد الحكم ، ضاقت به الدنيا . استشعر قهراً مراً، حاداً، يفري أحشاءه، وينتشر طعمًا حارقاً، كريهاً، في فمه وتحت لسانه،راحت غدده تفرز هذا القهر لعاباً سامّاً يبلِّل شفتيه كلما جرض بريقه. وبدا القاووش، على سعته، ضيّقاً بهظه بشعور الاختناق. صارت النافذة، ذات القضبان الحديدية، الموجودة في أعلى الجدار، متنفَّسه الوحيد. أخذ يتساءل: كيف «تؤمّن الهواء لكل هؤلاء المحشورين في القاووش»؟ لم يكن قد سمع بذلك السجين

الذي، في زنزانته، ركب اسطوانة تنكية وضع انفه في فوهتها كي يحس بمزيد من الهواء في رئتيه. لقد فكر أن يتعلّق بالنافذة ويستنشق الهواء منها مباشرة. وفكر أن يضع كفّه قبالتها ليتأكد أن الريح تمرُّ منها، وأن في القاووش ما يكفي من الهواء.

في هذا اليوم، أحسّ بوطأة الزمن لأول مرة في حياته. خيل إليه أن الساعة لاتمشي، أو أنها تمشي ببطء شديد. هاله أن يكتشف الفراغ من حوله وفي حياته الراهنة في السجن. جلس بغير حراك. لم يتكلم. عمَّ يتكلم؟ ضاع الكلام في بطنه. وعلى خلاف العادة، فرض التأمل عليه نفسه. طفق يفكر بالنهارات والليالي، وبالعيش الفارغ، الكسول، على النحو الذي عرفه في التوقيف، وآلمه أن يفقد الحركة والصراع في العمل الذي كان يستغرق وقته كله. في المدرسة لم يكن يستشعر العطالة. في البحر لم يكن لديه وقت للتفكير في شيء خارج النزول والطلوع بين العنبر والسطح، وبين البواخر والزوارق. كان النهار يمضي دون أن يحس به. كان النهار يطير. الساعة تجري مسرعة. العقربان كانا في سباق. وما يكاد الصبح يشرق حتى تغيب الشمس. كان غافلاً عن الزمن. إنه يدرك، بوعي كامل، المفاصل الرئيسية لليوم: الصباح والظهر والمساء. ويدرك، بسبب المراقبة، كم ساعة بين كل مفصل وآخر. يحسب أن اليوم يتألف من اربع وعشرين ساعة، والأسبوع من سبعة أيام، والشهر من ثلاثين، والسنة من ثلاثمئة وخمسة وستين يوما، وأن عليه أن يعيش هذه الأيام الطوال واحدا واحداً، بانتظار أن تمضي السنوات الثلاث المحكوم بها.

فرصة التنفّس لم تخفّف إلا قليلا. كانت باحة السجن كبيرة. السجناء يذهبون فيها ويجيئون. يتكلمون بأصوات مرتفعة. أيديهم تتحرّك في الهواء. لكل منهم حكاية. لكل منهم قضيّة. لكل منهم همّ. وفي الباحة كما في القاووش، يتحدثون عن كل ذلك، يتخفّفون

بالحديث، يندغمون في حياتهم داخل الأسوار. يتلاءمون مع الظروف. لقد اعتادوا مجتمعهم الصغير هذا. صاروا جزءاً منه، صار واقعاً معروفاً ومقبولاً منهم. مع ذلك ثمة من يقرفصون في زوايا الباحة. ينفرد كل بنفسه. يتعذّب صامتا. يتكوَّر على بعضه. يفكّر بما لايدري إلّاه. ورجال الدرك يراقبون. ينتشرون في أنحاء الباحة وعلى الأسطحة. بعضهم يختلط بالمساجين، يحرّك عصاه في وجوههم، وعلى الطرف الايمن من الباحة منطقة محرمة: إنها تطلّ على سجن النساء. وقال سعيد في نفسه «ان يسجن الرجل فهذا مفهوم، ولكن المرأة؟» وتساءل: «كيف يكون سجن النساء من الداخل؟» وتفرَّس فيما حوله: كان ثمة فقر وبؤس وشرّ كثير. كانت الأشكال متباينة، وعلى الرؤوس طاقيات تميّز السجناء، وبعض الاجسام شبه عارية، وفي العيون نظرات فارغة، جائعة، تدور في الأبعاد الاربعة وتصطدم حيثما اتجهت بالاسوار العالية. وفكّر بالحياة في الخارج، وقال في نفسه: «ماذا تفعل أمي ويفعل اخوتي الآن؟».

بعد اسبوع نقل إلى سجن الاسكندرونة. عليه أن يمضي عقوبته هناك. الحكم صدر في حلب، لكن سجنها لايتّسع لغير أبناء المنطقة. كان قد بدأ يتعرّف إلى زملائه في القاووش. سرّه أن بينهم من سجن لأسباب سياسية، تتّصل بمقاومة فرنسا. كان هؤلاء من الفلاحين الذين شاركوا، هم أو أولادهم، في ثورة الشمال. آخرون منهم كانوا من حلب نفسها، بقيادة إبراهيم هنانو. وحين قصّ عليهم قصّة والده دُهشوا. لم يكن قد بلغهم أن بحّارة اسكندرونة تمرّدوا. كانت فرنسا تمنع وصول مثل هذه الأخبار. ولم يكن آنذاك صحف ولا إذاعات، ومع أنهم يعرفون أن ثمة أزمة، وبطالة، إلا أن أخبار المظاهرة، وما تبعها من أحداث، وخروج صالح حزوم الى الجبل، وغارات عمال المرفأ على مستودعات الحبوب، كانت جديدة عليهم، وكان وقعها مثيراً جداً، أدرك معه أن ما قام به والده جدير بأن يُكتب

في منشور من تلك المناشير التي توزَّع ليلا، وأن يبلغ كل أنحاء البلاد.

قرَّر، في ذات نفسه، أن يتحدّث بكل ما سمع إلى السجناء في اسكندرونة، وأن يُفضي به الى زوّاره من أبناء الحيّ. عرف الآن أنه سجين لسبب آخر، شريف، يدعو إلى الراحة، ويمكنه أن يرويه ويفاخر به، وأن النضال، ضد فرنسا، واسع يشمل البلاد كلها، ومتنوّع إلى درجة أن حادث الباخرة، وترك جثة ذلك البحار الفرنسي في الماء، ومقاومة الشرطة، أمور مفيدة، وذات قيمة، وأن سنوات الحكم الثلاث، ليست شيئاً يُذكر إلى جانب الأحكام الصادرة على الآخرين، وبينها المؤبّد والإعدام.

هذه الأفكار، في طريق عودته من حلب، أنعشته. السجن في اسكندرونة، مهما يكن قاسيا، يبقى أخفّ من سجن حلب، هنا مدينته، أهله، أصحابه. هنا البحارة، العمال، أبناء الحي، وسيرى أمه، ويطلّ ، من النافذة، على المدينة والبحر، ويكون على صلة بناسه، فلا يبقى غريبا مرتين، في السجن وفي المدينة.

مرّوا به من أمام المدرسة. كان السجن يواجه المدرسة من جانبها الخلفي. تذكر أيام الدراسة. وجد نفسه قد ابتعد كثيراً عنها. فارق الطفولة بسرعة. كاد ينساها. الأحداث أنسته وقائعها، لقد قفز في العمر والتجربة قفزا، وهذا السجن الذي كان يراه من الخارج، لم يتهيّأ له أنه سيراه من الداخل بهذه السرعة، وأنه سيحشر فيه بين رجال كان يراهم من باحة المدرسة، ويشفق على حالهم، ويعجب لغرابتهم، ويظن أنهم من فئة أخرى، غير فئات الناس العاديين ، وأن لهم، جميعا، شوارب ضخمة، وعيوناً حمراً، وأشكالاً مخيفة.

داخل السجن فكوا قيوده. كان القيد الحديدي قد ترك أثراً حول معصميه. وكان السجناء يحملقون فيه، ورجال الدرك يدفعونه

الى الداخل، وصرّة الثياب تحت إبطه، والقفل الحديدي، على الباب الكبير، يبعث صوتاً موحشاً. لم يكن يعرف أحداً، ولايدري أين يتّجه، وما ان أغلق الباب وراءه، حتى انقطع عن العالم الخارجي، وواجه حقيقة السجن الرهيبة. تساءل: «هل أخضع، مرة أخرى، للتعذيب؟» لقد رفض أن يتكلم عن البحّارة الذين كانوا معه عند اكتشاف جثّة البحار الفرنسي الغريق، ورفض أن يذكر أسماء رجال الحي الذين يختفون في الجبل. ولم يوقع على إفادته إلا بعد أن شطبوا منها أنه مثّل بجثة ذلك البحار.. وكلما اشتدّ التعذيب اكتسب مناعة ضد الاستسلام. التحدّي صار مباراة بين الطرفين، وكي لايخسر من الجولة الأولى، قرّر ألّا يبوح بسرّ، ألّا يخون والده ولا الرجال الذين يحبهم. ومع أنهم، في سجن حلب، قالوا له إن التعذيب، بعد صدور الحكم، غير وارد، فإنه كان يحتفظ بيقظة إرادته ضد كل محاولة جديدة لإذلاله.

وحين صار في القاووش، وضع صرّته قرب الجدار، في الموضع الذي اختاره له الدركي. ظل واقفا في البدء. ثم جلس على الصرة وأطرق أمام النظرات التي انصبّت عليه من كل جهة. إنها عملية تعذيب نفسية، يمارسها عليه السجناء أنفسهم. لقد حدث الشيء نفسه في سجن التوقيف، وفي سجن حلب المركزي، وعليه عاجلاً أو آجلاً، أن يتكلم، أن يحكي قصّته، وأن يتحمل الشكّ والتكذيب في عيون الذين حوله. ذلك أن السارق لايقول إنه سارق، وقاطع الطريق لايبوح بحقيقته فورا ومرتكب الفعل الشنيع، يصرُّ على أنه تعارك لأجل قضية، والقاتل، دفاعاً عن الشرف، وحده يتباهى بفعلته.

كان القاووش مستطيلا، على جوانبه فرش السجناء. وفي الصدر يجلس رجل كهل، على فراش وثير، وأمامه حصير، عليها

علب الـدخان، وبضعـة مساجـين يتحلّقون حـوله. أمـا السجنـاء الآخرون فكانوا يجلسون أو ينامون، كل في الفسحة الضيّقة المخصصة له، وفي الزاوية المواجهة للباب بابور كاز، يطهو عليه سجينٌ الشاي والقهوة، ويقوم بخدمة السجناء، مقابل ما يجودون به عليه.

عندما رفع رأسه ونظر إلى الجدار المواجه، أدهشه أن سجيناً شاباً يجلس في أسفله ويبكي. كان السجين نحيلا، ناتىء الجبهة، تبدو عليه شارات الصلع المبكر، ومن كيانه كلّه ينضح الخوف ونفاد الصبر. فهو ينوح كامرأة ضعيفة، تعرّضت لاعتداء ما.

كان يبكي لأنه غير قادر على البقاء في السجن. وكان السجناء يرثون لحاله تارة، ويستخفّون به طورا. كانوا لايستـطيعون حيـاله شيئا، فالسجن قائم، وهو الذي لايستطيع البقاء فيه، عليه أن يفكر أنه أمام أمر واقع. وأن عليه أن يتقبّل هذا الواقع بشيء من إرادة. لقد كانوا مثله، يكرهون أن يكونوا بين هذه الجدران. إن أحـداً لايريد أن يكون في السجن، سواء كان مذنباً ام بريئاً. في مواجهة فقـدان الحرّيـة، يشعر الجميـع بتـوق مضـاعف اليهـا، ينـاضلون للخلاص، يسعون لها بكل الوسائل، يبذلون كل ما في وسعهـم، حتى ليبلغوا درجة التفكير بالهرب، لكنهم، ما داموا امام حقيقة لابد من مواجهتها، فإنهم يلجأون إلى الارادة، الى رباطة الجأش، إلى استنفار الشجاعة والنخوة، إلى الخشية من العار، وتحت كل هذه المبرّرات يندرج شيء واحد: احتمال ما هم فيه من بلاء. ان المـرء، حين يفكر في الموت، يجزع. وقد يبلغ به الجزع حدّ الهلع، درجة البكاء. لكن أين المفر؟ المـوت حقيقة لامهـرب منها. كـل الناس سيموتون، ولأنهم كذلك، فلابدّ لهم من التماسك أمام مصير لامعدى عنه. هذا يعطيهم قدرة على الاحتمال. يجعلهم يـواجهون القـدر المحتوم برضى لاغنى عنه، ومن ثم يتحوّلون الى اللامبالاة تجاهه، وهذا ما يمدّهم بالشجاعة على مواجهة أمر غير قابل للنقاش.

قد لايكون السجن كالموت. ثمة فارق كبير. الموت نهاية كل حي، لكن السجن ليس مصيراً لا خيار معه. غير أن المواجهة، في حالة الوقوف أمام واقع الحالين، تختلف من إنسان لآخر. من كان على شيء من وعي، وشيء من شجاعة، يتقبّل واقع السجن كما يتقبّل واقع الموت. يرتفع عليه. يبتسم أمامه، يتحدّاه، لايحمله في روحه. هكذا يعطي معنى الاستهانة بالشدائد القدرة على الارتفاع عليها، وتصير كل المصاعب قابلة للكسر، وكلّ «وقائع الحال»، من الموت الى السجن إلى المنفى الى المرض، الى العجز، الى الخوف، ممكنة المواجهة، وغير عصيّة على الانهزام، لينتصر الإنسان أمامها بقوة إرادته التي لاتعرف، في غناها وصلابتها، حداً للصمود والغلبة.

لكن السجين، واسمه عطيّة، كان لايعرف، فطرة، ضرورة المقاومة، ولايعرف، تجربة، ضرورة الارتفاع على الشدة، فهو ينوء تحتها، وهو يجزع أمام وطأتها، وهو يبكي منذ دخل القاووش، دون أن ينفعه بكاؤه في قليل أو كثير، ودون أن يقلل من ذكائه الذي تدلّ عليه طلعته. كل ما في الأمر أنه كان جبانا، كان ذكيا وجبانا.

تأمله سعيد بإشفاق، حدس أنه ضحية اخرى من ضحايا الحياة. ولم يكن سعيد قادراً على فهم هذا الواقع السيء وإن كان يستشعره. تساءل في ذات نفسه: «هل سرق هذا الشاب؟» ولم يستبعد ذلك بسبب البطالة والجوع السائدين. قال في نفسه: «والدي عمد الى القوة. مخازن الحبوب كانت للدولة، لكن الدولة تركت مواطنيها جائعين. جعلتهم يأخذون غصباً ما كان يجب أن تعطيهم إياه بالرضا. والدي أخذ قوت الحي عنوة. خرج على المستعمرين بالسلاح. كان يعرف أن هذا حق الشعب. تعلّم من المظاهرة ألّا فائدة من البكاء، الأقوال، في البدء، تكون مقبولة، تشرح حال المتكلّمين، وبعد ذلك، حين لاتجدي، يفرض النضال نفسه،

كذلك كانت الحال مع والدي. لقد حمل السلاح دون أن يعرف أن هناك، في كل أنحاء البلاد، كثيرين يحملونه. أدّى واجبه. كان هو نفسه في مرسين وفي اسكندرونة. هناك الاتراك وهنا الفرنسيون، سُجن هناك وسجنتُ هنا.. كلانا نسير على درب واحدة. هو لم يبك وأنا لم أبك وهذا الشاب يبكي لأنه لايعرف كما أعرف. لأن والده ليس كوالدي.»

الشاب مازال يبكي وسعيد ينظر اليه متعاطفا: «ما هي قصّته يا ترى؟ ما قصص هؤلاء السجناء؟ ما هي أحكامهم؟ من هو هذا الكهل الجالس في الصدر؟ ولماذا يتحلّق حوله السجناء؟ أيكون زعيمًا؟ ريّساً؟ وجيهاً؟ إنّه غني.. هذا ظاهر من فراشه، من ثيابه، من علب الدخان المنثورة أمامه، من كؤوس الشاي والقهوة التي تُقدَّم اليه والى الجالسين معه.. إنه قوي.. هو غني فهو قوي.. الغنى قوّة. والدي قال ذلك، كن غنياً تكن قوياً..». سألته: «ماذا يفعل الفقراء إذن»؟ أجابني: «لا أدري..!» ثم أضاف: «يفعلون كما أفعل.. كما يفعل أهل حيّنا.. يتظاهرون.. يموتون.. ثم..» ولم يكمل.. كان لايريد أن أعرف ماذا يفعل في الليل.. حسنا أنا أعرف.. لذلك لا أبكي.

ارتفع صوت الرجل الكهل من صدر القاووش:

ـ لماذا تبكي يا عطيّه؟

ـ لأنني لا أطيق السجن،

ـ قريباً تخرج منه.

ـ أريد أن أخرج اليوم،

ـ هذا غير ممكن..

ـ لماذا؟

ـ اسأل الذي حبسك..

ـ أيطول حبسي؟

وقال شاب ربع القامة، يجلس الى يميني:

ــ رأس حكمك ثلاث سنوات.. واذا كنت من أصحاب السوابق..

قاطعه عطيه:

ــ أنا لست من أصحاب السوابق.. هذه هي المرة الأولى التي أدخل فيها السجن..

وقال سعيد في نفسه «هذا واضح»

وقال الرجل الكهل:

ــ ستعتاد.. السجن للرجال..

وقال رجل متهدّم، ممزّق الثياب، في الزاوية:

ــ والكلاب أيضا..

ضحك السجناء:

ــ انت كلب يا فضلو..

وقال سجين:

ــ بل الكلب اجرأ منه.. ينبح على الأقل!

ــ أو يبكي..

قاطعه الكهل:

ــ لاتتدخّل في غيرك يا فضلو.. البكاء ليس عيباً.. سليمان الحكيم بكى..

ــ كلامك على رأسي.. لكنني لا أفهم لماذا يبكي عطيه.. ماذا يفيده البكاء؟

ــ البكاء يصفّي الرأس..

وقال سجين:

ــ ويفشّ الخلق..

قال فضلو:

ــ ويقبض القلب.. العمى! ألا يكفي قلوبنـا كـل هـذا الانقباض؟

ــ من رأى الى مصيبة غيره هانت مصيبته..
ــ ألا تكفينا مصائبنا..؟
قال الكهل:
ــ الرجل يحمل مصيبته ومصيبة غيره.. كن رجلا يا فضلو..
قال السجين:
ــ الكلب لا يصير رجلاً يا أبا يوسف..
ــ حتى الكلب يصير.. الشدّة تعلم..
ــ لماذا لايتعلّم فضلو إذن؟..
ــ لأنه مسكين..
وقال سجين لم يتكلم قبل الآن:
ــ الفقر سبب كل علّة.. ألا ترون فضلو عارياً في هذا البرد؟
وقال الكهل:
ــ اي والله.. الحقّ علي.. غداً سأشتري له سترة..
وقال السجين:
ــ مهما يكن.. مهما يكن.. البكاء عيب.. يليق بالضعيف فقط.. لو بقيت عارياً ما بكيت.

ــ أنت لاتبقى عاريا.. تسرق الكحل من العين.
ــ أنا لا أسرق جاري على كل حال.
قال أبو يوسف:
ــ الله أوصى بالجار.. وعطيّه جارنا.. توصّوا به..
وتكلم عبّاس، السجين الشاب، الجالس بجانب سعيد:
ــ أنا فعلت.. قلت لطعمه كلمة ورد غطاها..
قال أبو يوسف:

ـ انت تفهم يا عباس.. اشهد الله انك تفهم.. خسارة.. لو درست الحقوق..

ـ من رضي عاش.. حرمنا المدرسة فتعلّمنا في السجن.. فشر أكبر محام..

ـ قدّها وقدود.. نصيحتك لاتخيب..

ـ نصحت عطيه لوجه الله.. انا لا أريد جزاء ولا شكوراً..

ـ وبماذا نصحته؟

انتصب عباس في جلسته وقال:

ـ قلت له: لايشيلها الا من رماها.. البنت ادخلته السجن والبنت تخرجه.

وقال عطيه:

ـ كيف أتوصّل اليها؟ هي في سجن النساء وأنا هنا..

ـ اترك هذا علي.. اشتر لي صباحاً علبة حلاوة، والباقي أتكفل به..

ـ خذ علبتين.. ثلاث علب.. خذ ما معي وفوقها ثيابي..

ـ لن آخذ شيئاً.. علبة حلاوة تكفي.. وعندما تخرج أكرم القاووش.. هذا شرطي الوحيد.

قال أبو يوسف:

ـ وعطيه قبل بشرطك.. أنا أتكلم نيابة عنه.. ما قولك يا عطيه؟

قال عطيه وهو يمسح دموعه:

ـ قبلت .. علبة حلاوة وحبة مسك .. فقط لو أخرج من هنا..

ـ ستخرج .. اعتمد على عباس..

وقال فضلو:

ـ ولماذا العجلة؟ ألا يعجبك المقام معنا يا عطيه..؟

قال عطيه بصوت مبلّل بالدمع:

ــ لا أطيق السجن...

ــ غداً تعتاده.

وتدخل ابو يوسف لينهي الحوار:

ــ كفى.. إلحق عباس غداً في وقت التنفس يا عطيه.. نفِّذ ما يقوله.. لاتخجل ولاتخف.. كن رجلا..

وقال السجين:

ــ ولا تكن كلبا مثل فضلو.. أو تعلّم النباح على الأقل..

وقال سجين لم يسبق له أن تكلم:

ــ وعندما تخرج عضّ تلك البنت.. عضّها من.. (وقال كلمة داعرة)

أجفل سعيد. كانت الكلمة عارية جداً، قبيحة جداً، زاد من قبحها، أنها اقترنت بالعضّ، وأنها قيلت في معرض الحديث عن فتاة هي، برغم كل شيء، صديقة او قريبة عطيه، هذا المسكين الذي لايستطيع الدفاع عن نفسه، فكيف بالدفاع عن فتاة سجينة مثله بجرم مشترك؟

ضحك السجناء. لم يراعوا في ضحكهم حرمة أحد. الكلمة البذيئة، التي تناولت عضواً معينا في الفتاة، أضحكت المساجين وهاجتهم. كانت هذه الكلمة ترد على الألسنة في شتيمة عابرة، لكنها وقد قرنت بالعضّ، فقد اكتسبت وقعاً حسّياً هاج هؤلاء الرجال الذين يكفي مرور امرأة يشاهدونها من النافذة، حتى تتلبَّسهم حالة من غلمة تنزّ من عيونهم المرتطمة نظراتها أبداً بأسوار السجن.

راح الفحيح الصامت من شهوة مكبوتة يقلقه. تذكر أن عليه أن يمارس هذا الحرمان طوال سنوات ثلاث، وان عليه ان يكبته بقدر ما يستطيع، لكن حين يرتفع الغطاء عن قِدْر بخاريّة يغلي ماؤها، فإن

الوجوه والأيدي القريبة تحسّ باحتراق فعلي. المسألة الجنسية كانت نائمة في الأعماق، مضغوطة بالقهر الشديد لحرمان لا حيلة فيه، وها هي كلمة واحدة تفجّر الموقف.

لم يقل عطيه شيئاً. ازداد سقوط رأسه على صدره، وبيديه الاثنتين أحاط ركبتيه، في جلسة يستند بها على الأرض بمؤخرته فقط، ويتكىء على الجدار بظهره، وهو يفكر بفتاته التي أوقعته في هذا المأزق.

قال في نفسه «كان علي أن أحذر عاقبة التمادي معها. لقد اندفعت كأعمى. جسدها البضّ، المكتنز، هو الذي أعماني. كان ناعم الملمس، حارّاً وحريرياً الى درجة لاتُصدَّق، وكان لحمها شديداً، حتى لا أستطيع قرصه إلا بصعوبة. كانت غضّة تماماً، وفتيّة، والسمنةُ الخفيفة تضفي عليها جاذبية خاصّة، ولكم تمنّيت أن أراها أمامي عارية. مرة واحدة لو رأيتها عارية، يا ربّ، لماذا لم أستطع أن أراها عارية؟»

كان القاووش في هذا الوقت يعجّ بالسجناء. كانوا كلّهم فيه بعد أن عادوا من التنفسّ، نشيطين، مفتوحي الشهية، يبحثون عن أيما لقمة يسدّون بها رمقهم بانتظار الطعام الذي لن يأتي قبل العصر. وكان الحديث عن الوسيلة الوحيدة للتسلية. وكان أبو يوسف قد أوصى مصطفى بتقديم الشاي لكل من في القاووش على شرف سعيد، باعتباره نزيلاً جديداً. وهكذا قطعت الاصوات المتداخلة، المتشابكة، مجرى تفكير عطيه، ورغب ابو يوسف في إخراجه من عالم «مأساته» الداخلية فناداه من مجلسه:

ــ بماذا تفكر يا عطيه؟

ــ بقصّتي..

ــ أما انتهيت من التفكير فيها؟

ــ أستعيد كيف حدث ذلك..

ــ شاركنا الحديث تَنْسَ.. قم اغسلْ وجهك..

ــ غسلته صباحا..

ــ إغسله مرة أخرى.. إمش.. تريَّض.. قم بأية حركة تنشط جسمك وتقوي معنوياتك..

ــ لا أستطيع..

ــ حاول..

لم يجب عطيه. كان مهزوماً من الداخل. لايريد أن يساعد نفسه على الخلاص من اكتئابه، وهذا ما جعله فريسة سهلة للهمّ والخوف.

ولقد احتار سعيد في تحديد موقفه منه. في البدء أخذته شفقة عليه، لكن الشفقة لم تلبث أن تحولت الى سخرية فامتعاض. كره فيه هشاشته، فسولته، خوفه المتورّم من السجن، مع أنه لايخضع الى استجواب وتعذيب. قال في نفسه: «قد أكون من طبيعة أخرى، مغامرة، صدامية، محبّة للشقاوة، لكن عطيه لايمثل طبيعة تستحق أن تكون إنسانية، إنه خرقة لا أكثر. ليس رجلا بأية حال. المرأة لاتفعل كما يفعل، مع أنه يعرف أن كل ما يفعله سدى، لايعود عليه بأية فائدة.»

تطوَّع عباس للكلام، همساً، على قصّة عطيه، لّخصها، على طريقته في اختصار الوقائع، بكلمات قليلة. عطيه أحب فتاة. نام معها. كاد يتزوّجها، لكنها سرقت خاتم مخدومها الفرنسي، وأعطته اياه مقسمة إنها وجدته في الطريق. حين اكتُشفت السرقة قبضوا على الفتاة، فقالت ان الخاتم المسروق مع عطيه، وأنه شريكها، وبذلك جرّته إلى السجن معها.

قال سعيد مستهيناً بالقصة كلها:

ــ ولكنها قضية بسيطة.. بل هي «فشرة»

قال عباس:

ــ نعم هي كذلك، لكنها مأساة بالنسبة لعطيه.

أضاف:

ــ عرفت ، من خلال إقامتي في السجن، ناساً كثيرين يصنعون مآسيهم من لا شيء.. يضخّمون الأمور الى درجة ينوءون تحتها، وهذا كلّه بفعل الخوف..

وبعد وقفة:

ــ الخوف عدّو الانسان الأول يا سعيد..

وقال سعيد في نفسه: «الآن عرفت لماذا عاش والدي سعيداً».

× × ×

في الساعة التاسعة ليلا أطفئت الأنوار في القواويش. أشعل السجناء شمعة تابعوا السهر عليها. ظل سعيد جالساً في مكانه. مصطفى. خادم القاووش، أجّره حصيراً لينام عليه، قدّم له قهوة أيضا. دعاه أبو يوسف الى حلقته فاعتذر، فضّل أن يبقى حيث هو . ظلّ يسمع، يراقب، يكتشف، وظلّ عباس يحدّثه بقصص السجناء. وقد عاد أبو يوسف، يوصي عباس أن يهتمّ بقضية عطيه. قال عباس:

ــ إخراجه من ورطته عليّ.. سأسحبه منها كما تُسحب الشعرة من العجين.

دُهش سعيد لهذه الثقة بالنفس. لم يكن يعرف بهذه الأمور. لم يحضر محاكمات. كانوا، في حيّ البحارة، يسمّون المحامي «افوكاتو»، وكانوا يتصوّرونه نوعاً من ساحر، وأن القضية التي يضع يده فيها تحُلّ

بقدرة قادر. وكان هذا كله مفهوماً، ما دام «الأفوكاتو» قد درس القانون، وهو يلبس الرداء الأسود، وله كلمة مسموعة، أما عباس السجين، فكيف يفعل لحلّ قضية عطيه؟

وتطوّع عباس، دون أن يسأله سعيد ذلك، ليشرح له خطّته على النحو التالي: يقترب عطيه صباحاً من سجن النساء، بحمايته وشفاعته أمام الدرك. هناك يستطيع، من وراء الحاجز الفاصل بين السجنين أن يرى فتاته ويكلّمها ويطلب منها أن تعود عن إفادتها، أن تقول الحقيقة رحمة به وبأمه. مقابل ذلك على عطيه أن يَعِدَها بالزواج. يشرح لها فائدة أن يكون طليقاً، ليستطيع مساعدتها ومساعدة عائلتها. يقسم لها أن يوكل محامياً عنها، أن يزورها كل اسبوع. فاذا اقتنعت وعادت عن إفادتها، إذا قالت إنه يجهل أن الخاتم كان مسروقاً، تطابقت الإفادتان، وخرج عطية بكفالة، ومن المرجّح، لأنه ليس من أصحاب السوابق، أن يمنع قاضي التحقيق محاكمته.

كان عطيه مستعداً لكل هذا. سيقول ما يطلبه منه عباس بالحرف. الفتاة ماكرة، وعليه أن يكون ماكراً أيضاً. لقد اكتشف، ولكن بعد فوات الأوان، أنها كانت سيئة من جميع النواحي: تزني، تسرق، تفعل كل شيء. تأكّد أن أعجوبة أنقذته من الزواج بها والسجن هو هذه الأعجوبة. مع ذلك عليه أن يسترضيها، أن يتوسّل إليها، أن يتعهّد بكل ما تطلب منه. وقال لعباس «سأفي بكل تعهداتي. أساعدها قدر ما أستطيع. لن أنساها إذا هي أخرجتني من هنا. سأظل أذكر معروفها.. وما عدا الزواج فإني ألبّي كل طلباتها». قال عباس: «واذا كان الزواج ثمناً لهذا الخروج»؟

فلم يتردد عطية في الجواب:

ــ أتزوجها، بل خروجي من هنا.

وقال أبو يوسف ضاحكا:

ـ أحسنت يا بطل!

وقبل أن ينام السجناء تبوّلوا في صفيحة موضوعة في الزاوية. كانت الرائحة كريهة. ولأنها قريبة من سعيد، فقد كان عليه، باعتباره سجيناً جديداً، أن يتحمّل. فهم الضرورة لتصرف لا إنساني كهذا. قال له مصطفى: «غَطِّ رأسك إذا أزعجتك الرائحة» وقال سجين آخر معتذراً: «ماذا نفعل إذا كان أولاد الكلب يغلقون الباب من المساء؟». ولو كان البول وحده لهان الأمر، السجناء يكابرون في قضاء حاجتهم إلى الصباح، لكن يحدث أن يكون أحدهم مريضاً، أو مضطراً، وعندئذ تصبح الصفيحة المرحاض الذي لا بدّ من قضاء الحاجة فيه.

في الليل سمع بكاء صادراً من أحد جوانب القاووش. تخلّلت البكاء صيحات وشتائم. سمع أحدهم يقول: «إرفع السكّين عنيّ.. أنا لا أستطيع، لا أستطيع» وأجابه صاحب السكّين: «لا ترفع صوتك وإلاّ قتلتك، عرص!». أجفل سعيد. طار النوم من عينيه. ماذا يفعلون في الظلمة؟ من هذا الذي يهدّدونه بالقتل ولماذا؟ أية جريمة تُرتكب هنا؟ سمع، أيضاً، صرخة موجعة، تلاها صمت. لكن الرجال تتابعوا. كانوا يفعلون المنكر بشاب صغير. وكان الشاب يبكي، ويرفض، وعندئذ يهدّدونه بالقتل. يخَزونه برأس السكين. أدرك سعيد، الآن، لماذا كان عطيه يبكي. يخاف مصيراً كهذا المصير. وقال في نفسه: «سأمنع ما يجري.. علي تأديب صاحب السكين» جلس في فراشه، وصاح بصوت ضمّنه كلّ غضبه:

ـ ما هذا الصراخ؟ من يبكي هنا؟

ران الصمت على القاووش. وقال سعيد مرعداً:

ـ أنذال!

وعندئذ رأى، في الظلمة، زوالاً يتحرك. انتصب واقفاً. كان واثقاً من نفسه. إنه لا يخشى السجين ولا سكّينه، لكن الظلمة حالت دون الرؤ ية، فاندفع إلى أمام وهو يصيح:

ــ يا ابن العاهرة.. غداً نتحاسب.

في هذه اللحظة اشتعلت أعوادُ الثقاب، وعلا طرقٌ على الباب، من الداخل، وارتفعت الاصوات وتداخلت، ولم يميّز سعيد، رغم ذلك، وجه الرجل الذي هاجمه، لكنه وجد نفسه محجوزاً عنه ببعض السجناء، وجاءه صوت أبو يوسف، من صدر القاووش، متسائلا:

ــ ماذا جرى؟ لماذا هذا الصراخ؟ كفى.. أخزاكم الله!

وصاح مصطفى محذّراً:

أطفئوا النور.. جاء الدرك.

فعقع الحديد، ومن الكوّة سُلّطت المصابيح الكهربائية. وحين فُتح الباب، كان السجناء قد تراكضوا إلى أماكنهم، وأخفى صاحب السكّين أداته داخل فراشه. الفتى الذي ارتكبوا معه المنكر وحده ظلّ يبكي. عطيه وقف لصق الجدار، يداه مسبلتان على جانبيه، وعيناه تدوران في وقبيهما خوفاً من الدرك الذين اقتحموا القاووش شاهري السلاح، بعد أن أُشعلت المصابيح الكهربائية في كلّ السجن.

تكلّم الفتى حمود خلل دموعه. كان جانحاً، متّهمًا بسرقة، ولأنه ليس في المدينة إصلاحية، فقد حشروه في السجن العام، بين القتلة والمجرمين، واستغلّ هؤلاء صغر سنّه، فأرغموه، تحت التهديد، على اللواطية، وأحدثوا جرحاً في شرجه، فهو يتألم والدم يسيل منه.

كان حمود في الرابعة عشرة من عمره، مستدير الوجه، يعلو هامته شعرٌ خرنوبي كثيف، مشعّث، وله قوام فارع، وعينان

مغروزتان، وجسم ممتلىء، تكسوه أسمال قذرة، تدلّ على تشرّده، وقد هرب من بيت أبيه الذي طلّق أمه، وهام على وجهه في الطرقات، وانتهى إلى عصابة من الفتيان الجانحين، تعاطى معها سرقة البيوت والحوانيت، إلى أن قُبض عليه وأُدخل السجن.

دهش سعيد لوجود هذا الفتى في القاووش. لم يكن قد لاحظه. كان الفتى ينام من غير شكّ. إنه في الطرف الاقصى، يتكوّر على ما يشبه الطراحة، قرب سجين قاتل، يدعى رحمو، هو الذي هدّد الفتى بسكّينه، بعد أن رفض هذا مطاوعته.

أخرجوا الفتى حمود إلى المكان الذي وقف فيه جاويش الدرك. سُئل عمّن اعتدى عليه فلم ينبس بكلمة. كان خائفاً، يبكي وقد انضمّ كتفاه من الألم. لقد هدّده رحمو بالموت. الآخرون صمتوا أيضاً، كانوا لا مبالين. اعتادوا أمثال هذا الحادث. كان السجن مباءة، كان مفرخة للجريمة بكل أنواعها، وكان الجاويش يعرف ذلك، ينظر إلى الفتى بشفقة عاجزة، طالباً منه أن يكفّ عن البكاء، وأن يتكلّم دون خوف، فهو سيحميه، ويضع المعتدي في الزنزانة.

وقال سعيد في نفسه: «يا للوحشية» كان ينظر إلى الفتى ويفكّر. إنه خليق بأن يكون في المدرسة. أمثاله ينامون في أسرّتهم الآن. هو هنا يتعرّض للانتهاك. لقد أدخلوه السجن لأنه سرق، لكنه لن يخرج قبل أن يتعلّم كل صنوف الرذيلة. سيُدفع إلى الجريمة دفعاً. والده الذي طلّق أمه ارتكب جريمة مزدوجة. قذف بالوالدة الى البؤس، وبالولد الى السجن. القانون لا يتدخّل في مثل هذه الحالة. لا يبحث عن الدافع الاصلي. ينتظر حتى تقع الجريمة، وبعد ذلك يدين المجرم. يدينه ولا يردعه. يعلمه الإجرام من جديد. السجن ليس للإصلاح. الطفل هالك لا محالة. الطفل هالك لا محالة!

قال الجاويش للفتى وهو يضع يده على رأسه:

ـ ألا تعرف من اعتدى عليك إذن؟

رفع الفتى رأسه باتجاه رحمو، ثم خفضه وهزّ كتفيه علامة النفي. كان رحمو ينظر اليه خفية. لكن الفتى رأى النظرة الذئبية فامتلأ رعباً، وأصرّ على أنه لا يعرف الفاعل. عندئذ أمر الجاويش جميع السجناء بالوقوف، وبرفع الأيدي إلى أعلى، وطلب من الدرك أن يتحرّوا القاووش، وأنذر من يقاوم باطلاق النار.

خطر لسعيد أن يتكلّم. أن يدلّ على الجاني، غير أنه تعلم من سجن حلب أن السجين الذي يشي بزملائه يصبح مكروهاً منهم. إن للسجن أخلاقياته وأعرافه، وهو لا يريد أن يخرق هذه الأعراف في الليلة الاولى لوصوله. كان مستعداً للعراك مع رحمو لإنقاذ الفتى من بين يديه، لمنع هذه الجريمة الأخلاقية في القاووش. لكن العراك شيء والوشاية شيء آخر. على الدرك أن يجدوا الفاعل بأنفسهم. على حمود أن يدلّ عليه، اذا توفّرت له الحماية والطمأنينة. رحمو لن يدع المسألة تمرّ. سيحاول الانتقام من سعيد. إنه يملك مدية، فإذا لم يكتشفها رجال الدرك، حاول استعمالها او التهديد بها. «هذا المجرم ـ قال سعيد في نفسه ـ بحاجة لتأديب، لو كان والدي لأدّبه، لجعله يعرف من صالح حزوم. أنا لن أكون أقلّ من والدي. سيعرف الجميع أنني سعيد حزوم. ومع أنني لا أعتدي، ولا أريد التدخّل في مشاكل الناس وخصوصياتهم، فإن السكوت على العدوان يجعلني في المستقبل عرضة له. جديد أنا في السجن، في القاووش، وكان باكراً عليّ العراك بعد، غير أن ممارسة الفحشاء مع هذا الصبي الجانح، الفقير، غير مقبولة ونحن موجودون. من لا يثبت في السجن لا يثبت خارجه. والدي قال: «الحياة معركة» تُرى كان يحزر أن العراك سيفرض عليّ فرضاً، وأن الحياة تتطلّب مهرها؟ هل أخطب الحياة؟ من أيّ صنف تريد أن يكون خُطّابها؟ والدي كان خطيباً لائقاً. دفع لها مهراً غالياً.

قد يكون دفع حياته. مرات كثيرة عرض مهراً سخيّاً. من أجل ذلك كانت له خطيبة وفيّة. مات؟ لا بأس، كلّنا سنموت. السؤال: كيف عاش؟ أيّ عزاء، أي شرف، أية استقامة، وفي معركة، إذا كان قد مات، أية تضحية قدَّم؟ ».

انتهى تفتيش القاووش. عثروا على أدوات جارحة صغيرة. عثروا، في الفراش، على مدية رحمو، كبّلوه وأخذوه إلى الزنزانة، وقال وهو يغادر القاووش: «سأعود ونتحاسب» كان واضحاً أنه يوجّه تهديده الى سعيد. لم يقل هذا شيئاً. أخذ علمًا بالإنذار. «الحياة معركة» قال والده. هذا درس مفيد. كلّ دروس والده مفيدة. هو يؤمن بذلك إيماناً عميقاً. لهذا لا يقيم وزناً للتهديدات. إنه، في عقله الباطني، يبحث عن مكان له في هذا السجن، ظروفه القاسية لا تسمح له بالتراجع أمام أي خطر. ستكون لياليه قاسية وشقيّة. إذا لم يثبت رجله في السجن، إذا لم يدافع عن حقّه في أن يعيش شريفاً كما علّمه أبوه.

المسألة، بعد ذلك، كانت مسألة الفتى، أين يذهب به الجاويش؟ رحمو يتكرّر هنا كثيراً. في كل قاووش رحمو. في كل قاووش بيع وشراء وتأجير واستئجار وسرقة وقمار وجرائم ونذالات. والجاويش يعرف ذلك جيداً. يعرف ماذا ينتظر الفتى، لكنّه لا يستطيع شيئاً حيال الشرّ السائد. كان يجب أن يكون ثمة إصلاحية. فرنسا لا تهتمّ بالاصلاحيات. اهتمامها منصبّ على السجون. الاضطرابات في كل مكان. الوطنيون يتحرّكون، يناضلون، يثورون، والسجون الموجودة لا تكفي، القلاع تحوّلت الى سجون للوطنيين، في ظلمات أقبيتها يذوون مقيّدين بالسلاسل. حين لا يتّسع المكان يُخلى سبيل المجرمين، هؤلاء لا خطر منهم على الاحتلال الفرنسي، خطرهم على المجتمع، وماذا يهمّ فرنسا من

المجتمع؟ ما تعمل له هو فرض احتلالها، تثبيته، إدامته، والذين يقاومونها من العمّال والفلاحين والكسبة يحرّضهم بعض الزعماء، وبعض «اليساريين» المندسّين بين الشغيلة في المرفأ وسكة الحديد وبين البحارة وفي الاحياء الفقيرة ــ هؤلاء تصل بهم الجرأة حدّ رفع السلاح والاختباء في الجبل، وهي، فرنسا، تتعقّبهم، تقتلهم، تعتقل منهم، تشنق بعضهم، أو تحكم عليهم أحكاماً طويلة. من أجل ذلك السجون ضرورية. البندقيّة والسجن. المسدس والكرباج. الإفساد، مزيد من الإفساد. أما الإصلاح، أما الإصلاحيات فلا، هذه مرفوضة.

وقال الجاويش للفتى حمود:

ــ ماذا أفعل بك أنت؟ تبقى في القاووش بعد أن رحل عنه رحمو أم ننقلك إلى قاووش آخر؟

وأجاب حمود متوسلا:

ــ أرجعوني إلى أهلي..

ــ لتهرب من جديد؟.. لماذا فعلتها يا حمود.. هل تشعر بالندم؟

ــ أبوس إيدك.. أرجعني إلى أهلي.

ــ ولكنك موقوف.. الأمر ليس بيدي.. لماذا سرقت؟

ــ كنت جائعاً.

ــ الذي يجوع يعمل ولا يسرق.. فهمت؟

ــ لم أجد عملاً.. كنت جائعاً ولم أجد عملاً.

ــ والآن؟

ــ أتوب على يد الله ويدك.

ــ قل هذا الكلام في المحكمة.. أنا لست المحكمة.. أنا منفّذ للأحكام..

ــ أبو يوسف يكفلني..

تكلم أبو يوسف لأول مرة فقال:

ــ إبق في القاووش وأنا أكفلك.. لن أسمح لأحد بالاعتداء عليك.. تعال إلى جانبي.. هات حصيرك.

وقال الجاويش متودّداً:

ــ كفالتك على الرأس يا أبا يوسف.. أنت في مقام والدنا جميعاً.

ــ أستغفر الله.. وعسى أن يتوب عنا جميعاً.

ــ لا إله إلا الله، هو العليّ القدير.. إذهب إلى عمك أبي يوسف يا حمود..

سار الفتى بصعوبة. كان يتألم. وعندئذ التفت الجاويش إلى سعيد قائلاً بلهجة ساخرة:

ــ أنت الضيف الجديد؟

ــ كما ترى..

ــ ولم تخف من رحمو؟

ــ لا أخاف إلا من الله..

ــ لكنني لا أريد مشاكل، أتفهم؟ إذا تكرّر الحادث ذهبت أنت أيضاً إلى الزنزانة..

قال سعيد:

ــ حسبت أنك ستثني على موقفي.. لولاي كان حمود..

ــ أعرف، أعرف.. مع ذلك لا أريد مشاكل.. بأي جرم دخلت إلى هنا؟

ــ بجرم سياسي..

قاطعه الجاويش:

ــ ما شاء الله.. ستقول لي قاومت فرنسا؟

ــ ولماذا لا أقاومها؟

ــ إخرس...

اكتفى سعيد بأن زَوَرَ الجاويش. وفيها الصمت يرين بسبب الجواب الحازم، تطلّع السجناء بعضهم إلى بعض، وعاد الجاويش يسأل:

ـ ما اسمك الكامل؟

ـ سعيد حزوم..

ـ صالح حزوم من يكون بالنسبة اليك؟

ـ والدي...

وقال أحد السجناء بنبرة إعجاب عفوية:

ـ أنعم وأكرم..

ـ على كلٍّ ـ قال الجاويش ـ نحن في سجن . هنا لا تفريق بين سجين سياسي وأي سجين آخر.. كلّكم سجناء.. أتفهم؟

ـ لا احتاج الى وصيّة..

عاد السجين يقول:

ـ سعيد أخونا اذن.. يا مرحبا

انتهره الجاويش:

ـ أغلق فمك أنت.. لا تحشر نفسك فيما لا يعنيك.

وردّ السجين بقوة، متحدّياً هذه المرة:

ـ دولتك لم تستطع إغلاق فمي.. أنا لست رحمو يا جاويش..

ـ تهدّدني يا ديبو؟

ـ أنا لا أهدّدك.. عيب.. أنت لست فرنسياً. كلنا من هذا الوطن.

وقال أبو يوسف:

ـ هذا هو الصحيح.. كلامك جوهر..

مال الجاويش الى الملاينة:

ـ أنا لا أقول غير ذلك.. وأنت تعرف يا ديبو. اسأل الجماعة..

وبعد وقفة:

ـ عودوا إلى أماكنكم.. لا أريد شغباً والسلام..

وملتفتاً إلى سعيد:

ـ غداً قابلني في الإدارة.. أنا أفهمك ولكن..

خرج الجاويش ومعه رجال الدرك. أغلق الباب المصفّح بالمفتاح. أطفئت الأضواء في السجن. استلقى الجميع على فرشهم. قال سعيد في نفسه وعيناه تحدّقان بالسقف عبر الظلمة: «من يكون ديبو هذا؟ لا بد أن يكون من الرجال الوطنيين.. لعله اشترك في مظاهرة أو إضراب، ولعلّه قاوم الفرنسيين. هنا أيضاً سأجد رفاقاً.. الجاويش قال لديبو «اسأل الجماعة.» من هم هؤلاء؟ لست وحيداً إذن. سألتقي بهم غداً أو بعده. لن يكون السجن صعباً في هذه الحال. نستطيع أن نتفاهم، وأن تكون لنا كلمة مسموعة..»

في الصباح تراكض السجناء، ما إن فتح الباب، إلى قضاء حاجاتهم. كان على السجين الجديد، كما جرت العادة في القاووش، أن يحمل صفيحة الأقذار إلى المرحاض. لكن مصطفى قام بهذه المهمّة عن سعيد. ودون أن يسأله، حمل إليه فنجاناً من القهوة، وتلقّى تحيات الصباح من السجناء، وحفاوة من أبي يوسف.

حمود ظلّ نائماً على حصيره. عطيه جلس عند قدم الجدار يفكر. لم يحلق لحيته ولا مشطّ شعره. خُيّل إليه أن الظهور بكل تعاسة مظهره أوقع في نظر انسطاسيا، سيرقّ قلبها ما ان تشاهده على هذه الحال. المهمّ، في تقديره، أن يرقّ قلبها، فذلك نقطة البداية كما قال عباس. وكان عباس يتجادل مع سجين وصله قرار الاتهام أمس، قال له: «رأس محكوميته بضع سنوات» أجفل الرجل: «كيف؟ السائق

لا يحكم مدة طويلة كهذه» أجاب عباس «أنت يا حسين قتلت ثلاثة أشخاص دفعة واحدة. دهستهم بسيارتك، أليس صحيحاً؟» قال حسين «نعم.. أفلت «الفرين» وأنا في نزلة.. قضاء وقدر» «واذا ثبت أنك كنت مسطولا من الحشيش كما يدعي عليك أهلهم؟»

تواصلت الضجّة في الخارج، السجناء يتراكضون الى المراحيض. بجانبها صنابير مياه لغسل الوجه. كلّ ينتظر دوره. بعضهم يتوسّل كي يُسمح له بالدخول قبل غيره. شتائم، ضحكات، أصوات مرتفعة، هنا الحياة كما في ثكنة. على كل سجين أن يدبّر رأسه. من يُسرق عليه أن يَسرق. من يُضرب عليه أن يَضرب، الشكوى لا تفيد. من كان لديه نقود يحفظها في عبّه ولا يخبر أحداً. الطعام يوزّع مرة في اليوم، ويقول السجناء إنه طعام لا يؤكل. مع ذلك ينتظرونه جياعاً حتى الساعة الرابعة. هناك أرغفة تُباع. يستطيع السجين أن يشتري عند التنفّس من الدكان الصغيرة في طرف الباحة. يستطيع أيضاً، أن يتسلل إلى قاووش آخر، للمقامرة أو التحشيش، ثمة سماسرة ووسطاء يسهلون الانتقال. كل ما في الخارج موجود في الداخل. تنوّع كامل. الشجاع، الجبان، الضاحك، الباكي، المقامر، شارب الحشيش، من لا يفهم شيئاً، من يفهم أكثر من محام، من لا يكترث بالسجن، من يقتل نفسه غمًّا، من دخل السجن للثأر، أو لارتكابه جريمة، أو لأن فتاة ورّطته، أو لأنه سرق.. أنماط كثيرة، وقصص كثيرة، ودنيا مغلقة على ما ومن فيها. إضافة إلى القمل والبقّ الذي يزحف على الجدران.

هذه اللوحة لم تكن غريبة على سعيد، لكنها هنا بانورامية أكثر. وكالآخرين انتظر دوره أمام المرحاض كان هذا مخلوع الباب، مكشوفاً. عليه إذن أن يقضي حاجته أمام السجناء. عليه كذلك ألّا يتأخر. يبلّل شعره وعنقه كيفما اتفق. إذا تأخر دفعوه وحلّوا محله، بعد ذلك

يعود إلى قاووشه للإفطار. يأكل ما عنده دون أن يدعو الآخرين. اللقمة عزيزة. العيون فارغة. من يملك وحده يتمكّن من الشبع، من الرفاهية ضمن شروط السجن.

قال سعيد في نفسه: «لا بأس سأعتاد» وقال له ديبو: «لا تُبالِ.. ستتعاون» وفي وقت معين وقف الجميع: إنها ساعة التنفّس إهرعوا إلى الباحة، وسار سعيد وديبو على مهل، بينما ركض عطيه في أثر عباس، وهذا يوصيه بالجرأة: «لا تخف اذا انتهرك الدرك. سأكون قريباً منك.. كلِّمها بهدوء. قل لها كل شيء. خذ منها وعداً بالعودة عن إفادتها.. هل تملك مالاً؟» وقال عطيه «لدي حوالي الليرتين» «أعطها شيئاً إذن... لتكن ليرة كاملة ويبقى معك القروش. هيا لنشتري علبة الحلاوة».

كانت الباحة تعجّ بالسجناء. وعلى حجر قرب المدخل، حلّاق يزاول مهنته، وكان السجناء يذهبون ويجيئون، على رؤوسهم طاقيات بيضاء مخرّمة، ورجل كهل يفتل مغزله على فخذه ويُرسله في الفضاء معلّقاً بخيط من الصوف. لقد ذبح امرأته فحكم خمسة عشر عاماً. وقال له ديبو: «كيف الحال يا درويش؟» فأجابه هذا: «الحمد لله.. تفرج» «كم بقي لك في السجن؟» «بسيطة.. انتهت المحكومية، الباقي خمس سنوات». ضحك ديبو وقال ملتفتاً إلى سعيد، «أسمعت؟»

كل جسم يتألف من لحم ودم وأعصاب.. العصب حين يموت في عضو ما يصاب بالشلل، هو إذن لا يموت في جسم ما، ينام، يتبلّد. أو لا يعطي ردود فعل. هنيئاً للذين لهم أعصاب نائمة، متبلّدة، أو متوقفة عن ردود الفعل. هؤلاء بينهم وبين الإدراك مسافة. من فئة التجار أو الأغنياء يكونون. لذلك يستطيعون العيش في أيّ جوّ وضعتهم، ولا يبهظهم حتى جوّ السجن نفسه.

درويش لم يكن تاجراً. كان غبيّاً على الأرجح. من يتمنّى الغباء على راحة الاعصاب؟ ذابح امرأته حصل على الراحة بغير أمنية. يأتي وقت يتمنّى الذكي فيه أن يكون غبياً. إذا كانت راحة الاعصاب توافيه، بأمنية أو دونها. عطيّه لم يكن غبيّاً. كان ذميلاً، خرعاً، جباناً، لكنه لم يكن غبيّاً. هنا كانت مأساته التي لم يفهمها. ظل يبكي منذ دخل السجن إلى أن استطاع مقابلة فتاته انسطاسيا. وعدته أن تغيّر إفادتها. أن تقول كما علّمها تماماً. مشورة عباس نجحت. قال له: «غداً أو بعده تخرج من السجن» فابتسم عطيه لأول مرة، وكفّ عن ترداد عبارته: «أخرجوني من هنا».

سعيد ضاق بالسجن لكنّه لم يبك. لم يفهم المشكلة ولم يفكر فيها. قرّر منذ البدء ألّا يخون نفسه وكفى، كان محكوماً بوالده على رغم الاختلاف بينهما في الطبع. كان والده يرشده. كان هو المبدأ بالنسبة اليه، وهكذا كانت له قضية عصمته. كل صاحب قضيـة تعصمه قضيته. ولأنه آمن بقضية الوطن، فقد عاد سعيد من التنفّس راضياً، مصمّمًا أن يقضي محكوميته دون شكوى تحطّ من معنوياته أو رجولته. وسرعان ما جاءته المكافأة دون توقّع شيء ما عوّض عن بلادة الأعصاب وعن الأمنية في الغباء. الشجاع لا يخون ذكاءه، وكان سعيد من الشجعان، وهكذا نجا من إغراء الضعف، ووجد نفسه، فجأة، محلّ تكريم في القاووش. صار حمود لا يفارقه. ديبو عمل كل ما في وسعه كي ينقله إلى جانبه. ابو يوسف دعاه إلى حلقته وأجلسه على فراشه.

لكن القاووش عرف حادثة جديدة اليوم. كان قد دخله منذ يومين رجل من عائلة معروفة في المدينة يدعى برهان. كان طويلاً، ضامراً، أقرع كما يبدو من سالفيه، وله لثغة في الكلام. كان يستمدّ نفوذه من هيبة عائلته وسلطتها في أحد الأحياء. وقد زعم أنه تشاجر

مع رجل آخر فضربه بالسكين، كان الشجار تمثيلاً أراد به دخول السجن، كي يقتل غريماً له يدعى «الأعسر»، ولم يكن سعيد قد رأى برهان أو شاكله، لكن الرجل كان كريماً، أريحياً، سرعان ما اكتسب ودّ المساجين، وبدأت الرسل تأتيه من القواويش الأخرى. ولم يعرف أحد ماذا يجري، لكن أحد جواسيس السجن وشى به، وللحال أطبق الدرك على القاووش، كما في الليلة الفائتة، وطلبوا من الجميع رفع الايدي إلى أعلى.

امتثل سعيد للأمر. وقف ويداه مرفوعتان. مرّ به الجاويش فهمس: «الأمر لا يعنيك أنت» كانت هذه اللفتة بمثابة ترضية عن جفاء الامس. فقال له ديبو: «لا تخف.. التفتيش لا يخصُّنا». وقال الجاويش لبرهان: «أين هو فراشك؟» أشار هذا إلى فراش قربه، فانقضّ عليه الدرك يتحرّونه. لم يجدوا شيئاً. صاح الجاويش: «فتّشوا جيّداً» أعادوا الكرة فلم يعثروا على شيء. عادوا إلى برهان يتحرّونه فلم يقعوا على أية آلة جارحة. عندئذ اتّسع نطاق البحث فشمل القاووش كله. وفيما الجاويش يهم بالانصراف، أبصر في الزاوية سطلاً مليئاً بالطعام. كان في السطل برغل بالسمن، وكان الدرك على باب السجن قد سمحوا بإدخاله، دون أن تعتريهم ريبة في أمره. سأل الجاويش: «لمن هذا السطل؟» فلم يردّ أحد. خيّم صمت ثقيل على الجميع. عندئذ تفرّس الجاويش ببرهان وسأله: «أليس السطل لك؟» وأجاب برهان: «نعم.. فيه طعامي» قال الجاويش: «سنرى» وشمر عن زنده ومدّ يده إلى السطل، فاذا بها تخرج قابضة على مسدس.

سرت همهمة بين السجناء. كانت المفاجأة مذهلة. لكن برهان قال «لن يفلت الواشي من يدي». أنزل يديه المرفوعتين، وحدّق في الجاويش يهمّ أن يثب عليه. تحلّق الدرك حول قائدهم الذي أنذر برهان:

ـ إياك والحركة.. لدينا أوامر بإطلاق النار.
ـ أنا لا شغل لي معكم.. أما الواشي..
ـ لم يش بك أحد.. «الأعسر» هو الذي نبّهنا.. قال إنك دخلت السجن لتقتله.
ـ نحن لا نفكر أن نقتله.. وإلا لكان مات من زمان.
ـ هذه رابع محاولة تقومون بها.. عائلتكم قررت الانتقام منه.
ـ أنا لا أدري... اسألوا عائلتي عن الموضوع.
ـ حسناً! سننظّم الضبط اللازم بالمسدّس.. تستطيع أنت أن تبقى بالقاووش.. من الخير لك أننا لم نضبطك وأنت تحاول القيام بجريمتك. جزاء ذلك سنوات من السجن، والإقامة في الانفرادي.
ـ لكنكم تعرفون أن «الأعسر» مجرم يستحقّ الشنق. قتل أشجع وأفضل رجال هذه المدينة غدراً.. فماذا صنعت المحكمة؟
ـ حكمته خمسة عشر عاما..
ـ لا يكفي ولو حكمته بالمؤبد..
ـ هذا هو حكم المحكمة وعليكم أن تحترموه..
ـ نحن لا نعترف إلّا بحكمنا.. لقد أصدرت العائلة حكمها بإعدامه، وسننفذ هذا الحكم.. قل له هذا على لساني.
ـ «الأعسر» في يد العدالة.. إنه في السجن.. فلماذا تلاحقونه إلى هنا؟
ـ سنلاحقه إلى سابع سماء!..
ـ أنتم أحرار في تصرّفاتكم.. تقتلونه أو تبقونه حيّاً، هذا لا يعنينا.. لكن ليس هنا.. ليس في السجن، ولا بهذه الطرق.. تُدخلون المسدس في سطل البرغل.. هل تظنّون أن السلطة نائمة؟
ـ السلطة لا تفعل للمجرمين شيئاً.. نحن نعرفها.. نحن نعرف فرنسا.. تشجّع خصومنا علينا.. تفعل ذلك لأننا ضدها.. سنبقى ضدها.. ويا مرحباً بالسجن.. نحن لسنا ضد الدرك، لم

نقتل دركياً من أبناء هذا الوطن.. أما «الأعسر» فسنطوله.. لن ينجو ولو وضعتموه في علبة من حديد..

غادر الدرك القاووش دون أن يردّوا على التحدّي. برهان يتكلم باسم عائلته. الجاويش يعرف قوتها. على إدارة السجن أن تجد تدبيراً قبل أن تقع الجريمة. ما دام «الاعسر» هنا فلن تتوقف المشاكل. إنهم يطلبون الثأر. سيدركونه اذا لم ينقل «الأعسر» إلى أقصى سجن في البلاد.

تكلم عباس، بعد خروج الدرك، منبّهاً برهان إلى ناحية قانونية: «كان عليك أن تنكر أنكم تريدون قتل «الأعسر».. هذا الاعتراف يحمّلك مسؤولية فيالمستقبل». أجاب برهان: «مسؤولية أيش؟ لتأخذ فرنسا علمًا وخبراً بما نريد.. سنقتله ولو حمته بكلّ جيوشها.. سنلاحقه حتى إلى باريس».

ـ لكن القانون..

قاطعه برهان ساخراً:

ـ أيّ قانون استاذ؟ قانوننا ذراعنا.. فرنسا لا تفهم إلا بهذه اللغة.

سُرَّ سعيد بالجواب، قال في نفسه: «هذا صحيح والله.. فرنسا لا تعرف إلا لغة القوّة..» تأمل برهان الذي جلس قبالته وهو يرتجف من الغضب لفشل الخطّة. كان شاباً طويلاً، ممتلئاً، معتدّاً بنفسه، يلبس شروالاً أسود فوقه سترة قصيرة، ويعصب رأسه بكوفية معرّقة. كان كذئب أفلتت فريسته. شرر يتطاير من عينيه. الجميع ينظرون إليه بغير كلام. ومصطفى يهرع إليه بفنجان من القهوة:

ـ روّق نفسك.. أنت لم تأكل بعد..

ـ ولن آكل أبداً.. لا شهيّة لي.. غداً نتحاسب.. وزِّع قهوة

على الشباب.. تفضّلوا يا شباب على حسابي.. القهوة للجميع على حسابي.

انتعش جوّ القاووش. عاد بعضهم إلى الكلام بصوت مرتفع. عطيّة كفّ عن البكاء. زحف إلى جانب عباس وأقعى قربه ككلب إلى جانب صاحبه. أبو يوسف اعتصم بوقاره. جلس على فراشه دون أن يقول شيئاً. مصطفى أشعل بابور الكاز. راح يعدّ القهوة، ولم يلبث أن جاء إلى سعيد وسأله:

ــ ما رأيك بقليل منها؟

قالها وأشار بإبهامه وسبابته إلىحجم معينّ..

قال سعيد نشطاً:

ــ لا بأس.. اشرب..

وحين حمل اليه مصطفى فنجان القهوة استغرب أن الكميّة التي فيه قليلة. لقد وزّع الفناجين ملأى على الآخرين، فلماذا خصّه هو بهذه الكمية القليلة؟ ولأنه خجل أن يسأل، فقد شربها وأعاد الفنجان، وراح يتسلى بمراقبة السجناء وقد انصرف كل منهم إلى شأنه.

بعد قليل لاحظ سعيد ثلاثة رجال يجلسون جنباً إلى جنب ولا يتكلمون. كان برهان أكثرهم صفناً. احمرت عيناه وهو يطرق وينظر في بقعة أمامه. لم يعد يتحرك فيه سوى اصبعيه اللذين يفتلان شاربه الجميل. ومن الخارج، جاء صوت قهقهة داوية، فأوعز أبو يوسف إلى مصطفى أن يُدخل صاحب الضحكة المفرقعة. قال له:

ــ أدخله يا مصطفى قبل أن نقع في بليّة جديدة اليوم.

خرج مصطفى مهرولا. كان يذعن، كخادم أمين، لكل ما يُطلب منه. وقال أبو يوسف:

ــ تعال يا سعيد إلى قربي.. لماذا تجلس منفرداً؟

ـ سآتي.. أشعر بقليل من هبوط الهمة..

اتّكأ على الجدار دون أن يجد قوةً على الحركة. فارقته حالة النشاط التي عاد بها من التنفُّس. كان السقف يبدو جهمًا في عينيه. صار يهبط حتى أحسَّ أنه يكاد يلامس رأسه. غدا السجن علبة صدئة ما تنفكّ أكثر فأكثر. استشعر فقدان القدرة على المقاومة. إنه يتفكك. أعضاء جسمه تتراخى، ينفصل بعضها عن بعض. قال في نفسه: «يا ربّ! كيف أقضي ثلاث سنوات في هذا الجحيم؟ إنني أتلاشى.. صرت كخرقة.. إذا جاء أحد وضربني فلا قدرة لي على الردّ. لا قدرة لي على الدفاع عن نفسي. همّ ثقيل يجثم على صدري».

أُدخل «فجر» إلى القاووش وهو مبلّل بالماء. كانت ثيابه تنقط ماء.. وكان ما يفتأ يضحك ويأتي بحركات تهريجية، والسجناء يتسارعون للتحلّق حوله، وهم يضحكون بأصوات عالية. ضربه أحدهم على نقرته، حاول أن يردّ الضربة، لكنه أخطأ فتطوَّح وسقط أرضاً. عندئذ تقدَّم الضارب ووضع قدمه على عنقه، مطلقاً شتيمة مقذعة.

تهيّأ لسعيد أن «فجر» سينهض ويمزّق الذي أهانه. كان قميناً دائمًا أن يفعل هذا. أن يغلب اربعة. إنه ضخم كثور، وله ساعدان مفتولان، يبرزان من كمّيْ قميصه الممزَّقين. غير أنَّ «فجر» لم ينهض. كرّر ضاربُه الشتيمة. ضغط بقدمه على عنقه. أمسك ذيل قميصه ومزَّقه. بدا جذعه الآن عارياً وبدلاً من أن ينهض، مضى يتمرّغ ويقهقه كأنما يكركرونه من خاصرتيه.

في هذه اللحظة جاء مصطفى وقرفص قرب سعيد يتفرَّج. كان مسروراً بالمشهد الضاحك أمامه، يصفّق ويهزّ برأسه، ومن وجهه يطلّ تعبير من يرغب في أن يستمرّ المشهد. حتى حمود ركض ودار حول

فجر، وراح يشده من قدمه، والسجناء يشجّعونه في عبثه الصبياني هذا.

قال سعيد متوجّهاًإلى مصطفى، وهو بالغ الاستغراب:

ـ ولكن قل لي.. لماذا يفعلون هذا بفجر؟

ـ كي يتسلّوا!.. ألا تراه مثيراً للضحك؟.. أنظر حركاته.. هذا الحمار القبرصي.

ـ ألا يخافون أن ينهض ويتشاجر معهم؟

ـ ينهض؟ كيف؟ إنه لا يستطيع أن يتحرك!

ـ لماذا؟ ماذا جرى له؟

ومال مصطفى على اذن سعيد قائلاً:

ـ لقد شرب حشيشاً.. هذا بتأثير الحشيش.

ـ شرب حشيشاً؟ متى؟

ـ قبل قليل.. عندما شربت أنت..

ـ أنا؟

ـ ألم أسألك فوافقت؟

قالها ونهض مبتعداً، ليعاين المشهد من طرف آخر، بينما الضجيج يزداد، والضحك يتعالى، وأبو يوسف يصيح:

ـ كفى يا شباب.. كفى.. لا تتسبّبوا في «كبسة» جديدة للقاووش.. اهدأوا.

ولم يهدأ أحد. لكن سعيد رأى الآن، فجأة، أن السقف يدور، يرتفع وينخفض ويدور، وأن الأرض تتموّج تحت قدميه، كأنه يجلس فوق حقل من القمح، والهواء يعصف بالسنابل. عضّ على شفته السفلى حتى الإدماء. كزّ على أسنانه. تماسك بالتشبّث ببقايا إرادته. لقد فهم الآن ما به. سُقي حشيشاً. برهان أحضر معه حشيشاً من الخارج. جرعة القهوة التي شربها كانت ممزوجة بالحشيش، وهذا هو

السبب أن الفنجان كان ناقصاً ، بينما الآخرون شربوه مليئاً. الحشيش لم يُعْط للجميع. هذا الإكسير النادر هنا لا يُعطى للجميع. اختاروه بين أربعة أو خمسة من السجناء، بينهم برهان والرجلان اللذان يجلسان حوله، وعيونهم حمراء متكسّرة الأجفان. إنهم في غيبوبة الحشيش، بينما فجر يضحك، وقد حسب بركة الماء في الخارج بحيرة فجلس فيها ليسبح. عليه أن يخفي أمره جيداً. لا تبدو منه حركة تفضحه. الآخرون شربوا عمداً، أما هو فبطريق الخطأ. هذه أول غلطة يرتكبها في السجن، لا وقت للأسف الآن. يتعلم المرء من كيسه. تعلم الآن أن ينتبه أكثر. ما ينبغي أن يدوس على خشبة نَخِرة. كل شيء عرضة للسقوط هنا،الذين بلا قضية لا يهمهم شيء. هو لم يدخل السجن مثلهم، لم يقترف جنحة ولا جرماً. سجين سياسي، كما قال لديبو . في هذه الحال يختلف عن الآخرين، هذايفرض عليه ألاّ يخبر أحداً. إذا انكشف أمره لحق به العار. صار كالسجين الذي يقامر ويسرق، أو كالذي يعلك مثل النساء. شرب الحشيش وجاهة في السجن، لكنه لم يأتليصبح وجيهاً أو حشاشاً هنا.

نادى مصطفى وسأله إذا كان لديه ليمون. خُيِّل إليه أن الحامض يوقف الدوران الذي يحسّه في رأسه وفي الأشياء من حوله. جاءه مصطفى بما طلب فقطع الليمونات وأكلها. لم يُجْده ذلك، قال له مصطفى: «مع الحشيش يؤكل الحلو يا سعيد. . يشعر الشارب عندئذ بالانسجام. يدخل عالماً سحرياً من المتعة» لم يكن ثمة حلويات. سعيد رفضها أيضاً. بدلاً من الانسجام مع الحشيش قرّر تعطيل مفعول الحشيش. لاذ بإرادته في مقاومة يائسة. سبح ضدّ تيار المشاعر «الكيفيّة» للمخدّر الذي سيطر على دماغه، ولما ضاق ذرعاً بجوّ القاووش نادى ديبو وأفضى إليه بالسرّ:

ــ ساعدني يا أخي.. أكاد أتلاشى.

ــ ما بك؟.

ــ وضعوا لي حشيشاً في القهوة.

دهش ديبو، اعتبر الحادث خطيراً. استنكره بشتائم موجّهة إلى الفاعلين:

ــ أولاد الكلب.. هل فعلوها معك؟ من الذي سقاك القهوة؟

ــ مصطفى.. فعلها بنيّة طيّبة كما قال.. سألني فوافقت..

ــ إلى جهنم بكل النواياالطيّبة.. لا تصدّقه.. أرادوا اختبارك.

ــ ما أظنّ.. قال لي مصطفى إنه دعاني إلىشرب الحشيش مكافأة على ما أظهرت من شجاعة أمس. حسبني ممن يتعاطونه. أقسم أن الكمية كانت قليلة، وأنه سقاني من حصّته إكراماً لي.

ــ يا للوغد!. سأجعله يعضّ لسانه.

ــ لكنه غير مذنب.. أنا الذي وافقت.. المهمّ ماذا أفعل الآن؟

ــ لا تبال.. أنا بجانبك ولن يمسّوك بسوء..

ــ لا أخشى سوءاً من أحد.. ما أريده هو التخلّص من شعور الضيق.. من حالة الوهن.. من الدوران الذي أنا فيه.

ــ استرخِ.. اتكىء بظهرك إلى الجدار وأغمض عينيك.

ــ لا أستطيع.. صدري ضيّق كأنني في قاع سفينة شحن.

ــ تمدّد على الحصير.. النوم يساعدك قليلاً.

ــ جرّبت فما انتفعت.. أريد الخروج من القاووش.. قم معي إلى الممشى.. لا تسندني إلا إذا عجزت عن الوقوف.. دعني أخرج بهدوء.. بشكل طبيعي لا يلفت نظر الآخرين.

تحامل سعيد على نفسه ونهض. دارت به الأرض لحظة فأغمض عينيه. وضع يده على رأسه كي لا يصطدم بالسقف. سخر من نفسه على هذا الوهم. استجمع قواه وخطا. وكاد يترنح.. «يا للبليّة ــ قال

في ذاته ــ لماذا تغورقدماي في الأرض؟» أحسّ أنه يقف على ساقين من قطن. شدّ مفاصله جيداً. همس لديبو «إبق ورائي». مضى إلى أمام بخطى وئيدة كأنه يتعلّم المشي. لم تبرح الدوخة رأسه. لم يشعر بأيّما سرور. «كيف ــ تساءل ــ يتعاطون الحشيش إلى حدّ الإدمان؟ أيّة لذّة يستشعرونها؟ أين العوالم التي تنفتح لهم؟ والدي كان يقول: في مصر يقولون النكتة ارتجالا ــ يقولون الشعر أيضاً. يؤلّفون الأغاني ويلحّنونها.. كل ذلك من الحشيش. له مفعول سحري. لو لم أرهم بعيني لما صدقت.. لقد دخلت التياترو هناك».

طلب من ديبو أن يعودا إلى القاووش. أرهقته المجاهدة في نقل خطاه. تكاثفت ضبابية الرؤية أمام ناظريه. انقبض قلبه إلى حدّ الاختناق. كان تأثير الحشيشمدمّراً الآن. لم يكن ديبو يعرف السبب في ذلك. فوق هذا كان يزيد في حالة سعيد سوءاً، إذ ينصحه بالمقاومة بدل الاسترخاء، فيمعن على هذا النحو في دفعه ضد تيّار الشعور المخدر المحتقن في ذاته، الساعيإلى فجوة من فرح يطلّ منها فيخطف الشارب إلى دنيا ذات تهاويل.

في القاووش تمدّد سعيد على فراشه. نصحه ديبو أن يغمض عينيه ويجرّب أن ينام. حين فعل أحسّ أن الفراش يطير به. تخيّل نفسه على بساط الريح. مدّ يده إلى حافة الفراش، فوجد أن جسده لصقها وأنه قد يسقط إذا تحرّك. كان يعرف، بعقله الواعي، أن هذا وهم، لكن شعوره تضخّم حتى سيطر عليه، فظنّ أنه على بساط الريح فعلاً، وأنه يحلّق في الفضاء، ومن تحته الأرض بعيدة بعيدة إلى درجة مخيفة.

لم يستطع الاستمرار في الاستلقاء. جلس وهو يرتعد لشدة ما ارتفع به الفراش في الجوّ. كانت أعصابه تلعب به لعبتها. لقد

اضطربت وصار من الصعب السيطرة عليها تحت وطأة نواحها الصامت المأزوم من جرّاء الاصطدام بالإرادة المقاومة. عندما جلس سرّه أن ديبو قربه لم يفارقه. أوصاه أن يبقى ثمة في الليل أيضاً، خشي أن يجرّب سفلة القاووش الاعتداء عليه. فكّر بالفتى حمود: «هل سقوه مخدّراً قبل أن يمارسوا المنكر معه؟» لو فعلوا ذلك لما استطاع المقاومة. لا، كان الفتى واعياً، كان يحسّ بالألم ويصرخ. القاووش أفاق على صراخه. معنى هذا أنه لم يكن مخدّراً. الحشيش يجعل المرء جباناً. ليس جباناً ولكن لا طاقة له على الردّ. في هذه اللحظة، لو وضع أحدهم السكين على عنقه ما استطاع الدفاع عن نفسه. لهذا وضعوا قدمهم على رقبة فجر فلم يَقْوَ على الحراك. إنه السمّ. من يشرب حشيشاً يشرب سمّاً. تزيد وطأة الحشيش أنه لا يقتل بل يسلب القوة، شارب السمّ يموت وشارب الحشيش ينتن، يصبح كتلة لحم قذرة معطّلة، مسلوبة الارادة، فاقدة الوعي.

أخيراً لا يدري كيف نام، أفاق ليلا فوجد أنه أغفى، وأنه ممدّد على الفراش، فوق بطانية، والصمت يخيم على القاووش. لم تكن معه ساعة. ولم يستطع رؤية السماء من النافذة العالية والوحيدة في الجدار المقابل. الظلام وحده كان محسوساً. حاول التحديق فلم ير شيئاً. إنهم ينامون، كل السجناء نيام، لا شك أن الليل قد انتصف منذ زمن بعيد. دليل ذلك هذا الهدوء في الخارج «المدينة تنام أيضاً، البحر وحده ساهر. متى ينام البحر؟ متى يتوقف الموج عن اندفاعه وارتداده عن الشاطىء؟ هذه الحركة المكوكية الرتيبة الأزلية، إلى متى تدوم؟ ألا يتعب البحر؟ ألا يضجر الموج؟ ألا تتبدّل الأغنية؟ نعم، نعم في الشتاء تنشب معارك الماء واليابسة. حينذاك ينشد البحر مارشاته العسكرية على طبول من نحاس، والذي قال إن للبحر جيوشه أيضاً، وإن لهذه الجيوش حرابها وأسلحتها، وإن ملوك البحر تتحارب، وإنها إذ تفعل ذلك تخرج إلى السطح، وإن حربها رهيبة يصطخب لهولها

البحر، وتُسمع في مطاوي الريح أصوات الاستغاثات متصاعدة من سحيق القيعان .

صفا رأسه. ضحك نخاعه من الداخل، صارت تلافيف الرأس مشرقة إشراقة سهل تغمره الشمس بعد مطر شديد. لم يعرف سعيد متعة مماثلة، استشعر نشوة بالغة، كأنما المخدِّر قد مسّ جوارحه مسّاً رفيقاً فأسكرها، كان، الآن، جائعاً لكل شيء: الرؤية، الكلام، الطعام، السير، وإعطاء النفس للوجود بغير اقتصاد. استعاد عافيته. استعادإرادته، قوّته، قدرته على المجابهة. وُلد من جديد، بعد أوّل غيبوبة يمارس أوّل ولادة. السجن ما عاد مخيفاً. ما عاد سجناً، الهمّ الوحيد هو الجوع: كيف يشبع؟ أيّتها السماء، أمطري خبزاً، خبزاً كثيراً، لا ينقطع هطوله. أيّتها الدنيا، كيف يشبع فيك الجياع؟ إنه قادر أن يأكل عشرة أرغفة من الخبز وقدراً من الطعام، والمشكلة أن هذا لن يتوفّر، وأنه سيبقى جائعاً.

ما عدا ذلك، كان كلّ شيء على ما يرام. لقد حفظ الدرس. لن يعاتب مصطفى، فالأفضل أن يتناسى الموضوع، لكنّه لن يقع في خطيئة كهذه. «أنا بحاجة إلى اليقظة لا إلى النوم». الأهل هناك. أمه وإخوته هناك، في الحيّ القديم، وسيجد من يبلّغهم أنه نُقل إلى سجن اسكندرونة. أمه ستأتي إليه. هذا لا شكّ فيه. ستكون باكية. كيف يفعل كيلا تكون باكية. نظرة من والده، حين كان سجيناً، كانت كافية لأن تجفّف الدمع في محجريها. كانت تعرف أن زوجها لا يحبّ الدموع عليها، الآن، أن تعرف أنّ ابنها لا يحبّ الدموع أيضاً، سيقول لها ذلك في أول لقاء. لن يأمرها بل سيرجوها. سيقول لها كما قال والده: «لا تبهدليني». يقولها بحسم بالغ. يرمقها بنظرة ناهية، وهي ستدرك. ستقولفي سرّها «ابن أبيه». وسيسألها عن الحال، عن الأخبار، عن الحيّ، والبحارة، وعمال المرفأ. يحزر،

سلفاً، أن حالها موجعة. من أين تطعم إخوته؟ من أين تُلبسهم؟ كيف تنفق على البيت؟ هل انهار كلُّ شيء؟ تخرب بنيان العائلة؟ أينقطع إخوته عن المدرسة وتذهب أمّه للعمل في مكان ما «فرنسا! يا فرنسا! الويل لك».

في الضحى أفاق من النوم، تركه ديبو نائمًا حتى يفيق. كان النوم مفيداً على هذا النحو. جاءه عميقاً جداً. غذّاه كما لم يسبق أن تغذّى، شعر براحة سابغة من جديد. وكما في الليل أحسّ بجوع شديد، وفهم، على نحو جليّ، أن هذا من تأثير المخدّر، وأن ما يقدم من طعام في السجن سيكفيه، أو سيضطر إلى القناعة به، بسبب فقره. وليس من بأس، الآن، أن يبتاع رغيفاً من مصطفى، يقتات به إلى حين موعد الطعام بعد الظهر.

تذوّق رغيفه تذوّقاً خاصاً، شهيّته المفتوحة جعلت الرغيف دسمًا في فمه، ذا نكهة لم يعرفها في الخبز سابقاً. ومع أنه لم يشبع، فقد كبت شهوته إلى المزيد، وأسرع في قضاء حاجته، وفي غسل وجهه، ولحق بديبو في باحة التنفُّس، حيث رأى، بين السجناء الساعين في اتجاهات شتى، عطيّه يلحق بعبّاس كجرو صغير، حاملاً ورقة بيضاء في يده، مقوّس الظهر، منكّس الرأس، كأنه يمرق تحت قناطر من سياط التعذيب.

كان الطقس صحواً. غيوم رقاق تعبر السماء باتجاه الشرق، مدفوعة بريح غربية خفيفة. ومن داخل السور الدائري للسجن، لا يمكن للسجين أن يرى أكثر من بقعة واسعة من السماء البلّورية المحدّبة فوقه. السجناء لا ينظرون عادة إلى فوق. ينكتون الأرض بأطراف أعواد يابسة. على هذا الأديم الذي منه كانوا، يلاحقون مصائرهم البائسة وهم يخربشون خطوطاً مبهمة كمستقبل كلّ منهم. لقد جاءوا من أمكنة مختلفة في المدن والأرياف. جمعتهم مصيبة

واحدة: السجن. عند سوره تتوقّف أفكارهم في بحثها عن الدافع إلى هذا السقوط. ثمة تصطدم بالحجر والإسمنت والأسلاك الشائكة. في خواطرهم تقوم ألف لماذا، وفي الجواب تضيق المسافة، فيقول لك أكثرهم: «هكذا أراد الله»، ملخّصاً السبب المبهم الذي لا يتوصّلون إليه، وكي يتعزّوا ينسبون كل شيء إلى القضاء والقدر.

إلى ماذا تنسب وقوعك في هذه البئر اللعينة يا سعيد؟ أنت تعرف السبب المباشر: فرنسا! أكثر من ذلك لا تذهب في تقصّي الأمور. لو حاولت لما استطعت. العصر جاهل والناس نيام. حتى الذين تمرّدوا وحملوا السلاح لا يعرفون الأشياء إلا من خلال ضبابية كره الأجنبي، هذا جيّد. فليكن الأجنبي المحتلّ مكروهاً. إنها البداية، بعد ذلك تتوضّح الأمور. هناك مناضلون وشهداء، لا شيء يأتي بغير فدية. الفداء مدية تمزّق ستار الظلمة، المدية لم تُحدث سوى ثقب في الجدار، لكن الذين يعزّ عليهم وطنهم يضعون أصابعهم في الثقب ويوسعونه. تحمّلْ قليلا. إنسَ محنتك، لكن لا تَنْسَها من خلال الهروب منها. لقد جربت أمس. شربت مخدّراً وعرفت ما معنى التخدير. لو استطاعت فرنسا لخدّرت الجميع. الحشيش سلاح أيضاً، والعدوّ لا يجهله أبداً.

وقال له ديبو وهما يسيران:

ــ بماذا تفكر؟

ــ لا أدري.. تهاجمني الأفكار من كل صوب، لكنني لا أستطيع القبض عليها.. أرى السجناء، وأعاين فقرهم، شقاءهم، فأحزن، ولكن ما قيمة الحزن؟ بماذا ينفعني وينفع الآخرين؟

ــ يكفي أن تحزن في البدء.

ــ وأنت؟

ــ أنا تخلصت من الحزن.. رأيت أشياء كثيرة.

ــ وأنا رأيت أشياء كثيرة.

ــ ليست كثيرة بعد.. لا تتعجّل.. ليس المهمّ أن ترى.. المهمّ أن تفهم..

ــ فهمت شيئاً كبيراً، هو أن أكون مثلك لا مثل عطيه.

ــ سترى من هم أفضل مني.. انتظر فقط.

قالها وصاح:

ــ أنظر هناك.. إنهم يتعاركون.

كان عدة سجناء يتراكضون. كانوا يفرّون من الوجه أو يهرعون للفرجة. ومن طرف الباحة انطلقت صافرة دركي، تبعتها أخرى فأخرى، وسمع صوت يأمر:

ــ لا تضرب يا برهان.. لا تضرب..

وجاء صوت آخر:

ــ قف وإلا أطلقنا عليك النار..

في هذه اللحظة شاهد سعيد رجلاً طويلاً، قوياً، معصوب الرأس بكوفية معرّقة، ينقضّ على رجل آخر، يلبس طاقية السجناء، وبيده سكين. كان برهان لا يبالي الصراخ من حوله، وحتى عندما أطلق الدرك النار في الفضاء تابع هجومه بتصميم فيه عنف واستقتال. وتحت وهج الشمس لمعت شفرة السكّين، تقبض عليها يد متوتّرة من عزم ورغبة لا تُقاوم في القتل. وسرعان ما فرَّ الذين أمامه. بقي الأعسر وحده في متناول المدية. كان يصرخ «الحقوني»، وبحركات متكسّرة، يعرفها الذين خبروا طرائق القتل، يهرب من أمام غريمه، فتسقط ضربة السكين في الفراغ. أغمض سعيد عينيه بعفوية تامّة. هاله المنظر. تصوّر، في ومضة خاطفة، أن برهان والأعسر التحما، وأن هذا الأخير يتلقّى، في رأسه وصدره، ضربات عميقة من السكين المشرعة في يد إنسان أقرب إلى الوحشية، والدم ينفر، والأعسر يسقط، فيتابع برهان طعنه حتى يطرحه أرضا ويحتزّ رأسه.

تمثّل له كل ذلك فجأة. قبل هنيهة، رأى الى الاعسر يسير بين سجينين. دلّه عليه ديبو. قال له: «هذا هو الأعسر. يزعمون أنه أخطر مجرم في المدينة كلها. إذا رمى لا يخطىء الهدف. وإذا سنحت له فرصة غدر لا يرحم. إنه عريق في القتل، ومكروه من الجميع هنا.» تأمله سعيد بشيء من فضول. كان قصيراً، ضامراً، أصلع الرأس، يقفز في مشيته كأن نابضين في رجليه، ومن هيئته يلوح شيء ما منفّر، كأنه ما خُلق إلا ليعيش شبحاً رهيباً يستبطن الليل.

الذي حدث، بعد ذلك، كان مغايراً لما تمثّل. زاغ الأعسر من ضربات السكين، وفي اللحظة التي اقترب منه برهان، كان سجين يقبض على يده، والدرك يخلّصونه السكّين، وفرصة الثأر تضيع من جديد، كما ضاعت بالأمس، عندما اكتشف الجاويش المسدّس في سطل البرغل.

غير أن برهان، في حركة مباغتة، أفلت من الذين يقبضون عليه. ربما، في عنفوان الغضب، برقت في ذهنه تلك الفكرة الرهيبة التي نفّذها. وربما، في اندفاعته المجنونة، لم يكن يريد سوى الوصول إلى غريمه. لقد صمّم على الثأر. القتل، بعد ذلك، يأتي لاحقاً، تحصيلاً لشيء سابق، هو الإصرار على حذف إنسان من الوجود، بأية أداة أو وسيلة تضعها اللحظة المهتبلة في اليد.

النزعة البدائية، الهمجية للقتل، التي كانت عرفاً في الجسد قبل أن تكون عرفاً في التقاليد، والتي اختبأت تحت ثياب هي كل حيلة العصر، قد كانت لوثة في دم برهان. لقد انقلب، في طرفة عين، من إنسان إلى وحش. بدا مخيفاً، مرعباً، قادماً من أعماق التاريخ، وفي آن واحد، امتزج الشبق إلى الإماتة بالشبق إلى الموت لديه. صار الامر سيّان. اندلق وهج الغاب في عينيه، ونداء إلى الدم ضجّ في أذنيه، فما استطاع أن يتوقّف، ولا استطاع أحدٌ أن يوقفه، وكباشق

جارح انقضّ على عصفور، بات الأعسر بين يديه، وصار برهان فوق صدره، ويداهالقويتان في عنقه، ولم تبق إلا قدمان تتخبّطان، وجسد يرتعد في اختلاجة الموت. ومرة اخرى، كما في حكايا القدر، صارت الاعجوبة: نجا الأعسر من الموت، إذ استطاع الدرك إرخاء القبضتين عن العنق.

لا شيء أجدى. لا المسدس ولا السكين ولا اليدان. كل ما قدّرته كان باطلاً يا برهان. الدم المطلول سيبقى مطلولاً، الثأر لن يُدرك، ولا فائدة من المكابرة. احتضن النيّة الثّارية وباء في دمك إلى مرة قادمة. ضاع الأمل الذي غذّيته طوال شهور. أنت لا تستطيع مقاومة الجميع، ولا تستطيع أن تثأر برغم الجميع. لو أُخلي بينك وبين أيّ وحش من وحوش الغاب لمزّقته، لكنك وُضعت في قفص من السواعد التي التفّت حولك. أدواتك فُقدت، وعزمك بلغ ذروته وهو يوشك أن يرتدّ، وعيناك الحمراوان تخيفان ولاتميتان. وهذا الصراخ الضاري يدوي في أذنيكمختلطاً بالشتائم، منك ومن الآخرين.

ماذا يتبقّى في هذه الحالة؟ وكيف تفلت الفريسة من بين البراثن؟ وبماذا يقتل الوحش وحشاًآخر؟ إن لك فمًا أنت أيضاً يا برهان. ثأرك، الآن، في فمك. فم الانسان ليس شدق وحش، لكنه، في التوحّش يكونه. الناب، هنا، كالناب، هناك، قادر على التمزيق، على التقطيع، على البتر. التمع ناباه في تكشيرة مقدودة من فحمة ليل كانوني. انفتح الشدقان.. تمطى الوحش في الأصلاب، وفي الأسنان تجمّع حقد جمل أُهين. الفكرة واتت. من قال إن الأفكار، وحتى أشدّها عدوانية، لا تواتي عند اللزوم؟ كلّ طور، من عمر البشرية، له طور من التفكير والتنفيذ. بدا أنف «الأعسر» تحت نظر برهان، كثمرة مختبئة بين الأوراق، انكشفت للناظرين المحمومين

كأنما في مصادفة غريبة. لم يبق فيه طليقاً سوى فمه. الفم والأنف. أحدهما مشرع، فاغر، مرهف، من فوق، والآخر قابع، ممتقع، مرتعش من تحت، وقبل أن يفطنوا، قبل أن يسحبوه، وكأنما في سباق مع القدر، حطّ برهان برأسه على وجه الأعسر تحته وقضم أنفه. الدم سال من الملاغم، العظم الغضروفي الهشّ تقرّض تحت الأنياب، وعويل أصم، كذئب يخصى، انطلق من «الأعسر» في ضراعة للخلاص، لكن برهان أمعن، أمعن، أمعن. تحمّل كل الضربات، بأعقاب البنادق، بالكرابيج، بالأيدي، على كل أنحاء جسمه، ولم يفلت فريسته، التي لا سواها، هذه المرة. وعندما صارت عجرة الأنف مجتثّة من جذورها، في فمه، نهض منتشياً بفوز غابي، وأمام الجميع بصق، على الأرض، الأنف المبتور، الملوّث بالدم، وانطلق في ضحكة شيطانية مرعبة، ضحكة مجنونة قهقه فيها كما فعل فجر أمس بعد أن شرب الحشيش.

استشعر سعيد غثياناً مرّاً في حلقه. كان المنظر مقزّزاً، وحشياً إلى حدّ لا يُصدق، وكان هذا هو الحادث الثالث خلال أربع وعشرين ساعة، فقال في نفسه: «يا للهول!» ولاحظ ديبو مسحة الألم والحزن تطغى على الوجه الجسور، لكن الفتي، فربّت على كتفه وقال:

ـ لا بأس، يا صديقي، ستعتاد..

وهزّ سعيد برأسه مؤمّناً على ما قاله ديبو، ومضيا يكملان فرصة التنفُّس بغير مرح ولا كلام.

٣

«إيه أيهّا السجن!
«لقد خلعتك من يدي وقدمي ونفسي . .
«أسقطتك عن جسدي كالرمل منذ دخلت مياه البحر.
«اغتسلت من أوضارك وذكرياتك وآثارك جميعاً، وطرحتك من ذاتي التي رأت فيك بؤرة للشقاء فارتفعت عليها، دون أن تستطيع، وا أسفاه، ردمها . . »
أيهّا السجن!

ثلاث سنوات من العمر، من الشباب، انطوت بين جدرانك الاربعة. لم أقل متى، على لهفتي ان تكون، تلك اللحظة من الانعتاق، حين أتخطّى عتبتك ولا قيد، ولا حارس، ولا شعور بالحجز، إذ هو إحساس يرافق السجين، في صحوه ومنامه، في القاووش وباحة التنفّس، في الخلوة مع الذات كما في الاندغام بالجماعة، في خصلة الشمس التي تسقط من الكوّة العالية، وفي الطيران، على أجنحة الخيال، إلى بعيد، إلى بعيد، حيث الهواء، والسماء وزرقة البحر.

لقد تعلّمت أن أنسى. تعلّمت أن أرضى.
تعلّمت أن أعيش، يوماً بيوم، وكأن السجن بيتي، وكأن حياته حياتي، والسجناء فيه، إخوتي وأهلي، مادام وضعٌ واحد يجمعنا،وأمنيةٌ واحدة تداعبنا، وعدوّ واحد، هو القيد، يغلّ أيدينا، نحن الذين في

الداخل لأسباب مختلفة، مصدرها واحد، هو البؤس الذي يوحّدنا.

كذلك تعلّمت ألّا أنسى، ولا أصالح ، ولا أهادن، وأرفض السجن، في نفسي، وفيما حولي. وفي الأسباب التي أدّت إليه، وأفكّر بالحريّة، والريح، والماء، والسماء، والشمس المباركة، ومن خلالها في عدوّي: فرنسا، وفي وطني المحتل، وفي الفقر الذي تـرزح تحته، والجوع الذي ينهشنـا، والأمراض التي تفتـك بنا، داخـل السجن وخارجه على السواء.

ولشـدّ ما قلت في نفسي: كيف؟ ولمـاذا؟ ولأيّ سبب؟ وما اهتديت الى جواب سوى النقمة، سوى الحقد، سوى الرفض، دون أن أدرى لمن، وضدّ من، ومع من أكون.

وشيئاً فشيئاً عرفت. في حيّنا عـرف والدي رجـالاً قالـوا له كلمات سحرية. بدأت معرفته بهم على أضرحـة شهداء المـظاهرة الكبرى، يوم دفنوهم، ونبق رجال ملاحقون، من بين أشجار المقبرة، وتكلّموا دون خوف، ضد فرنسا، والمتعاونين معها، و«مصاصي دماء الشعب».

وقال والدي، حين عاد ذلك المساء الى البيت: أعرف فرنسا، لأنني أعرف، قبلها، تركيا. وأعرف الأنذال المتعاونين مع فرنسـا، لأنني أعـرف، قبلهم، الأنذال الـذين كانـوا أزلاماً لتـركيـا. لكن «مصّـاصي دمـاء الشعب» هؤلاء أسمـع بهم للمـرة الأولى، فمن يكونون؟

وتكلّم البحارة، ليلتئذ كثيراً، قالوا ما خطـر لهم على بال. غير أن والدي لم يقتنع، لأنه لم يفهم، كأنما ثمة لغز. أخيراً قال عامل في المرفأ «أنا أعرفهم.. أُنظروا الى حالي. تهدّم جسمي تحت صناديق البضائع وأكياس الحبوب.. والنتيجة؟ جائع أنا وعائلتي، بينما التجّار،

وأصحـــاب الشركـات يعيشـون في القصـور، وتغلظ رقـابهم من السمنة. . إفهموا إذن.» وقال له والدي: «صدقت. .» وقال بحار: «هذا الكلام ليس من قينه، لابد أنه سمعه في مكان ما. .»

«مهما يكن ــ قال والدي ــ يظل كلامه صحيحاً. . الذين في المرفأ يتألمون أكثر منا نحن الذين في البحر. .» وبعد ذلك، في الليالي المظلمة، كان الذين خطبوا في المقبرة، يظهرون في الحي. حسناً، كانت السلطة تعتقل بعضهم. . وتصدر عليهم أحكاماً بالسجن. . ومن أجل ذلك يعيشون بين الجدران، وفي الزنزانات خاصة، ثم لايلبثون أن يتّصلوا بالسجناء، بطريقـة من الطرق. . هكـذا، في سجني، التقيت بأناس شجعان. . أنا أيضاً سمعت كلمات سحرية. أدركت أنّ طريقي كان صحيحاً، وأن والدي قد سبقني عليه، وكل الفرق بيني وبينه، أنه كان طويل النفس، صبوراً، وأنا لجوج، نافد الصبر. . وكان والدي هادئاً، جلوداً، وأنا صخابٌ يستفزني الآخرون بسرعة.

سنوات السجن، على قسوتها، لم تذهب عبثاً، عرفت الحاجة، والبؤس، والحرمان الشديد، لكنني أدركت أن الحياة، هذه القحبة، هذه الحلـوة، لاتعطي نفسها إلا لمن يدفع مهرها. . ترى ما هو مهر الحياة، إذا لم يكن ذلك العذاب الذي تحملته دون أن تحرق الشكوى شفتي؟ كانت والدتي تزورني، في الشهر مرة أو مرتين. ترغب أكثر فأمنعها. أُحلِّفها ألاّ تأتي بأحد من إخوتي الصغار، كنت خائفاً على نفسي لا على إخوتي. خوفي أن يفضحني دمعي، اذا ما رأيت الى هؤلاء الصغار الذين تركهم والدي أمانة في عنقي، فلم ألبث أن تركتهم أمانة في عنق أمي، في وقت شديد الضيق.

في أول لقاء بيني وبين أمي بكيت. لم أقْوَ على الدمعة في عيني، كانت عصيّة في عين أبي، سخية في عيني، يوضح، هذا، الفرق

بيننا؟ أكون أرقّ عاطفة، من ذلك الذي كان يجيش بالعواطف لكنه يعرف كيف يتماسك في الشدائد؟ مهما يكن، فقد بكيت. بكت أمي، فبكيت. أخفيت ذلك عن السجّان، كيلا يشهد ضعفي. لم أتحدث به الى احد خوف الشماتة. كنت أجهل أن بعض الدمع تمرّد. وكانت والدتي، من وراء الشبك الحديدي، قد قبّلتني. أقحمت رأسها في الحديد وقبّلتني. شمّتني من عنقي، مثلي يوم كنت صغيراً. بيدها الناعمة الرخصة لمست على وجهي وخدّي وصدري. مسّدت أيضاً شعري، فعلها وأنا طفل، وبقيت تذرف الدمع رغم تعنيفي لها وتشديدي على أن تكفّ. قالت: «آه يا بني! يا حبيبي! كم تعذّبت لغيابك، وكم بكيت وصلّيت لأجلك. سألت الله أن يعيدك إلي. وها قد استجاب الله لدعائي، انت في اسكندرونة الآن، في السجن لا في البيت. لابأس، اذا لم يكن من نصيبي أن أراك في البيت، فعلى الأقل أستطيع أن أراك في السجن، وأن أطمئن الى صحتك وسلامتك، وأغسل ثيابك، وأحمل إليك لقمة مما أطبخ. لقد سُجن والدك قبلك، كان ذلك في مرسين.. أتذكر؟ يومها بكيت أيضاً، لكن والدك كان يملأ حياتي، ومجرّد وجوده حيّاً، ولو في السجن، كان يبعث الهدوء في نفسي.. كنّا في مدينة واحدة، وكل أسبوع نتقابل، وكان الزمن يختلف، ورجال الحي يملأون البيت تفقّداً واستفساراً وخيراً....

قاطعتها:

ــ والآن يا أمي، ألا يأتي رجال الحيّ أيضاً؟ البحارة وعمّال المرفأ والجيران؟ ألم يمدّوا إليك يد المساعدة، شأنهم يوم سجن أبي؟

قالت أمي:

ــ فعلوا ذلك يا حبيبي! جاءوا وما يزالون. جاء غرباء أيضا، يقولون إنهم من الاصدقاء، تكلّموا معي كثيرا وبكلمات حلوة مشجعة. قالوا: «لاتخافي، صالح سيعود، وكذلك سعيد.. الأيام

تمضي، والسنوات الثلاث ستنقضي، ويجتمع الشمل من جديد.» البحارة أيضا يأتون.. يـراهنون أن والـدك سيظهـر كما اختفى.. سيطرق الباب في ليلة ما، سيلوح قادماً من جهة الشاطىء، إنه لم يغرق، والدليل على ذلك أن سعيد لم يعثر على جثته.. أكون قد قطعت الأمل، فإذا بهم يحيونه في نفسي. يؤكّدون أن والدك ذهب في البحر.. إلى أين؟ لايدرون.. لكنه ذهب.. ومن هناك، حيث هو الآن، يتابع الأخبار، فاذا جلت فرنسا، أو خفّ خطرها، أو صدر عفو عام، فإنه سيعود لامحالة، سيأتي، كما الفارس، على حصانـه الأبيض، على مركبه.. وكالعهد به، سيكارته تلمـع كنجم، وهو يتقدّم منتصباً، شامخاً، جباراً، متحدّياً اعداءه كلّهم..

عندما كنت أسمع كلامها هذا، كنت أفرح. أنا نفسي كنت بحاجة إلى من يبعث الأمل في صدري. كانت كلمات البحارة، التي تنقلها أمي إلّي، تنزل برداً وسلاماً على قلبي. كنت أستزيد منها. أرجوها أن تقول أكثر، أن تشرح لي، كيف، وبأية وسيلة، سيعود أبي.. حتى إذا استنفدت ما عندها ، يأتي دوري في تثبيت إيمانها بعودته. أقول كلماتي بصوت عال كي أسمعها أنا نفسي، وأصدّقها. أنا نفســي، حتى إذا ذهبت أمي، تساءلت: «هل يعود والدي حقا؟» وكنت أجيب على تساؤلي بالإيجاب: «لم لا؟ سيعود حتما.. هذا رأي البحارة جميعاً، فهل اتفقوا، عليه، عبثاً؟»

كانت تحمل إلي بعض الطعام، وبعض النقود. تضع الكل في صرّة، ولاتنسى الملح والفلفل، ومن حين لآخر، قطعة ثياب، أتناولها خجلا، ملتمساً ألّا تعيدها، زاعمًا أنّ أكل السجن يكفي.

عندئذ تقول:

ـ يكفي؟ آه! قبلك أبوك كان يقول هذا الكلام، لكنه بعد

أن خرج، قال لي إن طعام السجن لايؤكل، فلماذا تخبّىء عليّ يا سعيد؟ أتريد أن تبقى جائعا؟

ـ وانتم؟ من أين تأكلون؟ كيف تدبّرين مصروف البيت؟ ماذا لديك ليباع؟ هل يساعدك أحد؟

ـ البحارة يساعدونني أحياناً. أنت تعرف أن حركة المرفأ واقفة، والبطالة عامة.. الحي فقير يا سعيد.. لما تركته وأكثر.. أطلب من الله أن يغيّر الحال.

ـ من أين يأتي البحارة بالمساعدة إذن؟

ـ لا أدري.. هي قليلة ولكن دائمة.. كل أسبوع يأتون.. آه ما أطيب قلوبهم!

ـ وهل يذهب إخوتي إلى المدرسة؟

ـ الصغار فقط.. أختك الكبيرة في البيت.. لم تستطع متابعة الدراسة.

بعد مدّة اكتشفت أن أمي وأختي تشتغلان في معمل السوس. كانوا يقتلعون عروقه من سهل العَمَق وتنقله السيارات الى اسكندرونة، وفي المعمل تقوم النساء بتنظيف وتوضيب العيدان. قالت أمي:

ـ الأجرة قليلة جداً يا سعيد.. لكن الرجال دبّروا لي ولأختك هذا العمل. هي صغيرة، أجرتها أقلّ من أجرتي، لكنّها تساعد.. الحصاة تسند الخابية.. إننا نعيش.. لاتسأل كيف، نعيش على كل حال.. ننتظر خروجك من السجن.. ننتظر عودة أبيك.. لابدّ أن تفرج.. ما بعد المرّ إلا الحلو.

ـ الحلو؟

ـ هكذا كان يقول أبوك. نسيت كلماته يا سعيد؟ آه يا بنّي.. كنت أحسبك مثله..

ـ أنا مثله.. لكن أنت.. من أين جاءك هذا الصبر؟

ـ الأيام علّمتني.. قلت في نفسي: «ما دام غائباً، علي أن أقوم مقامه.. أن أفعل كما كان يفعل.. ألّا أدع الناس يشمتون بنا..»

ـ خسئوا يا أمي.. في السجن عشرات مثلي.. وفي الجبال عشرات مثل أبي.. والذين ماتوا كثر.. فمن أجل أي شيء كلّ هذا؟ من أجل الوطن.. إذن من يستطيع أن يشمت؟ إرفعي رأسك بنا..

ـ لاتوصني .. حفظت هذا عن أبيك.. وإلّا كيف كنت أستطيع العيش، دون وجوده؟

أمام هذا التأثير الذي تركه والدي في نفوسنا، أمام هذه الحقيقة الباهرة للصمود في وجه المتاعب، كنت أخجل من نفسي. أعود من مقابلة أمي وأنا أكثر قدرة على الاحتمال، وأشدّ وثوقاً بالفرج، لكن أعمق إحساساً بالندم، على لحظات تمرّ بي فأضيق بكل ما حولي. كانت تلك لحظات ضعف. وكان علي، في الاقتداء الذي أريده بسيرة أبي، أن أتجاوزها، لكنني مهما صممت، كنت أعود الى الوقوع فيها. وكنت ما إن أفارق أمي حتى أخلو إلى نفسي، وأروح في تفكير عميق، فيه أسى لوضع عائلتي البائس، وإعجاب بموقف الأم الرائع، وفيه فخر بسيرة الأب، الذي، من خلال سلوكه الحياتي، استطاع أن يغرس فينا كلّ تلك الطاقة على المقاومة.

ذات يوم جاءت أمي ومعها ثياب داخلية جديدة، ونقود زيادة عما اعتادت أن يكون معها، وصرّة فيها عدة أنواع من الطعام. «من أين لأمي كل هذا؟» ـ قلت في نفسي ـ ورغبت، مهما كان الثمن، أن أعرف.

قالت أمي:

ـ أتذكر جارتنا في مرسين؟ أم كنت صغيراً يا سعيد؟

تساءلت:

ـ جارتنا في مرسين؟ لم أعد أذكر يا أمي.. ما اسمها؟

ـ كاترين الحلوة!

تذكّرت فوراً.. علق اسمها في ذهني مما قاله الناس عنها. علمت، عندما كبرت، أن قصّة كانت لها مع والدي، وأنه هو الذي، بعد خروجه من السجن طلب، منها أن ترحل عن الحيّ، وتعود الى الوطن. كانت ذكرى بعيدة تلك، لا أحفظ منها إلا جانبها المثير، وهو أن كاترين الحلوة أحبّت أبي، وبكت يوم رحيلها عن مرسين، ورجته أن يبقيها فيها، فلما يئست، قالت له «ألن نلتقي بعد؟» فأجابها والدي: «من يدري.. كوني طيّبة، وسألقاك، الجبل لايلتقي بالجبل.. لكن الإنسان.. سافري، ليكن الله معك. حاولي أن تصلحي سلوكك.. ودعي ما تبقّى للمستقبل».

هذا الكلام نقله إليّ بحّار في يوم خريفي، ونحن نصطاد على شاطىء البحر، والقمر بدر، والحديث يحلو، والبحّار يستعيد ذكرياته عن مرسين. رجاني ألّا أخبر والدي. قال: «دعه سراً بيننا، فأنا عرفته بشكل سرّ.. بعد أن شرب والدك، وتكلّم هو الذي يحبّ الصمت».

قلت:

ـ ثق أنني لن أعيده على أحد.. إنما أريد أن أعرف هذا الجانب من حياة والدي.. هل أحبّ كاترين الحلوة حقيقة؟

ـ أحبّها إلى درجة الجنون. لكن أمثال والدك لايجنّون كالآخرين. كان قادراً، تعبيراً عن حبّه، أن يتصدّى لأيّ رجل يزاحمه عليها، وكان خليقاً، ولو بذل حياته، أن يحميها ويدفع عنها التعديّات من أية جهة جاءت، ولو من أكثر الأتراك عتوّاً ونفوذاً. كنت معه،

كنت بحّاراً مثله، وأعرفه من خلال الفعل لا القول، ولم تكن تخفى علي حركة أو ايماءة تصدر عنه. لقد أحبّ كاترين الحلوة، وافتتن بحضورها وذكائها وجسدها، وصار عاشقاً لها الى حد التضحية بأثمن شيء في سبيلها. لكن كاترين، كما يعرف كل الناس، لم تكن مستقيمة حين كان والدك في السجن. ومع من؟ مع الأتراك! إن الامتحان الصعب للحب، ليس الفراق وحده كما يقال، الامتحان الاصعب هو التعارض بين الحب والمبدأ. وقد كان والدك رجل مبدأ دون ضجّة، بعفوية، بغير قراءة ولا كتابة. وكم قال لي: «يهمّني في هذه الحياة شيئان: رجولتي والوطن، ومن أجلهما فقط أقاتل، ومن أجلهما لا أطيق الأتراك ولا الأنذال.» ولهذا كان قادراً على ان يقتل كاترين الحلوة أو ينفيها.. وقد اختار النفي. الإبعاد، الترحيل، لأنه كان يحبّها، وكان يحلم، دون أن يدري، أن يلقاها ثانية، حين تتغير الظروف.. أنظر! الزمن لم يسعفه. هناك كان الأتراك، وهنا الفرنسيون. الوطن لا الحبّ هو الذي شغله. وفي غربته الآن، ردّه الله منها، يحمل الوطن والحب في قلبه، وربما كان يتألم لأجل الأثنين يا سعيد.

الحديث عن والدي استهواني. أردت متابعته. توقّفت عند قولة البحار: «أبوك الآن في غربته، ردّه الله منها..» تهيّأ لي أن هذا البحّار يتحدّث عن غربة والدي بيقين، فهل يعلم شيئاً عنها؟ أيكون والدي أخبره قبل اختفائه؟ سألته:

ــ تظنّ والدي في غربة؟ ألم يغرق في رأيك؟

ــ لو غرق لعثرت عليه.. لظهرت جثته على الشاطىء.. إنه حي، صالح حزوم حي، وسيعود، هذه قناعتي.

هذا الحوار مع البحّار، استعدته فجأة وأنا أسمع أمي تتحدّث عن كاترين الحلوة. قلت في نفسي: «ما بال هذه المرأة تظهر فجأة

بعد الاختفاء؟ أتكون على علم بقصة والدي؟ هل زارها بعد رحيلها عن مرسين ؟ ألديها أي خبر عنه؟ وما شأن أمي بها؟»

قالت أمي :

ــ جاءت كاترين الحلوة الينا، مات «الحبّابا» وتزوجت رجلاً آخر. تقول إنها جاءت مع زوجها الى اسكندرونة، وانها كانت تعرف أننا عدنا من مرسين الى الوطن، وأننا نقيم هنا، يبدو أنها سمعت باختفاء والدك، وبأنك في السجن ، وأن حالنا سيئة، فرغبت أن تساعدنا قليلا . . قالت إنها لاتفعل سوى رد بعض جميل والدك معها؟

ــ ومن أين لها المال؟

ــ لا أدري . .

ــ هذا مال دنس، كان يجب ألاّ تقبليه . .

ــ لم أقبله في البدء، عارضت وتمنّعت . . ركعت أمامي . .

تصوّر كاترين الحلوة تركع أمامي، وتقبّل يدي . . وتبكي . .

ــ لكن والدي طردها من الحيّ، ومن مرسين كلها . . وكان من المنتظر أن تنتقم الآن . . ماذا ننتظر منها غير ذلك؟ وماذا يردعها ان هي فعلت؟ ضميرها . . . ؟

ــ لا .تَقْسُ يا سعيد . . إنها لاتستحق . . لقد دخلت بيتنا وهي تبكي . .

ــ إنها تمثّل!

ــ أنت لم ترها . . لو رأيتها لقدرت موقفها . . . لقد نسيت إساءة والدك . . جاءت تسأل عنه وتبكي .

ــ أبي لم يُسىء إليها . . قراره في ترحيلها كان صحيحاً . .

ــ مهما يكن . . خمسة عشر عاما مضت وهي لم تَنْسَ . . ثم ما هي غايتها؟

ــ لا أعرف . . ظنيّ أنها علمت من البحاّرة أن والدي لم يغرق وسيعود . . تريد أن تمنّ عليه . . أليس هذا انتقاماً؟

ــ لا أصدِّق ذلك يا بني.. كاترين الحلوة ليست من هذه الطينة.. إنها لاتحمـل الحقد.. هي سيئـة السمعة لكنهـا لاتحمل الحقد.. أنا امرأة واعرف..

ــ ولانك امرأة كان يجب أن يكون موقفك مختلفاً..

ــ لم أستطع.. المرأة ترقّ للمرأة.. تغفر لها.. أنا غفرت.. دموعها غفرت لها..

ــ وماذا يكون موقف أبي اذا عاد وسمع بما فعلت معنا؟

ــ ليعد والدك وأنا أقنعه.. والدك أكثر رحمة منك..

ــ مهما يكن.. أنا لا أستطيع قبول هذه الأشياء.. أعيديها الى البيت..أرغمت أمي على إعادة الأشياء التي حملتها. لم أقل ذلك لأحد.. اعتبرت الموضوع مسيئاً الى شرف العائلة.. لم أكن قـد التقيت بكاترين الحلوة بعد. كنت شاباً صغيراً.. كنت مضحكا في بعض تصرفاتي، وفظّاً في بعضها الآخر.. لكنني، قبل أن تنصرف عائدة الى البيت، لا أدري لماذا سألتها:

ــ هل ما زالت كاترين الحلوة جميلة؟

وقالت أمي كأنما تقرّر حقيقة واقعة:

ــ بل ازدادت جمالاً..

«ايها البحر!

لماذا أقول لك كل هذه الحكايات؟

تراها كانت تثقل علي، فأردت التخفف منها، بايداعها صدرك الذي لا أعمق ولا أحفظ للأسرار؟ تراني، وأنا أعترف بين يديك، أتقرّب منك بالكلمة، لأنفذ إلى عالمك المرصود، شأن الباحث عن الكنز والكلمة الحلوة امـام المغارة المـرصودة؟ أم لعـلي، والحكايـة شفيعي، من نسل شهرزاد، جدّتي الأولى، التي بالحكايات افتدت أبناء جنسها وروّضت الوحش شهريار؟

أيهّا الجدّ الطيب، يا مانح المطر والخير، يا معطي السمك والقمح، يا معلّم الرحابة والسماح، وملهم الوداعة والحلم، والثائر مدى الدهر، كن كيفما شئت، يا سيدي وحبيبي، فأنا من أصلاب بحّارة نصبوك ملكاً لكنهم على حدّ الحد ظلّوا، بين استباحة ممالكك، والسجود لجبروتك، اذ العاصفة كفٌّ قادرة أن تمزق القلوع، وتحطّم السفن، وتذرو القشور بدداً في الريح.

أيهّا البئر العميقة أكثر من فوهة الجحيم، الملأى بماء منه كل شيء حيّ، كم في قاعك من أسرار، كم في أعماقك من أخبار، كم على أديمك من حصى ملوّنة، على كل منها نُقشت حكاية، حفظتها من الأزل، وستحفظها الى الأبد، لأنك أنت الأزل والأبد، وأنت الذي يشيخ الكون ولاتشيخ..

إذا كان والدي في جوارحك، فنعم الجيرة والجار..

وإذا كان في مطاويك، فنعم المثوى والقرار، وإذا كان حياً، على متنك يذهب ويجيء فقل له إننا بالانتظار، دهراً فدهرا..

قل له إننا في الموعودين، ووعد الله كان حقا..

وقل له إننا على رجاء، وابداً لايخيب رجاء المرتجين..

وقل له إن الأرض ولود، والريح ولود، والمطر ولود.. ونحن ننتظر الولادة، ننتظر البشارة.

وقل له إن دنيانا تبدّلت تبديلا، مازالت، بحاجة الى تبديل جديد..

لقد مضت تركيا، وجلت فرنسا، وقيدٌ كسر، وقيود على وشك الكسر..

وقد آن له أن يعود، آن له أن يعود...».

قلت كل ذلك في داخلي، لا بالكلمات نفسها بل بمعانيها، فيما أنا أسير على الشاطىء، مخلّفاً جماعتي في خيامهم، وصغيرتي تحلم

بالقصر، والشجر، والسمك، وماسات البحر الملوّنة، وسيدّتي، جميلتي، التي من ثغرها الضوء ترقد بسلام.. في رعاية الماء والسماء، وأنا أعطي وجهي للريح، وسمعي للموج، وهواي للّجة، وأتشرد مفتوح الصدر، متطاير الشعر، سائراً الى المرأة التي قالت تعال إلى قصري، ففيه لك مكان، ولظهرك متكأ، ولقلقك طمأنينة. تعال أيها المتعب، تعال يا بحّاري الذي في هذا اليوم أضاع عروس الماء، ليجد عروس اليابسة، وخسر سباقا، ليكسب وليمة..

تكلّم البحر...
وغنىّ الموج أغنية تترى على شاطىء مهجور
ولم أحصل على جواب...
كأنما لا جواب...
وكأنما البحر يمتحن صبري،
ولم أجدف، ولم أقل كلمة سوء..

مضيت على الشاطىء، وتابعت ذكرياتي..

ثلاث سنوات في السجن، ثلاث دقائق في السجن، ثلاث ثوان في السجن.. انتهى كل شيء، ومن جديد وجدت نفسي طليقاً. الحياة تمضي بأسرع من قدرتنا على رصدها. ترمح، كفرس شموس. لا تقل متى؟ لا تكن لجوجاً. طفل يولد، ينمو، يكبر، لا تقل متى؟ الإحساس ليس واحداً، لكن الزمن واحد، بالنسبة للسجن وللطفل، كل الفرق في موقف الإنسان.

توقّفت، عندما أُطلق سراحي، أمام المدرسة الرشدية: هنا تعلّمت، كنت صغيراً. كنت سعيداً. كيف تقضّت أويقات السعادة؟ أنا لم أبرح طفلاً. عدت، في الخيال طفلا. ها أنا، مع والدي، ندخل باحة المدرسة. كان يمسك بيدي ويشجّعني. يقول لي: «غداً، يا سعيد، تتعرّف على رفاقك من التلاميذ. تحبّهم، تلعب معهم، تتمنى ألّا تعود

إلى البيت، فالمدرسة تصير بيتاً حبيباً لك » تنهّد بعد ذلك . «أنا لم أكن يوماً في المدرسة. لم يكتب لي أن أتعلّم، أن أعرف هذه المتعة التي أحسّها ولا أعرفها. يقولون إن أيام المدرسة لذيذة. . سترى، انتظر قليلاً، وسيحبّك كل لمعلمين، لأنك ستكون أنجب التلاميذ. . هذا واضح. . أنت ذكي جداً يا بنيّ».

في ذلك اليوم قال لي والدي أشياء كثيرة. كان يريد أن يسلّيني، يعزّيني، يشجّعني، لكنني لم أتعزّ عن البيت، وحضن الام، وجوّ الالفة مع أطفال الجيران. وحين دخلنا المدرسة بلغ خوفي أشدّه، ورأيت الأطفال، من عمري، يلعبون ويمرحون، فأحسست بغربة شديدة بينهم. حسدتهم في ذاتي. واعتبرتهم صنفاً آخر، أعلى، أكثر قدرة على التلاؤم، أشدّ طواعية لتلقّي العلم. وبعدما سجّلني والدي، كان علي أن أفارقه، أن أدعه يمضي إلى عمله، وأن أبقى بين الأطفال، وأعود معهم ظهراً، إلى البيت. لم يكن الفراق سهلاً، تمنّيت ألّا يفارقني، ألّا يتركني في المدرسة، ألّا يغادرني فيها، أن يُمهلني يوماً آخر، يوماً واحداً فقط، أعود معه إلى البيت فأشبع من أمي وإخواتي، ومن أولاد الجيران، ثم أرجع إلى المدرسة. . لكن والدي ربّت على كتفي، مسّد شعري، مسح دموعي، وقال لي « إبقَ هنا يا سعيد، وعندما أعود في المساء، سأحمل لك أشياء لذيذة، تسرّك».

أين أبي الآن؟ هنا، في الباحة، كنت أقف، وهناك، إلى جانبي، كان يقف هو. إنني أستطيع، في هذه اللحظة، أن أقبض على ذلك المشهد، هو حيّ في نفسي إلى درجة يخيل لي معها، لو كان بوسعي أن أقفز عن الجدار، وأدخل الباحة، أن أعود في الزمن إلى ما كنت، واستعيد والدي كما كان.

وأسفاه لم يتحقق شيء مما تصوّرت. لا أنا عدت صغيراً، ولا والدي عاد حاضراً، ولا باحة المدرسة استقبلتني. أنا خارج من

السجن، فراشي على كتفي، وصرّة ثيابي في يدي، والزقاق يقودني إلى الطريق العام، من الجهة الرئيسية للمدرسة، حيث علي أن أوقف «حنطوراً» ينقلني إلى بيتي . . وداعاً أيتها المدرسة! وداعاً يا عهد طفولتي!.

أشرت بيدي إلى حنطور يمرّ. نظر الي الحوذي نظرة خاصّة. لم يَخْفَ عليه أنني أخرج من السجن، سبب ذلك الطاقية البيضاء المخرّمة على رأسي، وفراشي الذي على كتفي. ما عدا ذلك لا أثر للسجن في وجهي ويديّ. كان من عادة السجناء أن «يدقّوا» وشمًا بالإبر على ظهر الكف، على الساعد أو الزند. أغروني بذلك فلم أفعل. كرهت أن أحمل هذه الذكرى الملعونة أثراً في جسمي. لكن الواشم كان صناعاً، متقناً لعمله. كان رسّاماً لا أدري أين تعلّم الرسم، وهو قادر، برأسي إبرتين مضمومتين، أن ينقُش لك صورة رجل، بشوارب، وجه امرأة، سمكة، خنجراً، سفياً. وكان السجناء مغرمين بهذا النقش، الذي يسم الجلد بالازرق فلا يمحى أبداً. وكنت أتابع الواشم وهو يعمل ويتكلّم. أراقبه منذ أول إبرة إلى أن تظهر الخطوط وتكتمل الصورة، وكان، خلال ذلك، يتكلّم. يقص حكايات. وقد يتوقّف لاشعال سيكارة. يزرعها بين شفتيه ويستأنف العمل في أصعب نقطة منه، حتى خيّل إلى أنّ السيكارة ضرورية لإبداع شيء خاص، متميّز، في كل صورة، وأنها تنشّط دماغه، تعدّله، تجعله يرى الصورة التي يريد رسمها بعين خياله. ولكثرة ما راقبته صرت أعرف حكاياته، أعرف نزواته، والأهم، أعرف متى سيشعل السيكارة، في اللحظة التي يحتاجها بالضبط. كان يحدث أن يقدّم إليه الموشوم سيكارة في غير أوانها، فكان يأخذها بغير تردّد. يشكلها وراء أذنه. يضعها على الأرض قربه. يعتذر عن أشعالها قائلاً: «ليس الآن». . لكنه لا ينساها قط، في الوقت المناسب، لا قبله ولا بعده، وهو يرسم عنقاً، ثغراً، فخذاً، يشعل السيكارة، ويدعها تشتعل

على مهل في فمه، ويروح يكمل الصورة، حتى إذا أتمّها صاح: «غيره.. من يريد تذكاراً أبدياً؟»..

قلت له مرة، وقد بلغ إعجابي به حداً كبيراً:

ـ لماذا لاتكتب اسمك؟ لاتضع توقيعك تحت الرسم؟

ـ ولماذا اكتب اسمي؟

ـ حتى تُعرف أكثر... تشتهر. تفعل كما يفعل الرسّامون؟

ـ هذا لايهمّ.. لايعنيني.. أنا لن امارس «دقّ» الوشم خارج السجن.. أفعل ذلك هنا هواية، كي أكسب بعض الفروش.. رغيفاً من الخبز أحياناً.. هذه هي كل المسألة.

ـ ولكنك فنان..

ـ هناك فنانون آخرون.. كثيرون «يدقّون» الوشم.

ـ لكنهّم لايرسمون مثلك...

ـ ربما.. أنا أحب الرسم، برغم أني لم أكن في المدرسة الا قليلاً.. حتى الصف الثالث الابتدائي.

ولم أسأله لماذا دخل السجن. كنت أعرف قصّته. لقد فرّ من الجندية في الجيش الفرنسي، وتعارك مع ضابطه وضربه. كان يقول: «أنا لا أعرف التنظيم ولا النظام، ولا أطيقهما» وقال لي مرة: «أهوى التشرّد في الميناء.. تلك حقيقة لاريب فيها» ثم انتهى الى إغرائي بدقّ وشم على الساعد، وجعلها قضيته:

إسمع يا سعيد.. سأدقّ لك صورة لم أدقّها لغيرك.. تبقى تذكاراً مني.

ـ لا أريد ذكرى عن السجن..

ـ ليست عن السجن.. صورة عن البحر.. مركباً مسافراً مثلا.. ألا يذكّرك بشيء؟

ـ ارسم صورة المركب في ورقة.. هذا أفضل..

ـ لكني أجيد الرسم بالإبر لا بالقلم..

ـ وما الفرق..؟

ـ أنا لا أعرف كيف أشرح ذلك.. وأنت لن تفهم.. دعني أدقّ لك صورة مركب..

وعندما وافقت شعر بسرور بالغ، قال لي:

ـ تعال الى زاوية بعيدة عن الناس.. أريد أن نكون وحيدين..

ـ اعتدت أن ترسم أمام الآخرين..

ـ رسم المركب يختلف.. احتاج الى التركيز..

ـ حسناً!

ذهبنا الى أقصى باحة السجن، وعند قدم جدار جلسنا. مددت له يدي.. فعاين الزند، وفرك الجلد، وأشعل سيكارة وقال:

ـ تعرف أنني خائف؟

ـ لماذا..؟ أنت ترسم كل يوم.. البحر ليس غريباً عنه، ولا المراكب..

ـ هذا صحيح.. لطالما تشرّدت في الميناء.. وعلى الرمل المبتلّ تعلّمت الرسم.. غير أنني خائف.. البحر شيء آخر.. والمركب جزء من البحر.. هنا السرّ.. أريد المركب في حالة إقلاع، والخام منشوراً.. لاتنظر الي وأنا أعمل.. فكّر بما تريد.. أشح بوجهك عني.

فعلت كما طلب. شرع هو بالدقّ.. كانت الإبر تثقب الجلد وتنفذ منه، لكنها لاتنغرس في اللحم. أحسست بوجع انقلب الى نوع من دغدغة.. لم أقو على الوفاء بالوعد. جعلت أنظر خفية، وهو يعمل بهمّة، وقد ران عليه تفكير وتأمّل. صار جدّياً. رأيت عرقا أزرق، يبرز في رقبته وينبض، وبخلاف عادته أشعل عدداً من

السكائر، ومازال في خطوط متموّجة، عليها تعاريج زرق، صارت في ما بعد أرضية بحرية للمركب الذي يريد..

عجز عن إنهاء الرسم في جلسة واحدة. امتعض حين انتهى وقت التنفّس. قذف بشتيمة، وقال: «اللعنة.. لا أستطيع المتابعة في القاووش.. لنؤجّل ذلك الى الغد» وافقته..انصرف كل منا الى قاووشه، وأنزلت كمّي حتى لايرى السجناء تلك الإشارات الوشمية غير الواضحة عليه.. ولم أره الا وقت التنفُّس في اليوم التالي..

بادرني وهو مقطّب الحاجبين:

– ما رأيك في أن نؤجل إكمال الصورة الى الغد؟.. لست على مزاج طيّب..

وفي الغد لم يقل شيئا.. لكنه لم يكمل عمله. علمت من السجناء أنه صعد الى نافذة قاووشه العليا وتعلق بحديدها واستقرّ على حافتها.. ظلّ كذلك وقتاً طويلاً، يتّجه بنظره الى البحر، دون أن يقول شيئاً، والسجناء يتندّرون عليه.. يعتبرون جلسته تلك، على الوضعية غير المستقرة، وهو يستند بطرف ردفه الى حافة النافذة، ويتعلّق بحديدها، إحدى صرعاته التي لاتنتهي، فهو في كل يوم يقوم بحركة غريبة تدلّ على شذوذه المطلق..

انقضت أيّام على ذلك وهو يتحاشى أن يراني، فاذا رآني لم يتكلم على إكمال الرسم، وأنا أشعر بحرجه، وبعجزه عن رسم ذلك المركب اللعين، فأتجاهل الموضوع، حتى يئست منه وكدت أنساه..

لكنه في أحد الأيام أقبل علي ما إن خرجت الى باحة السجن وهو يصيح:

– أين أنت؟.. كنت أنتظرك.. أسرع.. لقد رأيته..

ـ رأيت ماذا؟
ـ المركب المسافر. .
ـ وتريد إكمال الرسم؟
ـ نعم. . وفوراً. . هيّا إلى موضعنا السابق. .

كان شاحباً ، متحمّساً، مرتبكاً، يستحثّني على الإسـراع، قبل ان ينتهي وقت التنفُّس وتضيـع الفرصـة. . ولقـد أشفقت عليـه، وضحكت منه، وأردت مناكدته فقلت:

ـ لا أريد إتمام الصورة. . إلى جهنم بهذا الوشم اللعين الذي شغلك وأقلقك كل هذه الأيام.

ـ أرجـوك! أرجوك! أنت لاتقـدر ما أعـاني. . دعني أكمل الصورة. . سيكون مركباً رائعـاً، سابحـاً في البحر، كـأنه حمـامة بيضاء.

قالها وشدّني من كمّي، كاد يجرني بالقوة. . وسألني:

ـ هل لديك سيكارات؟
ـ لديّ ما يكفي. .

ـ حسناً أسرع. . سنتمّ الرسم اليوم. . سترى بأي لـطف وسرعة أعمل. . هيّا. .

جلسنا على حجرين متقابلين. مددت ذراعي صامتاً. كان فيه ما يوحي الي بالصمت ويدعوني اليه. . زمّ شفتيه. قارب ما بين عينيه، شرعت إبرتاه رقصة غريبة على زندي. لم يطلب مني هذه المرة أن أشيح بوجهي، ترك لي حريّة النظر. انصرف عنيّ كليا. كان يعمل، يتوقّف لحظة ويعود مسرعا ليعمل. وعلى وجهه أمارات من يستحضـــر الى مخيلته منظراً بعيداً.

كان يعمل بسرعة ولطف كما وعد. كانت مهارته تتجلّ بالدقّ الرشيق المتتابع. وقلت في نفسي: «يا لها من خفة! ألا يخشى ان

يخطىء؟». رحت أتابعه مفتوناً. ومع تلامح خطوط المركب طفقت أساريره تنفرج، عاد تدريجيّاً الى ما عرفته فيه من لامبالاة. غدا عمله يسيراً. صار فرحا كطفل.. أشعل سيكارة وعبّ منها نَفَساً.. اندفع يدقّ سطح الزند بإبرتيه في أماكن مختلفة، وللحال ظهر البحر، ظهر تموُّج الماء حول المركب، وبدا هذا يشقّ العباب بمقدمه.. وحول أعلى الصارية رسم طيوراً محوّمة. كانت هذه نوارس.. وصاح فرحاً:

ــ أُنظر! لقد انتهيت.. هذا هو المركب.

وقلت مداعباً:

ــ أيهّا الغجريّ اللعين.. نجحت..

فرماني بنظرة مواربة وقال:

ــ أنـا لست غجريـاً.. انا ابن مينـاء متسكّع، لكني لست غجرياً.. الغجر يدقّون وشما.. وهذا مركب.. هذا مركب يقلع في بحر مبارك..

نهض وغاب.. رافضاً العودة رغم ندائي وراءه.

منذ ذلك اليوم حملت لوحة المركب المبحر على زندي.. كنت أشمّر الكم، في أوقات كثيرة، وأرى الى المركب، وأحس أن عالم الماء انفتح لي، وأن والدي، من وسط اللجّة يناديني.. فأروح في شبه حلم، شارداً عما حولي، مناجياً المركب برفق:

«يا عزيزي.. أيّتها الحمامة الطائرة على أعراف الموج.. إحفظ والدي.. أعده الي.. إنني انتظره.. أمي تنتظره، وكذلك إخوتي.. نحن لم نصـدّق قصة غـرقه.. محـال أن يغرق.. صـالح حـزوم لايغرق.. تلك الجثة التي أعطانيها البحـر ليست ما كنت أبحث عنه.. إنها ليست لنا، غريبة عنّا، مرفوضة منا، لذلك تركناها فـي الماء، ولذلك دفعت الثمن هذا السجن الطويل..

لم أطلع السجناء على الرسم فوق زندي.. هو أيضاً لم يقل

لأحد شيئاً. خيل إلي أنه ساحر صنع لي رقية أعلقها في مكان ما فوق جسدي.. كانت «الرقية» صامتة، متكلمة، مخفية، ظاهرة.. تذكّرني بالبحر والمركب ووالدي البعيد.. لكنني امتنعت عن عرضها على الناس، وما عدا ذلك لم يكن ثمة ما يشير الى أنني كنت سجيناً، لولا تلك الطاقية البيضاء التي على رأسي، والتي حدّق فيها الحوذي وقال:

ـ هل تملك نقوداً؟

ـ وهل تطلب الأجرة سلفاً من الذين يركبون معك!؟

ـ لا، ولكن أنت..

ـ ماذا..؟ أتراني غريباً؟

ـ ألم تكن في السجن؟

ـ فهمت.. أنت محق.. اليك بالنقود.. وإلى جهنم هذه الطاقية..

قلتها ورميت بالطاقية من العربة، وبذلك تخلّصت من كل آثار السجن. انطلقت العربة بنا من شارع التركمان، ودلفت الى شارع السراي، هذا الذي يقطع المدينة من أولها إلى آخرها، حيث حيّنا على الطرف الجنوبي، وهناك يقوم بيتنا في أول حارة البحارة..

كان الوقت ظهراً. لم تكن أمي في البيت. إنها تعمل خادماً في هذا الوقت. وكانت الحارة شبه فارغة. ثمة بيوت أشبه بأكواخ نهضت في الطرف الغربي، في الامتداد الى البحر. وفي المنشية أطفال يلعبون. والأشجار وارفة، ذات ظلال كثيفة، والشمس مشرقة، فنحن في حزيران، وريح تهبّ فتحمل الغبار في عصفها، والبيوت ساكنة، ليس أمامها سوى دجاجات وكلاب، والحيّ الذي كان ينبض بالحياة قد فقد روحه، فبدا خاوياً، ميتاً، فقيراً الى درجة مخيفة.

دهش إخوتي الصغار لدخولي. كان منظري، وأنا أحمل فراشي على كتفي، وصرّة ثيابي تحت إبطي، غريباً عليهم. كانوا قد نسوني.

نسوا هيئتي. وربما، وقد كبرت، وتغيّرت ملامحي، قد تبدّلت هيئتي أيضاً، فدهشوا من هذا الرجل الغريب، الذي لايعرفون من هو، ولا من أين يأتي، ولماذا دفع الباب ودخل، ثم أنزل فراشه وصرّته، واندفع اليهم فأخذهم بين ذراعيه وراح يقبّلهم..

سألتهم وفي صوتي بحّة من التأثر:

ـ أين الماما؟

وقال أكبرهم:

ـ في الشغل..

ـ متى تعود؟

ـ بعد الظهر..

ـ وأين أختكم الكبيرة؟

ـ عند الخياطة.

ـ ولماذا تغلقون الباب؟ ماذا تفعلون؟

ـ نلعب.. أمنا أوصتنا الا نخرج من البيت!

ـ يا أحبّائي..

عدت أقبلهم. أنظر في وجوههم. أمسح على شعورهم. أطوف بنظري في جوانب البيت المهمل. قلت لهم:

ـ ألم تعرفوني؟

وقال خليل، الأصغر بينهم:

ـ أنت البابا..

قالها ببراءة وصدق وحرارة، فكادت الدمعة تطفر من عيني..

ـ لا، أنا لست البابا.. أنا اخوكم سعيد.. ألم تحدّثكم أمكم عني؟

ـ أين كنت؟

ـ كنت مسافراً..

ـ والبابا.. متى يعود؟

ـ قريباً.

ـ كان معك في السفر؟

ـ لا.. هو سافر في البحر.

ـ الى أين؟

ـ إسمعـوا.. من منكم يذهب فينـادي اختكم من عند الخياطة؟

ـ تريد السفر من جديد؟

ـ أنا باق.. لن أسافر أبداً.. لن اترككم.. في أيّ ساعة تأتي أمكم؟

ـ بعد الظهر..

عجز الصغار عن تحديد ساعة عودتها. ذهبت الصغيرة لتنادي اختها. بقي خليل بين ذراعي.. أسفت لأني لم أتوقف في السوق فأشتري لهم شيئاً من الحلوى والسكاكر. كانت فكرة سفري تبدو مقبولة أكثر. ولم أسأل عن طعام، كنت جائعاً ولم أسأل عن طعام. ولقد تساءلت: «هل لديهم طعام؟..»

أمسكت خليل من يده وخرجت الى فسحة البيت. كانت التينة على عهدها. مورقة خضراء، وفيها ثمرات غـير ناضجـة. وكانت الدالية تعرش على شجرة حور صغيرة. ولم تكن الحديقة مزروعة. ليس في البيت من يزرعها، والزهور ذبل بعضها، ليس فيها جديد. أمي لاوقت لديها لتجديد الزهور. أمي خادم. لقد انتهى العمل في معمل السوس فخدمت عند الناس. نهضت بعبء البيت وحدها. يوم عطلتها كانت تذهب الى السجن، كفّت في السنة الأخيرة عن طرح الأسئلة حول والدي. لم تشأ أن تعذّبني وأنا في السجن، كانت تنتظر. إخوتي تعلّموا منها الانتظار. سألوني: أنت البابا؟ يتوقّعون عودته.. هكذا، ذات يوم، كما عدت أنا يعود.. تراه يعود؟

دلفت الى البيت لا أعرف كيف استقر. جدرانه عارية. حصيرته مقطعة. أجرة الأم لاتكفي ثمناً للخبز، فكيف عاشت الأسرة هذه السنوات الثلاث؟ وكيف اقتصدت أمي تلك القروش التي حملتها إلي؟ أنا لم أعمل شيئاً في السجن. أنفت ان أخدم السجناء، لم تكن في يدي مهنة. أنا بحّار والبحر بعيد. لا ماء ولا مركب بين تلك الأسوار. والمركب المسافر على زندي.. هو الحقيقة والرمز الباقيان. من الخير أنني صرت كبيراً، صرت شاباً، ولن تغسلني أمي كما كانت تفعل في صغري، وإلا لرأت المركب وأدركت سرّه. كان جرحها قد انتكأ.. إنني هنا، وبعد هذا الغياب، لتضميد الجروح لا لفتحها من جديد.. علي أن أعمل .. أن أدبّر مخرجاً من العطالة التي دامت طويلا هذه المرة، ولكن كيف أشتغل وأنا خريج سجن؟ الآن صرت من أصحاب السوابق.. أم أن السجن لسبب سياسي لايُعدُّ سابقة؟..

نظرت في المرآة. خُيِّل إلي أن دهراً مضى ولم أنظر في المرآة. نما جسمي نمواً كبيراً. عَرُض صدري. عمر كتفاي. وجهي استدار وامتلأ. صار لي شاربان كثيفان. صرت شابّاً كاملاً. أنا ابن عشرين الآن. لحيتي السوداء الكثّة نابتة. علي أن أحلقها قبل عودة أمي. أحلقها وبعد ذلك أغتسل. أتطهر من كل دنس السجن.

حين رأتني أختي أنيسة بكت. احتارت كيف تعاملني. وجدتني رجلاً بشاربين ولحية. فتحت لها ذراعي وضممتها. وجدتها صبية هي الأخرى. أحسنت أمي بتعليمها مهنة بعد انتهاء العمل في معمل السوس. كانت الخياطة هي مهنة الفتيات تلك الأيام، أختي لم تكمل المدرسة. تركتها من الصف الثاني الابتدائي. عجزت أمي كما يبدو عن مواصلة تدريسها. آه كم تعذّبت هذه الأم خلال غيابنا. لقد غدر بها الدهر، زوجها وابنها دفعة واحدة. الزوج في سفر مجهول،

والابن في سجن طويل، وعليها هي، المرأة الضعيفة، أن تربي هؤلاء الصغار.

المرأة عندما تفرح تبكي. بعض الفرح كبعض الحزن، يكون قوياً، انفعالياً، موّاراً إلى درجة أن الدمعة فيه تعيد صاحبها الى السكون. أمي بكت. هذا ليس عجيباً، لكنني أنا الآخر بكيت، كيف يبكي الرجل؟ وماذا لو رآني والدي على هذه الحال؟ كنت، في هذه الحال، أقول له أنت السبب. غيابك هو السبب! لماذا تركتني للحزن والألم والضياع؟ نحن نقدر ظروفك. نعرف أنك كنت مضطراً. نعذرك ونسامحك. لكن عليك أنت أيضاً أن تعذرنا وتسامحنا. . لقد التأم شمل العائلة بعودتي. لأول مرة، بعد ثلاث سنوات، يعرف بيتنا وجهي. يعود الابن الغائب. يصيرللبيت رجل. تشعر الأم بالطمأنينة، بالسعادة، ولفرط سعادتها بكت، عانقتني وتشمّمتني كأنها لاتصدق، كأنها تخاف. تصرّفت كأنها في حلم. . وحين أفاقت الى نفسها، وتيقّنت أنها في يقظة، وأن ابنها قد عاد، كان أول ما فعلته هو الشروع بإعداد الطعام. تهيئة المائدة، لتجتمع حولها عائلة طال انفراط عقدها.

أتتني بثياب نظيفة. سخنت لي الماء. لم تسألني اذا كنت أحمل لعنة السجن المعروفة: القمل! أنا أيضا خجلت أن اقول. لقد حاولت، طوال سجني، أن أكون نظيفا، أن استحمّ وأغسل ثيابي. لكن السجن كان يعجّ بالقمل والبق وكل الحشرات الزاحفة على الأرض والجدران. من أجل ذلك أوصتني بنزع ثيابي كلها. من القميص الداخلي الى البنطال. فعلت كما طلبت. كوّمت ثيابي القذرة في ناحية، وقامت هي بغليها جميعاً، وزيادة في الاحتياط اعطتني مرهماً دهنت به رأسي ومواضع الشعر في جسمي. وبعد الحمام خرجت إنساناً آخر، نضراً، جديداً، وقلت، كما كان يقول والدي: «الحمد لله . . الحمام نعيم الدنيا».

في المساء جاء الجيران. جاء البحارة. سهر قنديلنا الى منتصف الليل. سمعت حكايات كثيرة عن الحيّ، وأهله، والميناء، وللبحر، والشغل، والأزقة، عن أيام الجوع، والبطالة، والتشرّد، وعن الأخبار المرعبة: الأتراك على وشك دخول الاسكندرونة، لقد باعتنا فرنسا. نحن ضحية لعبة دولية قذرة. التسويات اقتضت إعطاء اللواء الى تركيا.. لم تنفع مظاهرات العرب ولا احتجاجاتهم.

ــ والحكومة ــ صحت ــ ماذا تفعل الحكومة؟

ــ أية حكومة؟ هل نسيت أننا بلد محتل؟

ــ وفرنسا؟

ــ هي التي تعمل لتسليم اللواء.

ــ يا ابنة الكلب!

وقالت امي:

ــ ارجوك يا سعيد.. لا أريدك أن تدخل السجن من جديد.. العين لاتقاوم المخرز يا بنيّ..

وسأل بحّار:

ــ ألم تكن الأخبار تصلكم؟

ــ بعضها كان يصل.. كنا نعرف أن المدينة مضربة، أو أن الناس يتظاهرون.. ولا شيء غير ذلك، لم نكن نصدق أن فرنسا تفعلها..

ــ والصحف؟

ــ لا صحف.. ممنوعة..

وقال رجل:

ــ في كازينو نقولا سابا يسمعون الراديو..

ــ في المدينة كلها راديو واحد.. ولمن؟ للأغنياء..

ــ وماذا يقول؟

ــ من يدري..

اغتممت للأخبار. كان المصير المقبل قدراً معلّقاً فوق رؤوسنا. ماذا لو صحّت الشائعات؟ تخرج فرنسا وتدخل تركيا؟ نعود الى حكم الاتراك؟ من احتلال الى احتلال، ونعود الى الاحتلال الأول؟ والثورة؟ والضحايا؟ والذين في الجبال والسجون؟ وأعوام الازمة والجوع؟ هل تخلّت عنا السماء؟ هل معنى هذا الهجرة من جديد؟ والى أين؟ وكيف نلتقي الوالد ثانية؟

طفت في المدينة صباح اليوم التالي. لم تكن المدينة كعهدها. شيء ما كالرعب يخيّم عليها، الأسواق مفتوحة، ولكن الحركة جامدة. المرفأ مهجور. بضعة مراكب في البحر. المقهى، على الشاطىء، في مكانه، لكن الزبائن ليسوا أنفسهم. وجوه كئيبة، صافنة، تتوقّع حدثاً.. لفتتني هيئات غريبة لرجال غرباء، قيل لي إنهم من الاتراك. اللواء، بتدبير من فرنسا، أصبح مفتوحاً من جهة تركيا، مئات الاشخاص يتسّربون يومياً. كيف يدخلون؟ بأية صفة؟ بأية أوراق؟ لاأحد يدري. يدخلون والسلام، يزعمون أنهم من كيليكيا، من الأتراك الذين كانوا يعيشون في اللواء قبل دخول فرنسا. إنهم يعودون، فرنسا تعمل لعودتهم. تريدهم أن يكونوا أكثرية، أن يشكلوا طابوراً خامساً، وعند اللزوم، يطردون العرب ويبقون.. ينقلبون الى جنود. الى شرطة، الى رجال أمن.. هكذا، حسب الخطة المرسومة، لاقتطاع اللواء.

أيهّا البحر! أنت كنت شاهداً هنا، كما ستكون شاهداً في فلسطين، فرنسا في سورية وبريطانيا في فلسطين، زحف الأتراك على اللواء وزحف اليهود على فلسطين.. المقصّ يعمل في خريطة سورية. قضمة من الشمال. قضمة من الجنوب.. ونحن؟ أين العرب؟ أين الحكومة؟ أين دمشق؟ أين عصبة الأمم؟

طوّفت المدينة كلها. كنت متألما. عزّ عليّ ألا أستطيع شيئا. عزّ

عليّ ألاّ يستطيع سكان المدينة، بكــل إضرابــاتــهــم ومظاهراتهم، شيئاً. . وقفت على شاطىء البحر. . ماذا أقول للبحر؟ ماذا يقول البحر لي؟ ماذا نستطيع كلانا؟ هل يعرف هو ما يجري؟ وهل يرضيه ما يجري؟ البحر ساكن، وادع وزرقته مدى لاينتهي. . ونوارس بيض تطير وتحطّ. وغيوم رقاق، تسوقهـا الريـح باتجـاه الشرق، وشمس ساطعة. . شمس صفراء، ذابلة، معلّقة فوق المدينة والبحر، والناس يلوبون. . لا عمل، لابيع، لا شراء. كساد. عطالة، فقر. . والأزمة تنيـخ. . وعدت الى البيت كئيبـاً، يائسـاً، جريحـاً من الـداخـل، وكالوحش المصاب، جررت نفسي الى وكر العائلة، وثمة جلست على الخوان، أفكّر بكل ما سمعته أمس واليوم. .

٤

هل كانت مصادفة أننا، في اللاذقية أيضا، جاورنا البحر؟ وهل لرائحة الشواطىء البحرية، بكل تميّزها الحادّ، هذه الجاذبية التي تجعل البحارة، في سعيهم اللاشعوري الى عدم الانفصال، يؤثرون أن يكونوا على مقربة من الماء المالح، مع ما فيه من زخم، طيّب أو كريه، يعتاده البحّار، ويحبها ويشتاقها مع الأيام؟

رئتا المدمن تعتادان. تدمنان بدورهما. الطبيب ينصح المدخن بالإقلاع. يقول له، في نبرة تخويفية: صدرك أصبح مثل «بوري» المدفأة. رئتاك تكلّستا بالسواد. أنت مهدّد بكذا وكذا مرض. وينظر المريض ويبتسم: الطبيب نفسه يدخّن. يقال إن الطعام الصيني فيه نكهة أفيونية. بعد تعاطيه مدّة يدمن عليه من يتناوله. البحر، أيضاً، فيه نكهة أفيونية، فيه رائحة من فصيلة الأفيون، لذيذة لذيذة الى درجة الخدر، ومن تعاطاها يدمنها، لايستطيع الإقلاع عنها، واذا فعل عاد اليها، وأين من ذلك عودة المدخن الى السيكارة؟

هذه الملاحظات تحصّلت لي فيما بعد. حين كبرت وصرت بحاراً يفارق البحر على مضض، فاذا غاب عنه فترة، كما حدث لي في السجن، عاد اليه عودة المدمن، ولج من جديد، في الوصول اليه، وظنّه ألّا يفارقه أبداً. لقد أصبح البحر في صدري، في رئتي، في دمي، في نسيجي كلّه، وصارت ممارسة الحياة من خلاله هو، وعلى مقربة منه هو، وبمشاركة كاملة من رائحة ملحه ويوده وقاره وقطرانه،

شيئاً داخليا صارخا لاقبل لي بتجاهله. عندئذ أدركت، وعذرت، غرام والدي بالبحر. فهمت لماذا في الليالي العاصفة، حيث نرتعد نحن من الخوف، يعود هو متهلّلا. العاصفة في البحر، قد كانت في الوقت نفسه، عاصفة في ذاته، ولم يكن ثمة قدرة قادرة على فصم هذا العناق الوحشي بين اللجّة وبين جسد ابنها الوفي سوى الموت. ومن يدري، فلو أن والدي مات غرقاً، فقد يكون مات مرتاحا، مستسلما لنداء الاعماق، لهمس القرارات السحيقة، حيث عرائس البحر، في جوزبرجدي اللوّن، ينشدن على قيثارات مسحورة، قصائد الحب لفرسان البحر الشجعان. لكن والدي لايموت بهذه السهولة، والبحر لايقتله غيلة، فبينهما تاريخ من الحب والصداقة والحياة المشتركة، والدي يجوب الآن على متنه، مقتسمًا وإياه القمر رغيف خبز فضّي.

في اللاذقية لم نعثر على بيت. هناك بيوت كثيرة، لكنها ليست لمهجّرين أمثالنا. خرجنا من اللواء في هجرة عامة، على متن سفينة شحن عتيقة، حملت الآلاف من الرجال والنساء والأطفال دفعة واحدة، وألقت بهم مع المتاع القليل الذي يحملونه على شاطىء اللاذقية. هنا في سورية، وهناك في اسكندرون، اللواء السليب، لم يهتمّ الفرنسيون بنا، ما فكرّوا أين نسكن وكيف نعيش. قالوا لنا، بعد دخول تركيا، من يرغب بالهجرة عليه أن يحصل على أوراق من المستشارية، وبعدها طلبوا منا أن نذهب ونفترش رمل الشاطىء بانتظار السفن التي تقلّنا الى اللاذقية، وفي غمرة الخوف والفوضى هرع عرب اللواء بأطفالهم وشيوخهم والعاجزين فيهم الى شاطىء إسكندرونة، من الناحية، الشمالية، وهناك، تحت وقدة الشمس، وفي وحشة الليل، قضينا أياماً حتى تيسّر لنا أن نلقي بأنفسنا في القوارب التي حملتنا الى البواخر، جموعا من البائسين المشرّدين الذين يجهلون المصير.

وقالوا لنا، أو قلنا لأنفسنا، أو صنعنا أوهاما وتناقلناها متعزّين بها، إن هجرتنا لن تطول، فسورية لايمكن أن تتنازل عن لوائها، وأن السفن التي رحّلتنا ستعيدنا، لكن الإشاعات كانت شجراً بريّاً، لم يعقد ثمراً في أيما يوم أو سنة، وعندما حدثت نكبة فلسطين نسوا نكبتنا، بل نسيناها نحن أنفسنا. . صار الهمّ أكبر، وصار الشقاء أكبر، وصغر الأمل، صغر حتى انقطع، ولم يعد، بعد مرور الأعوام، من يؤمن أننا عائدون الى اللواء.

في حيّ الميناء، قرب معصرة بيت نصرى، عثرنا على قبو لجأنا اليه مؤقتاً. هذا المؤقت سيصبح دائما، فالدرب التي تنحدر الى الميناء، وتلك المنحدرة من حيّ الكاملية الينا، في قبونا المعتم، لم تشهد قط عودة رجل يسأل عن عائلة حزوم التي تقطن هذا الحي. لا جاء من البحر ولا البر، والعنوان الذي تركته الوالدة في اسكندرونة، كي يعطوه الى الوالد اذا ما جاء وسأل عنا يوماً، ظلّ منسياً. قالت لهم يوم خروجنا: «إذا جاء صالح، وسأل عنا، رجاء أن تقولوا له إننا هاجرنا الى اللاذقية. لا أعرف أين نستقر بعد، ولا في أي حيّ نسكن، لكننا سنكون قريبين من البحر، وسيعرف البحارة عنواننا، يكفي أن تقولوا له، حين يعود، أن عائلتك سبقتك الى اللاذقية، ألحّوا عليه أن يسافر إلينا فورا. أخبروه أننا بانتظاره، وسنبقى بانتظاره، وأن عيننا على الدرب. . ».

الجيران الذين بقوا في اسكندرونة حفظوا ما قالت الأم، لكن صالح حزوم لم يظهر يوما في الحي، لا أتى من البر ولا البحر، والسفينة التي ماتزال جانحة، وماتزال صواريها فوق الماء، تطير من حولها وتقف عليها طيور النورس البيضاء، لم تقل للشاطىء شيئاً عن مصير الوالد. إنّ سرّه المدفون فيها، المترقرق أزرق كالموج الذي يرتطم على جوانبها، الحائر حيرة الجثّة المجهولة التي اكتشفها فيها، لم يكشف عن نفسه

لأحد. وفوق أمل البحارة العجائز، الذين لم يهاجروا مثلنا، في أن يعود اليهم بحّارهم المفقود يوماً، ظلّ يرف الشك حيناً واليقين أحياناً، فهم مثلنا، موعدون بعودة الغائب، وموصون من قبلنا في أن يوجّهوه الينا.

ولقد تمّ، على نحو جيد، اجتماع الشمل في اللاذقية. التقت أمي إخوتها، وصار لنا أقارب ومعارف، غير أنّ حالهم كان من بعض حالنا، فلم يكن في مقدروهم سوى الدعاء لنا بالتوفيق، وسوى السعي لي بعمل دون أن أحصل عليه في الأشهر الأولى لوصولنا، برغم الحاجة الماسّة إليه، وبرغم أننا كنّا نستدين ونصرف، وأن مستقبل العائلة كلّه كان في خطر، فلا مدارس تؤوي الصغار، ولا خيّاطة تعمل عندها الاخت، والخدمة في بيوت الناس غير ممكنة، لأننا في اسكندورنة كنا غرباء، ولم تكن الأم تستشعر عيباً في خدمة الناس، إذ كانت حجّتها في تقبّل هذا الواقع المرّ أن زوجها غائب وابنها سجين.

هنا، في اللاذقية، الوضع مختلف، كان صعباً، بوجودي، أن تعمل أمي خادماً، وكان أصعب، وهي بين أهلها، أن تعمل في أبواب الناس، وتركّز الأمل في إيجاد عمل لها في الريجي، وهو عمل بسيط سيتحقّق بعد شهور من وصولنا أيضاً.

القبو الذي سكنّاه، قرب معصرة بيت نصري، كان طولانياً. كان عقداً مبنيّاً لا يدري أحد في أي تاريخ وككل الأبنية المقامة على جانبي الطريق الضيق، المتعرّج، المفضي إلى الميناء، كان أشبه بالكهف، فهو نفق بقبّة مستطيلة معقودة بحجارة، له باب واحد من أمام، لا يكفي النور الذي يرشح منه لرؤية ما بداخله. لم تكن فيه نافذة، إنه مستودع حبوب مستطيل، مظلم، رطب كان فارغا ومهجوراً، وكان مأوى للصوص، أو للأشباح التي تحوم على أطراف الميناء، بين البحر

والأبنية القديمة المقامة على كتفه، ينعقد فيها الخوف، ويتردّد صدى الأمواج الهادرة في ليالي الشتاء الباردة، المظلمة.

لا أحد يستطيع القول إنني أعرف البحر. ليس هذا كتاباً تقرأه وتنتهي، الحفظ هنا لا يفيد. المشاهد لا تتكرّر، كان والدي يقول: «شاب رأسي ولم أعرف البحر على حقيقته، تمرّ بك عشرات العواصف، لكن لكل عاصفة طبيعتها، لونها، رعبها، جبروتها المختلف. تقول في نفسك، بعد أن تبحر عشرات المرات في عشرات الأعوام، إنه لم يعد في البحر من جديد. حفظته. عرفته مثل كفي. لكن البحر يهزأ من طمأنينتك هذه. إنه غيره في كل مرة، ليس في العاصفة فقط، بل في الصحو أيضاً. يبتسم لك فلا تغترّ. يكشّر لك فلا تفقد رباطة جأشك. لا تطمئنّ إلى الصحبة القديمة. لا توطّن نفسك على أن الأشياء أصبحت مألوفة. البحر عجيب، عجيب يا جماعة».

لقد قرأت، بعد ذلك، كثيراً من قصص البحر، سمعت عنه حكايات أكثر. حسبت أنني صرت أعرفه، قلت في ذاتي: «والدي كان يبالغ. ماذا يبقى، في النتيجة، بعد أعوام من الإبحار؟» لكن ما جرى معي بعد ذلك، ردّني عن هذا الخطأ. أدركت ماذا كان يقصد والدي، البحر عالم غريب، ليس في مائه وحده، ولا في شواطئه وحدها، لا بالجبال التي تمرّ بمحاذاتها وترهب صخرها وشجرها وجردها ووحشتها، ولا فيما تشكّله من كتل شبحية مخيفة، بينما الريح، في العواصف، تدفعك لتتحطّم عليها، ولا في الشروقات الصباحية، حيث تطلع الشمس مشعة، ضاحكة من ورائها، أو في الغروبات، حيث يحمرّ قرص الشمس وينزلق مختفياً وراءها، وهو يخلّفك لليل راالهول، ولا في الجزر المهجورة، وما تعرفه من حكايات السندباد عن أقوامها وسحرتها وغرائبها، ولا في المدن الكبيرة، الشامخة، أو في القرى ذات البيوت القرميدية الحمراء المنتشرة حول

الخلجان، ولا في الاضواء الساطعة، الممتدّة حبالاً، حاملة اليك الفرح والأمل، بل في كل ذلك، وفي أشياء أخرى تتجدّد دائمًا وإلى ما لا نهاية.

عائلتنا عرفت البحر في مرسين. عرفته في اسكندرونة، ولكم لعبت وسبحت على شواطئه، في المدينتين، ولكم رأيت وعرفت في مينائهما، ولشدّ ما عاشرت من بحارة ورأيت من مراكب وسفن، لكن البحر، في مجاورتنا له، على مقربة من ميناء اللاذقية، كان شيئاً آخر، مختلفاً، مثيراً، داعياً إلى الخوف تارة، وإلى الحيرة طوراً، كأنه هنا، بأسرار الأقبية العتيقة، الكالحة، المتهدّمة، المنتشرة على شاطئه، وبغربتنا عن الجو، والمدينة، والناس، قد شكّل بالنسبة الينا، لوحة للجهمة والضجر، والشعور المتناقض في كل يوم وكل ليلة.

حتى هديره، الذي ألفناه سابقاً، يعطي هنا أصواتاً مغايرة. فأن يسمع المرء هدير البحر وهو في كوخ على شاطئه، غير أن يسمع هذا الهدير وهو في الطابق الثاني من بناية تطلّ عليه، وغيره وهو يسمعه من قبو حجري، هو عقد في سلسلة من العقود الواطئة، المتشابهة، الصامتة، التي تعطيك إحساساً بالجريمة، رغم أنك لم تر جريمة ترتكب فيها، ورغم أنك تعلم ألاّ خوف عليك، ما دام الأمن مستتباً.

تمتدّ مشارف الميناء من مقهى البطرنة انحداراً إلى الجنوب، حول فجوات شاطئية متعرجة. فاذا بلغت الساحة التي أمام مستودع «الامبريال» للتبغ، لاحت مظاهر الميناء في تلك الكهوف الحجريّة المستطيلة، القائمة على جانبي درب ضيّق يفضي إلى الميناء. وهناك، في باحتها، قبل أن تدخل حرمها، حيث الرصيف الصغير، على فم الخليج، أو شبهه، الذي ترسو فيه المراكب، تقوم بعض المقاهي التي يتجمّع فيها البحارة.

ومن البطرنة إلى الشمال، في شاطىء صخري، كثير المنحنيات، يقطعه بناء الكازينو الذي شُيّد على حافة الماء، يمتدّ البحر فارغاً، إلا من أبنية متناثرة شرق الكورنيش، ويبقى كذلك إلى المبغى العام، في منخفض من الأرض، ثم يبدأ شاطىء مقفر، ليس فيه سوى الرمل والحصى، لا يصل اليه الناس في نزهاتهم التي تنتهي عند مفرق السجن، كأبعد نقطة معمورة من الساحل.

ولم يكن ثمة، على امتداد هذا الشاطىء، سوى حمام واحد للسباحة، إلى الشمال من مقهى العصافيري. وكان الرجال والفتيان يسبحون حَول البطرنة، تحت المنشية، يفعلون ذلك في الصباح والظهر. أما في أمسيات الصيف فإن عائلات المدينة تنتشر على صخور البطرنة، معها طعامها وشرابها ونراكيلها، وأحياناً معها دف أو دربكة وعود، ولوكسات أو فوانيس كاز أو دون أضواء حين يكون القمر شاباً أو بدراً.

منطقة الميناء وحدها تظلّ مظلمة مقفرة. يشتد إظلامها وإقفارها في الشتاء. وفي الأيام الممطرة، حيث يشتدّ الرعد على الساحل ويتردّد صداه في هذه الكهوف مدوياً، متدحرجاً، متفجراً، ويلتمع البرق لينير الطريق الذي يجلده المطر، ثم ينطفىء وتعود الظلمة حالكة مخيفة.

في مثل هذه الليالي كانت والدتي ترجوني وتلحّ في رجائها ألا أخرج من البيت. كانت تخاف علي وعلى نفسها وبيتها وأولادها. كانت الوحشة، في أيام العواصف، تشتدّ حتى لتبعث القشعريرة في الجسم. الريح تعوي، وهي تمرق باندفاع شيطاني عبر الكوى في واجهات الكهوف، وفي شقوق هذه الأبنية الخربة، ويصفر الاعصار في اندفاعه المجنون مستثيراً البحر، وتعوي الكلاب وتموء القطط التي تأوي الى الكهوف الفارغة خوفاً من غضب الطبيعة، ويقبل الموج من

الغرب والشمال الغربي حانقاً غضوباً، في تتابعات رتيبة محمحمة، ويرتطم بالصخور وجذور الأبنية، وعندئذ يصدر عنه هدير مقلوب، حادّ، موجع، وتسمع في منطقة الميناء كلها ترجّعات مزمجرة، كأن آلافاً من كلاب البحر الشرسة، الجائعة الهائجة، تهاجم الشاطىء وتنتحر عليه.

كنا نشعل فانوس كاز نعلّقه على مسمار في الضلع المجوّف للكهف، وندعه يرتجف مثلنا أمام عصفات الريح المجنونة، وتضيء ذبالته فيدخّن الفانوس، وتخبو حتى لتكاد الظلمة تعمّ، وخلال ذلك تتراقص على الجدران الكهفية أشباح ضوئية ترتسم بأشكال خرافية متغيّرة في كل لحظة، وتعلو أصوات في الخارج، أو يخيّل الينا أنها كذلك، فينقبض صدر الأم، وتتمسك بي لتحول بيني وبين الخروج، خوفاً من اللصوص والأشباح والرؤى المرعبة التي يخيّل إليها أنها تجوس بين الابنية، أو تتراكض على سطوح الكهوف، أو تتربص في منعطفات الطريق. وعبثاً كنت أحاول إدخال الطمأنينة إلى قلبها، وسدى كل ما بذلت من محاولات لإقناعها أن ليس في الخارج لصوص ولا أشباح.

كان يحلو لي، في بعض الليالي، أن أخالف أمي وأخرج. كان نداء مجهول يستحثني أن أفعل، أن أعاين الطبيعة، في ثورتها، والبحر في غضبته، وأشهد الريح نائحة بين الصخور، متشهّية فوق الموج، وهو يشرئب لينهشها ويدفعها بعنف نحو الشاطىء. وإذ كنت أفعل ذلك، أحس براحة، لأن رجولتي كبحّار تتحقّق في هذا الاندغام بالجوّ المكفهر، الصاخب، العاتي، لكل عناصر الطبيعة ولكل ما في الميناء من أحياء وجمادات.

ولقد الحّ علي إحساس بأن منطقة المرفأ تعجّ بالأسرار. إن حياة المرافىء، بطبيعتها، وبما يجري فيها من تهريب واتجار بالمحرمات، وما

يزاوله ناسها من شرب مخدّرات وموبقات وجرائم، هي حياة شاذة محفوفة بالخطر، تكتنفها أمور غريبة، وتعيش في طواياها حكايات عجيبة، وكان هذا الاحساس يتعاظم نتيجة ما أشاهده في الليل من حركات مريبة، ومن دخول وخروج أشخاص شبحيين إلى الكهوف، وما يُنقل اليها أو يفرغ منها من أشياء هي، على الأغلب مهرّبات، وُضعت ثمة في النهار، أو وُضعت في وقت من أوقات الليل، ريثما يجري بيعها أو تدفيرها.

واستقرّ في ذهني إلى درجة اليقين أن الأصوات التي تقول أمي إنها تسمعها من الكهوف المجاورة، وخاصة في أنصاف الليالي، ليست تهيؤات فقط، ولا أوهاماً تبعثها أعصاب تعبة. إن المهرّبين والمتشرّدين، والحشّاشين، والزناة، يتّخذون من هذه الكهوف مقار وملاجىء لهم، وهم يلعبون فيها القمار، ويشربون المخدرات، ويتعاطون الجنس بكافة أنواعه، وإن السكارى منهم تعلو أصواتهم، عند الاختلاف على أيما شيء من هذه الموبقات التي يرتكبونها. لهذا كثيراً ما أغرتني أسرار هذه الكهوف أن أدخل اليها، وأعاين ما فيها، وأعرف خفاياها كي أستطيع أن أدرأ شرورها عن العائلة.

وزاد في إحساسي المتوفّز هذا أنني أصبحت في تمام الرجولة، وبدأ الجنس يشكل حكّة نهّاشة في بدني، وأن أحلام اليقظة الداعرة تراودني، وتخيُّل ما يجري في الكهوف يستثيرني، وصار اكتشاف هذا الجزء الغامض، الفاسد، المثير من المدينة يستهويني، بل يوقظ أعصابي إلى حياة المغامرة التي هي أساس في حياة البحارة، وأساس في حياتي الملأى بنداءات مجهولة.

كان المرفأ الآن في أوج نشاطه. لقد تحوّلت الحركة البحرية من مرفأ اسكندورنة إلى مرفأ اللاذقية. صار هذا ميناء سورية الوحيد، ومن أجل ذلك زحفت المدينة اليه، ولم تعد النهارات تكفي للأعمال

فهي تستغرق الليالي أو بعضها أكثر الأحيان. وكانت صورة المدينة تنعكس مجسّمة هنا، بكل ما فيها من غنى وفقر، من بطر وبؤس، ومن حرب على المغانم، وعلى الامتيازات، وعلى مراكز النفوذ، ومن اصطناع للزلم، وللقتلة، ومن بسط السيطرة على أفراد عصابات التهريب وتجارة الممنوعات.

كنت قد بدأت أعمل في الميناء. اشتغلت مساعداً في قيادة أحد الزوارق التي تقطر مواعين الشحن. لم تكن ثمة نقابة لعمّال البحر، ولا لعمّال الميناء، وليس من حقوق معلومة أو محترمة لأحد، وكان الأقوى، الأفتك، الأشد قدرة على الإجرام، الذي وضع نفسه في خدمة الزعامات المحليّة، هو الذي يفرض نفسه، ويغدو مخيفاً ومرهوباً، ويؤمن وضعاً أفضل له ولشلّته. أما نحن، الذين لا ننتمي إلى أحد، فقد كان عملنا يستمرّ على أساس الكمية والساعات، فكلما قدّمنا عملاً أكثر، وتحمّلنا العمل لساعات أطول، رضي عنا أصحاب الاعمال، والمتنفّذون، وتقاذفتنا الأيدي، وعلا الصراخ في وجهنا من كل جهة.

فكرت بوالدي. كان محقّاً في العمل بحّاراً لا عاملاً في ميناء. وعندما ضاق به العمل في البحر انتقل للعمل في النهر، لم يكن من الميناء ولا أخلاقها، ولا أدري كيف كان يحتمل الأوضاع في مرفأ مرسين، هل لأن الحياة تختلف، والظروف والاوضاع تختلف، أم هل لأنه كان يأتي الميناء بحّاراً، فلا يصيبه ما يصيب العاملين في الميناء، أم كانت له من السمعة، ومن السطوة، ما يدفع عنه زعرنات الآخرين؟

أنا لم أعمل في الميناء طويلا. لم أستطع أن أعمل فيها طويلا. العيش بين ذئابها كان سيحوّلني إلى ذئب، وكان لي الاستعداد لذلك، نموّ جسمي، تصلّب عضلاتي، قوّتي البدنية الفتيّة، روح الرجولة التي

ورثتها عن والدي، كل ذلك كان يدفعني إلى الانصهار بنار الميناء، إلى الخوض في مشاكلها، إلى العراك مع أي«بلطجي» فيها، لكن طيف والدي الذي كان ماثلاً أبداً أمامي، ونصائح أمي، والحرص على أن أبقى بجانب عائلتي، وأن أسهر عليها وأحميها من شرور الميناء، كان يحول بيني وبين العراك الذي كنت أبدأه بملاسنات أكثر من مرة. وربما كانت فروسية البحر، هذا الحبيب الذي كانت له كرامة عند والدي، انتقلت إليّ بدورها، أنقذتني من الانغماس في أخلاقية بهيمية، ومن الاستسلام لحيونة ورذيلة هنا بؤرتها الأكثر نتانة.

مع ذلك لم أسلّم تماما. كان نداء الجنس ينهشني، يقلق أيامي ولياليّ. لهذا غامرت مرةً بالذهاب إلى المبغى. انتقيت امرأة قصيرة، ممتلئة، بيضاء، ودخلت معها، كنت أجهل عملية الجنس. استعدادي المدهش كان فطرياً فقط، وكان البياض في الجسم، لطول ما سمعت عنه من البحارة وشغيلة الميناء، وفي السجن، هو الذي يستثيرني. أحسست أنني قادر على أن آكل المرأة التي دخلت معها. كنت أرتجف كمن يقترف عملاً رهيباً غاية الرهبة. أن أرى المرأة عارية.. آه! أي شيء، كان يردعني عن الإقدام على أشدّ المخاطر في سبيل ذلك؟ كنت قادراً على تلقي مدية في صدري دون أن أرتد عن امرأة ينكشف جسدها لي. ولقد تخيّلت، طوال طريقي إلى المبغى، تلك اللحظة العجيبة، المثيرة، المهيجة إلى حد التوتّر، إلى حد الانقصاف، لحظة تضمّني غرفة مع امرأة، والباب مغلق، وهي تتعرّى أمامي.

ولقد أصبت بخيبة أمل لأن الأشياء جرت على غير ماتوقّعت. أنا لم أتقزّز تلك الليلة، مع أنني في حياتي الطويلة كبحار، كثيراً ما تقزّزت بعد التماس ذلك العزاء التافه لدى مومسات المرافىء. كان بناء المبغى واطئاً، بطابق واحد، في المنحدر المواجه للسجن. وكانت الجدران، من

الخارج، مدهونة بالأحمر. ربما دهنت كذلك للمشاركة في استثارة الرواد، أو من يمرّون أمام المبغى من الرجال. وكان المدخل ضيّقاً، يفضي إلى ردهة على جوانبهاغرف صغيرة. وثمة في زاوية الردهة، فونوغراف يزعق بأغنية دارجة مبتذلة: «مرجانة زعلانة دبّرها يا سليم». . وكان وصف الأغنية لبطن المرأة ونهودها رخيصاً بشكل منفّر، ولهذا لم أتوقف في الردهة، فما إن ولجتها، وشاهدت عدة بنات فيها، يكشفن عن أجسامهن بأشكال داعرة، حتى حطّت نظراتي على القصيرة، الممتلئة، البيضاء فيهن. لم أعرف ماذا أقول. ذلك أنني لم أستشر أحداً، ولم أذهب برفقة أحد، وكان الموقف مربكاً لي ولاحظت الفتاة ذلك فأنقذتني من ورطتي بأن قادتني إلى غرفتها، وما إن أغلقت الباب، حتى اضطربت خجلاً وشهوة، ورصدت تلك اللحظة التي طالما حلمت بها في ليالي الحرمان بانتباه شديد مركّز، لكن الفتاة لم تتعرّ. لم تتوقّف لتسألني عن أيما شيء. استلقت من فورها على فراش دون شرشف، فراش مبقع، تفحّ منه ومن أطراف الغرفة رائحة محاليل لعينة، وبعد أن تمدّدت كشفت عن جسمها حتى منتصفه، وقالت لي بلا مبالاة، بعبارة آلية، لا دفء فيها ولا انسانية «هيا استعجل، زبائني كثر» ولقد بدوت تلك اللحظة أخرق تماماً، وضاعت المتعة الروحية المرتجاة، ولم أدر، لشدة ارتباكي، كيف ذلك الشيء، ولكنه حدث بسرعة، لم استشعر معها حتى ولا تلك اللذة التي كنت أحسّ بها في الحلم.

ارتديت ثيابي على عجل. أشحت بوجهي عن الفتاة التي غادرت السرير لتغتسل. لقد أجرت عملية الغسل أمامي، دون اكتراث لوجودي، كأنما شخصي تضاءل أمامها إلى رقم، وبعد أن نقدتها أجرتها فتحت الباب وخرجت، بإحساس من ارتكب إثمًا، وكأنما كل المدينة تحوّلت إلى عيون ترصدني وأنا في ذلك المكان الدنس. وفجأة، في الردهة، ثار شجار بين فتاة ورجل، ولشدّة دهشتي، بسبب ما سمعته من سباب بذيء متبادل، لم ألحظ جيداً كيف هجم الرجل على الفتاة،

وسمعت دوي صفعة على خدّها، ترنحت من جرّائها وأجهشت في بكاء انفعالي بصوت مرتفع.

طعنت في قلبي. أن تضرب امرأة أمامك وأنت رجل، ثم لا يكون لك حق التدخّل لحمايتها، او لا تجد ملائمًا أن تتدخل لتفعل ذلك، تحسّ كأنك تهين رجولتك نفسها. إن الشقاء الذي ترزح تحت وطأته فتاة المبغى شقاء قاتل، وهذا ما زاد من نفرتي. لم أشأ أن أتدخل. الدوافع التي حدت بي في الميناء الى الامتناع عن جرّ المشاكل نحوي، هي نفسها، وبصورة مضاعفة في هذا المكان الذي جئته متستّراً، حدت بي الى ابتلاع ألمي والخروج من المكان مسرعاً، فارّاً منه كأنني أفرّ من وباء.

حين صرت في الخارج تنفّست بعمق لأطرد من رئتي كل ذلك الهواء الفاسد المتخمّر في المبغى. كان جسمي دبقاً، أو هكذا أحسست، وكانت بقع حمر، استشعرتها دون أن أراها، تتفتّح في جسدي في المكان الذي لامس جسد الفتاة. ورغم أنني لم أقبلها في فمها، لأنها لم تسمح لي بذلك، فقد كانت البقع على وجهي وشفتي. قذر، قذر. أسرعت في الابتعاد، رغبت أن ألقي بنفسي في البحر لأغتسل وأتطهر، خفت العودة رأساً إلى البيت. خُيّل إليّ أن أمي ستكشف فعلتي ما أن تراني. طفت في المدينة، سلكت الشارع الرئيسي من المنشية إلى القلعة. دخلت الأزقة الفرعية، الضيّقة، المزدحمة بالقمامة والقطط، رطوبة الشوارع الخلفية كانت لزجة، زادت في حاجتي الى غسل جسمي بالماء والصابون. لكن هذا المطلب البسيط، مطلب الاغتسال، لم يكن ميسوراً، ففي بيتنا لا يوجد حمام، والسباحة في الشتاء غريبة غير مألوفة، وأنا لا أعرف حمامات السوق، ولم أدخلها، وهكذا تعذّبت وأنا أطوف في الأحياء الفقيرة من المدينة على غير هدى.

في البيت اخترعت حكاية لتأخّري في العودة. كذبت على أمي.

لم تلاحظ شيئاً بخلاف ما توقعت، زعمت لها أن حكة في جسدي، وأنني أخشى أن تكون عدوى من القمل قد أصابتني، وصدّقت أمي هذا الكلام. سخّنت لي ماء، سكبته على جسمي في الزاوية المحجوبة بشرشف، التي نتّخذ منها مطبخاً وحماماً. استرحت بعد الحمام. هدأت شيئاً فشيئاً. زايلتني مشاعر الوسخ، وبعد العشاء نمت باكراً، أفكر قبل الإغفاء بالتجربة الجنسية الأولى التي مررت بها، وأحدثت في نفسي ذلك الانطباع السيء كلّه.

لم أكن، بتلك الايام قد دخلت في جلد البحّار جيّداً. لم أكن قد تبلّدت، وعرفت مرافىء العالم بكل ما فيها من خمارات ومواخير، وبكل ما فيها من لصوص وعاهرات، وما يحمله المرور فيها، والعيش بين ناسها، لمدّة يوم أو أيام، من زنخ ولزوجة سيعتادهما البحّار لأنهما جزء من حياته البحرية.

الواقع أنالأثر السيء لهذه التجربة لم يدم إلا أياماً، تحوّر بعدها، وانقلب، في سغب الجنس، إلى رغبة في المعاودة. كنت أتقدم في العمر، جسدي الفتي الذي أعطاني قامة فارعة، راح يكتنز بغير سمنة. كتفاي صارتا عريضتين، وصدري الواسع، الخالي من الشعر، إلا من زغب خفيف، امتلأ، ونبضت قوة غريبة في الأعصاب، حتى قالت لي أمي إنني أوشك أن أكون أبي في شبابه. ولقد سرّني هذا الوصف، لكن فعال أبي في البحر والميناء والنهر، كانتتنقصني، فأنا لم أظهر أيّما تميّز منذ حادثة الباخرة الغارقة، ولم ألفت أحداً في الميناء بمغامرة تذكر، وإن كانت سمرتي ولون عيني، ورجولتي الفطرية، قد جعلت مني شاباً جميلاً كما قالت أختي. وحتى هذا لم يرضني. كنت أريد سمعة بحّار كأبي، وحضوراً مرهوباً كحضوره، وظننت، في تلك السن، أن هذا يمكن بلوغه بقوة العضل وحدها، أو بالعراك وهو هوايتي.

المهم أنني، ذلك العام، لم أعاود تجربة المبغى، وقع لي حادث

نادر الوقوع، لكنه ليس غريباً عن الميناء وما فيها من مغامرات وأسرار. ففي الربيع، وبالتحديد في شهر نيسان، صار الطقس حلواً، دافئاً على الشاطىء. انقضى الشتاء بعواصفه ورعوده وأمطاره ورهبته. صارت إقامتنا في ذلك الكهف قرب معصرة الزيت مألوفة أكثر لنا وللآخرين. داخلنا بعض الاطمئنان صرنا في أيام الربيع الأولى نخرج إلى سطح الكهف المقنطر كي نتشمّس. وفي أيام الجمع، حين لا يكون لديّ عمل، كنت أفتح بساطاً بيتياً على سطح الكهف، وأقرأ كل ما طالته يدي من قصص. وحين اشتد الحرّ، صرت أخلع قميصي وأعرض جذعي للشمس، غير منتبه إلى أن ثمة من يراقبني في نوافذ الدور العالية المطلّة على أسطحة الكهوف.

ولعلّ تربيتي البيتية الجيدة، ونصائح أمي، وجوّ التقاليد المتزمتة، التي لا تبيح التلصّص على بيوت الآخرين، أو لعلّ غفلتي وعدم تجربتي الاجتماعية، قد تسبّبتا في أنني لم ألحظ ما هو غريب حولي. لكن المرأة، حين تكون على مقربة منك، تحمل لك الريح عطراً منها، مهما يكن خفيفاً، فهو ملفت، إذا طال التجاور، وطال الترصّد من قبلها، لكن هذا العطر، الذي شممته أكثر من مرة، لم يكن كافياً وحده لأن يقودني إلى التربّص بنافذة بعينها، في بناية بعينها. وهو تربص أكثر فائدة من التشتّت، ومن مسح جميع الأبنية وجميع النوافذ بنظرة واحدة، شاملة وعابرة.

ذات يوم، وكنت أستلقي على البساط، مستغرقاً في القراءة، رنّت على سطح الكهف قربي حصاة مقذوفة لا أدري من أين. أنا لم أر الحصاة التي رنّت واختفت، غير أنّ رنينها كان قوياً، فخيّل إليّ أن ثمة من يحصبني، أو من ضاق بوجودي على السطح، لذلك نهضت، بعد أن تلفّت حوالي، واقتربت من حافة السطح، ونظرت إلى الشارع الضيّق، فلم أجد أحداً. بلى وجدت خادماً صغيرة أمام أحد الأبواب، معصوبة الرأس بمنديل، تقف كأنها بانتظار أحد يمرّ، لكنني شككت في أن تكون هي التي قذفتني بتلك الحصاة.

رجعت إلى بساطي وجلست مستأنفاً القراءة. كانت النوافذ من حولي فارغة كلها. وزيادة في الاحتياط ارتديت قميصي، وقررت ألا أخرج الى السطح ثانية، كيلا أضايق أحداً من الجيران. لكن حصاة أخرى، قبل أن أنهي الفصل الذي أطالعه، سقطت بعيداً، قرب حافة السطح، ونطّت عنه إلى الطريق العام. الآن وضح لي أن ثمة ما هو متعمّد في هذه الحصى التي تُقذف باتجاهي. ولو أن ذلك وقع ليلاً، لرددته إلى شيء من أسرار المنطقة، ولخيّل إليّ أنها إشارة متّفق عليها بين الذين يتسلّلون الى الكهوف لممارسات مشبوهة. أما في وضح النهار، والشمس مشرقة، والسماء صافية، والنسيم طيبوهادىء، وليس هناك من أحد في الكهوف، فإن قذفي بالحصى، وبهذا الشكل المتعمّد، يدل على أن شخصاً يستهدفني.

ألقيت الكتاب من يدي. حدقت في كل الأبنية المجاورة، أسطحتها ونوافذها، فلم أشتبه بشيء. تقدّمت إلى حافة السطح المقنطر، فوجدت صبياً أسود، هو خادم في أحد البيوت لا شك، ومن المحتمل أن يكون هو المحصب، بقصد اللعب ليس الا. جعلت أراقبه. مكث حيث هو دون حراك. لم يكن في يديه شيء. لم يرفع رأسه إلى أعلى. وبعد دقائق سار نحو فجوة في جدار أحد الكهوف، دخلها وغاب فيها، كأنه مقيم هناك، أو له غرض، أو مرسل في مهمة.

عدت إلى بساطي فطويته. حملته ونزلت عن السطح، وفي نفسي ما يشبه الدهشة الساخرة، من صدق حدسي أن كهوف الميناء هذه تنطوي على أسرارها، وأني موشك أن أكون جزءاً منها، أو على علاقة بها، وأن عليّ أن أحترس، خاصة في الليالي، من التطواف أعزلَ بين الكهوف، أو الاقتراب منها دونما حاجة أو سبب، وبقصد إشباع الفضول ليس إلاّ.

كان البحر قريباً، في ما يلي الطريق من الجهة الغربية، وهو

واطىء لا بدّ من الانحدار إليه عبر فجوة جدارية، تشكّل حدّاً للرصيف، ومانعاً للانهيار. وكان الشاطىء، في هذه المنطقة، رملياً محصباً في بقعة صغيرة منه، وصخرياً في امتداده المتمعّج الى المغارة، التي تقوم على نتوء صخريّ داخل البحر، تليها الميناء، بسيفها الصغير، وبعض الأبنية المتفرّقة لرجال الضابطة الجمركية والأمن.

كنت قد اعتدت النزول الى هذا الشاطىء. سبحت بين صخوره بعض المرات، جلست عليها مرات أخرى، وفي كل مرة كنت أعطي ظهري للطريق وللبيوت، منصرفاً الى التمتّع بالبحر، رانياً الى مبنى الكازينو الذي لا أعرف ما بداخله، وإن كنت أسمع أن فيه مجمع الطبقة الغنية، ويرتاده الضباط الفرنسيون، وفيه تقام الحفلات الراقصة، ويجري لعب القمار، وتتمّ اللقاءات الغرامية والجنسية، هذه التي لم تألفها المدينة البحرية في حياتها العادية.

انحداري الى الشاطىء البحري، في منطقة الكهوف، كان اليوم يختلف عنه في الأيام السابقة. رغبت في الاكتشاف. قرّرت أن أتظاهر برؤية البحر، واختلاس النظر إلى البيوت، وتطواف الشاطىء الصخري كلّه، ومعرفة ماإذا كانت الكهوف الغربية، تفضي الى الشاطىء، وأن لها أبواباً تطلّ عليه، أو فجوات يدخل الداخلون منها، وأن الصبيّ الأسود، الذي انسرب من تلك الفتحة قد ظلّ في الكهف، أو خرج من الجانب الآخر، الملاصق للبحر.

لقد أدهشني البهاءُ البحري في ذلك اليوم النيسانّي المشرق، فالمرء لا يكاد يصدّق أن هذا الشاطىء المقفر، المرعب في أيام الشتاء، الذي يصدر دويّاً هديرياً مخيفاً في الظلمة والريح والمطر، يمكن أن يكون على كلّ ذلك الأنس والوداعة والبهجة في الربيع، وفي يوم منوّر كهذا، تضحك فيه الطبيعة النظيفة الجديدة، الخارجة مغسولة من فصل الأمطار.

جلست على جبهة صخرة متطاولة في الماء. جعلت ألاحق طيور النورس وهي ترفّ على وجه البحر، أسراباً وفرادى، كان بياضها لامعاً تحت أشعّة الشمس، وكانت فَرِحَةً تصفق بأجنحتها وتقوم بتشكيلات فنّية عفوية رائعة، فهي تطير مستقبلة المراكب الداخلة الى الميناء، مودّعة الزوارق الخارجة منها، محومة حول أشرعة شخاتير الصيد، تصيء بأصوات حادّة، صمّاء، وينفرد الجائع منها عن السرب فيقف على الصخور المتناثرة في البحر قرب الشاطىء، ومن فوقها يرصد الأسماك وينقضّ عليها، أو يبقى، ببساطة، فوق الصخور، ناعمًا بالدفء والطمأنينة، بعد تلك الأيام المعربدة، المخيفة، التي ينذعرلها هذا الطير البحري النائح أبداً لمقدم العاصفة، المختبىء منها في أوكاره بين فجوات الساحل، الذي يبلغ به الهلع درجة الانخطاف الى مطاوي الموج، وفي ظنّه أنّه يهرب منها.

على البعد، فوق صخور البطرنة، وعند قدم بناء الكازينو المربّع، كان صيّادون يرسلون خيوطهم في الماء، ويقعدون القرفصاء مركّزين انتباههم كلّه على فواشات خيوطهم، في صبر عجيب لم يُطقه أبي، ولم أطقه أنا، وما أحسب أن بحاراً أَلِفَ السفر أو رغب فيه يطيقه. البحّار غير الصيّاد، كلاهما يعيش على البحر، وكلاهما يألفه ويحبّه، لكنّ البحّار الذي استبدّت به روح الإبحار، نزعة المغامرة، يأنف هذا العمل الرتيب القاتل، عمل الصيّاد الذي يجلس ساعات، كبوذي متعبّد، في دعاء داخليّ هو رجاؤه الابتهالي اليوميّ، أن تَعْلق سمكة ما في صنّارته المخادعة.

قال لي والدي يوماً «يا بنّي، كن بحّاراً لا صيّاداً. السفر في البحْر، وإلقاء النفس في عالمه المجهول، ومصارعة العواصف والأمواج، عمل فروسيّ. إنه تجوال، على متن المحيط، خليق بالرجال الشجعان وحدهم، الذين يموتون ويولدون في كل رحلة.. أما عمل الصيّاد

فبائس، راكد، لا خطر فيه ولا نجاة، لا موت ولا حياة، لا جنون يجعلك ريحاً، يجعلك برقاً، يخلع قلبك، لكن يحقّق متعتك في الاستسلام الى القاع، أو الارتفاع فوق جبال الأمواج، في عراك عنيف، هو البطولة التي تمنح النفس شعوراً بالارتواء من لذة عناق البحر، اللّذة التي هي صنو عناق المرأة». وقلت لوالدي: «لكن الصيّاد له لذّته هو الآخر، وإلاّ لما كان الصيّادون، أو لما واصلوا الصيد، إذا كانوا يتعاطونه بغير متعة» وقال والدي وهو يضيّق إحدى عينيه، ويروزني بالأخرى كأنه يسبر عزمي: «أنا لم أقل إن الصيد لا متعة فيه.. ثم إن الصيد أنواع. أن تصطاد القرش فهو صيد. أن تصطاد الحوت فهو صيد. وأن تلصق قفاك بالصخر، بانتظار أن تَعْلَق عاهرة صغيرة في صنّارتك، فهو صيد أيضاً. أنا أكره هذا الأخير. لذّته صغيرة. أنا أحب اللذة الكبيرة، التي تدفع ثمنها عرقاً وجهداً وخوفاً وعراكاً..». سكت قليلاً وسألني: «تريد أن تكون صيّاداً؟» قلت: «لا أدري... لا أشعر بميل خاصّ نحو الصيد على الشاطىء، وقد حاولته وأنا صغير، لكنّني فقدت صبري عليه.. فشلت في التلبّث ساعات في مكان واحد.. وقد هجرته بسرعة» قال والدي: «هذا أفضل، أريدك بحّاراً لا صيّاداً.. فالموت في اللجّة، خليق بالرجال، أما على الشاطىء فخليق بالكلب».

حسناً، أنا لست صيّاداً ولا بحّاراً الآن. أنا عامل في البحر، أضطرب في الميناء، وأعيش مع أسرتي بجوارها، وأنتظر عودة والدي الذي رحل في ظروف غامضة. لقد انتظرته في اسكندرونة وأنتظره هنا، وسأنتظره إلى آخر عمري، وسيعود والدي، سيعود في يوم مشمس كهذا، وسيُقبل من البحر، وربما كان عليّ أن أرصد قدومه على هذه الصخرة.

خرج الصبي الأسود من الكهف. رأيته فجأة على الشاطىء. راقبته مختلساً النظر إليه، فيما أنا ألتقط الأصداف عن الرمل. كان

ينظر الى البركة البحريّة شبه الخليجيّة. لم يتحرّك من مكانه. ظلّ لصق الجدار الكهفي، لا أدري بماذا يفكر. خُيِّل إليّ أن وراء هذا الصبي سرّاً. إنه يحرس شيئاً ما في الداخل. ربّما كان رسول امرأة الى أحد البحّارة. إذا كان ثمة من ألقى الحصاتين متعمّداً باتجاهي فلا بدّ أن يكون هو. أنا لم أقع على أثر لمخلوق سواه، وسوى تلك الخادم الصغيرة التي لا تجرؤ أن تحصب رجلاً مثلي.

فكرت: «لماذا لا أقترب منه وأتعرف عليه. إذا أقمت صلة معه فقد أعرف من هو، وماذا يفعل في الكهف، وماذا يعمل، وكيف يعيش». راقت لي الفكرة. هو، لا سواه، مفتاح السرّ، وعلي، مهما بذلت أن أحصل على هذا المفتاح. قد يكون الصبيّ خائفاً مني. في هذه الحال يحسن أن أُطمئنه. ليته يقترب من الشاطىء. ليت صداقة تنشأ بيننا.

سرت بين الصخور، باتجاه الميناء. كانت يداي ممتلئتين بالأصداف، عليّ أن أتظاهر بجمعها. حين أصبح في نقطة بعيدة، أغادر الشاطىء وأنحرف في سيري باتجاهه. هكذا يصبح مروري بجانبه طبيعياً. أسأله ما إذا كانت في هذه البقعة أصداف أكبر. أطلب منه أن يجمعها لي مقابل ثمنها. إذا وافق تكون الخطّة قد نجحت. أَدَعَهُ يتكلّم قليلاً. هذا الصنف يكون صموتاً عادة. الأفضل أن أصبر عليه. يكفي، اليوم، أن أكلّمه قليلا، أن أسأله عن اسمه مثلا. أقول له إنني أقطن قرب المعصرة، وفي ضوء ردّة فعله أتصرّف.

مشيت على حافة الماء. تابعت جمع الأصداف. وحين ارتقيت صخرة، لأقوم بالانعطاف نحوه. لم أجده في مكانه. كان قد اختفى. وقفت محبطا. تساءلت: هل لاحظ حركتي؟ هل شكّ في أمري؟ اذا كان هو الذي حصبني، فمن المرجّح أنّ يكون اشتبه في أني أراقبه. في

هذه الحال لن يظهر على الشاطىء ثانية. ربما عاد الى الكهف. أنا لن أستطيع الدخول وراءه. ماذا لو كان طعمًا لاصطيادي؟ يستجرّني الى الكهف، وهناك أقع في الفخ المنصوب. هذا الصبيّ ليس وحده. ثمة عصابة هنا. قد يكون مهرّباً، قوّاداً، لصّاً صغيراً يعمل لحساب من هم أكبر منه. يا للشيطان إنه أشدّ دهاء مما قدّرت.

وضعت الاصداف على الصخرة التي أقف عليها. أشعلت سيكارة وحاولت أن أُبعد هذا الصبيّ اللغز عن تفكيري. رغبت، صادقاً، أن أنساه، فقد يكون خيالي الفتيّ، الناشط، هو الذي يصوّر لي غرابة هذا الموقف كلّه. لكنّ الصبي ظهر بين الصخور ثانية. أبصرت رأسه، بشعره المكزبر، أولاً، ثم جسمه كله، تيقّنت أنه هو ورصدت حركته في مكاني، فإذا هو يتّجه إلى الميناء، من وراء المنارة التي تقوم على كتفها الشمالي. لم أُطق صبراً. قرّرت أن ألحقه. أدخل المنارة وراءه. إذا مضى نحو الميناء فقد أعرف عند من يعمل. سيكون ذلك سهلاً، ما دامت الميناء خالية من الناس في يوم العطلة هذا.

قفزت فوق الصخور عدواً، قلت أختصر المسافة بيني وبينه. من حسن حظّي أنه لم يلتفت الى وراء. لم يشاهدني أقتفي أثره. ظلّ يمشي في ذلك الدرب غير المطروق، ميمّمًا المنارة، وهو يعلو الصخور تارة، وينحدر بينها أخرى، وأنا أجهد ألاّ يغيب عني، ولا يضيع أثره مني.

حين بلغ المنارة انعطف. اختبأت كيلا يراني إذا حاول الالتفات الى وراء. عندما تأكدت أنه دخل المنارة هرولت وراءه. هذه المرة لن أدعه يفلت، قلت في نفسي، أدخل وراءه وأرى ماذا يفعل هناك. ذلك أنني أعرف أن المنارة فارغة. فهي جزء من الميناء، وليس لها

حارس خاص، ولا غرفة ينام فيها. إنها تعمل على الكهرباء، ولا حاجة بها إلى من يُعنى بأمرها، ويعمّر مصباحها.

دلفت الى المنارة مندفعاً. كنت واثقاً أنه هناك. فقد أرسلت بصري باتجاه الميناء، وعاينت المنطقة جيداً قبل أن أدخل، فلم أجده في أي مكان، ولم يكن له وجود في الميناء، ولا هو سار باتجاهها. اللعنة! كانت المنارة، كعهدها مهجورة. ليس ثمة أحد، ولا أثر للصبي الأسود، الذي كان يُحسّ، من غير شك، أنني أتبعه، وقد ضلّلني واختفى، فهو يعرف مسارب هذه البقعة جيداً، ويستطيع عبورها، والاختفاء فيها، في أي وقت من ليل أو نهار.

مكثت في المنارة حيناً وأنا أفكر. أطللت من فوق جدرانها ونظرت الى البحر، تفرّست بين الصخور. عدت الى الداخل ونقّبت. عبثاً! اختفى الصبي كأنما بلعته الارض. قلت في نفسي: أنتظر قليلاً، فلا بدّ أن يظهر. أنا على يقين أنه في المنارة أو حولها، ومهما يحاول الاختباء فلا بدّ أن يبين، خاصةً وأن الكهوف أصبحت بعيدة، ومن غير المعقول أن يتسلّل اليها دون أن أراه، ومستحيل أن يكون هناك نفق بينها وبين المنارة.

دخّنت ثلاث سيكارات متتابعة بحركة عصبية. أثارني اختفاء الصبيّ الأسود على هذا النحو الغامض. صار فوق طاقتي أن أقلع عن مطاردته. غدا قضيّة بالنسبة اليّ. شتمته في ذاتي. أقسمت أن أعثر عليه وأعرف سرّه. لكن مرور الوقت أوهن عزيمتي، فأنا، داخل هذه المنارة، في وضع مشبوه، وإذا جاء الحارس وسألني ماذا أفعل، لن أستطيع التملّص بسهولة. فهناك على الباب، لوحة تقول «ممنوع الدخول»، ومن المضحك أن أزعم أنني أتنزّه، فليست المنارة مكاناً للنزهة على كل حال.

عدت أدراجي الى حيث تركت أصدافي فوق الصخرة. يئست من العثور عليه في وقفتي تلك. جعلت أدندن أغنية ترويحاً عن النفس. لكن البحر، بكل قواربه وزوارقه وطيوره، ما عاد مسلّياً ولا ممتعاً، ظلّ ذهني مشغولاًبضالّتي. أزمعت أن أخفي ما حدث لي اليوم عن أمّي. لن أشغل فكرها بأمر كهذا. لن أُشركها بموضوع لا علاقة لها به. لو علمت العائلة لارتاعت. تتأكد ظنون الأم أن المنطقة التي نسكنها خَطِرة، وأن ما تسمعه من أصوات وحركات في الليل ليست أوهاما. وفي هذه الحال فلن تسمح لي بالخروج، ستغلق الباب منذ المساء وتضطرني الى النوم في وقت مبكر، بينما قررت أنا أن أخرج، وأن أصعد الى السطح، وأرقب ما يجري في الكهوف، وأرصد حركات الصبي الأسود رصداً دقيقاً.

أمضيت بعد الظهر في المدينة. كان التجوال فيها، دون عمل، دون هدف، للفرجة والاطلاع فقط، أمراً يلذّ لي. فهذه المدينة البحرية الصغيرة، لها كل طابع الميناء، وهي مضمومة جيداً، بشوارعها وطرقها وأحيائها، وكل ما فيها مريح، بخلاف مرسين. ناسها لطفاء، وكل ما فيها يبعث في الإنسان شعوراً بحرياً خالصاً، ومن عجب أنني لم أشاهد فيها بحّارة أجانب، ولم يكن في الميناء أيما خمارة لاستقبال أمثال هؤلاء البحّارة.

كانت مثل هذه الجولات تشبع نهمي الى رؤية الأشياءالجديدة عليّ، فالاكتشاف يُولد في نفسي راحة ورغبة، راحة لأن الجديد يلبّي حاجة روحية إلى المجهول، ورغبة لأن حكايات البحر تربيّ الخيال على طلب هذا الجديد بصورة دائمة. وكانت تفتنني من المدينة أسماء شوارعها المستمدّة من الزهر والثمر. شارع البيلسان، زقاق العنابة، حي الخرنوبة، حارة الجميزة، وكنت أوغل في الأحياء القديمة: الصليبة والشحادين والقلعة والعوينة، وأمرّ تحت قناطر وعقود لم أكن

قد شاهدتها في اسكندرونة، مما يدلّ على قدم اللاذقية ووفرة الآثار فيها. كانت النساء محجّبات، وأكثر النوافذ ذات ستائر خشبيّة مقطّعة من الخارج ولا يستطيع الغريب أن يمدّ بصره إلى داخل الدور، لأنها مغلقة ومنطوية على أسرارها.

هذا التجوال استغرقني الى وقت العشاء. سمعت الأذان وأنا في طريقي الى البيت. وقد زاد صحو الطقس من جمال الليلة المقمرة، فلما صرت في الميناء خطر لي أن أصعد الى السطح، وأشاهد من هناك الكهوف والأبنية وفجوات الشاطىء في ضوء القمر. تهيّأ لي أنني سأكتشف جديداً اذا ما فعلت ذلك، ولم أتمكن من مقاومة هذا الهاجس، فجئت البيت من وراء، وصعدت الى سطح الكهف، ووقفت ثمة مدهوشاً من المنظر الذي انكشف لي.

أجمل ما في الميناء يتجلّى لك في الليل، آلاف المصابيح، من عشرات السفن والمراكب، تسطع وتنعكس في الماء، وهدير المحركات الرتيب، وحركة الموج الكسول، في اصطفاقه على جوانب المراكب، هل سمعت يوماً موسيقى هذا الاصطفاق؟ هل رأيت الميناء في الليل؟ هل جلست في مقهى يطلّ على الميناء، وحاولت أن ترسم في ذهنك ترجرج الأضواء المغموسة بمياه البحر الزرقاء؟ القمر جميل دائماً. القمر أجمل فوق الميناء، في ليالي الربيع والصيف. القمر رغيف أبيض، يعرفه البحّارة ويشتهونه خلال الشدائد، حين يتمسكون بأخشاب تحطمت وانفصلت عن مركبهم الذي ابتلعته الهاوية. لكن هذا القمر، فوق الميناء، كوّة سماوية يندفع منها شلال حليبيّ، يغمر المصابيح ويجعل لونها ماسيّاً أخّاذاً، لا سبيل الى مقاومة إغرائه.

وقفتي على السطح، أتاحت لي أن أتملّى جمالات أعطت لمنطقة الميناء بهاء خاصاً، ممزوجاً بتلك الرهبة من طيوف ليلية تبدو كأشباح، وهي تجوس بين الأبنية والكهوف، مخلّفة وراءها رؤى غير حقيقية

وحقيقية في وقت واحد، رؤى تتشكّل من عتم الليل وضياء القمر، مغلّفة بدبيب له صدى، محاطة بهمس صامت، تسمعه بحواسك لا أذنيك.

فجأة لاح في أحد النوافذ القريبة رأس الصبي الأسود. كان الضوء القويّ المنبعث من الداخل يكشف الرأس تماماً لنظري، غير أن تقاطيع الوجه كانت غائبة. وقف الصبي قبالتي تماماً. كان ثابتاً شأنه على الشاطىء في الصباح. وكنت أنظر اليه بتحديق مستقيم. كانت نظراتي، لفرط ما فيها من قوة صادرة عن كياني كله، تخترق رأسه، وكانت عيوننا تتلاقى. إنه هو بغير شك. وهو يراني ويعرفني، فأنا في المكان الذي كنت أستلقي فيه قبل الظهر على البساط البيتيّ. وإذا كنت، في ضوء القمر، أبدو زوالاً لا أكثر، فإن هذا الزوال يرسم قامتي كلّها، ولا بدّ أن يكون الصبيّ قد عرفني من تقاطيع جسمي العملاق التي لا تخفى عليه. قررت أن أبقى ثابتاً في مكاني، أن أنظر اليه بتحدّ ولو أدّى ذلك الى تعريضي للخطر، فالتمويه لم يعد ممكناً، لا منه ولا مني، وقد أدرك أنني أترصّده وألاحقه، كما أدركت أنه يقصدني ويطلبني.

بعد قليل، وكأنما في حلم، غاب المشهد كلّه. أُطفىء الضوء فغمرت الظلمة النافذة. كان ضوء القمر ينسكب على البناء بشكل مائل، بحيث تأتي النافذة في الظلّ، فلم أعد أميّز فيها شيئاً، وإن كنت على شبه يقين أن الصبيّ ما زال فيها، وأنه يتابعني من حيث هو.

ارتعش جسمي بفعل تيّار بارد انتظمه. كنت ألبس قميصاً دون كنزة أو جاكيت. وكان الجو، في وقت الربيع المبكر هذا، يغدو بارداً، رطباً، لقربنا من الشاطىء، ولعلّ ما طرأ على الموقف هو الذي تسبّب في الارتعاشة، أو أشعرني بها، لكنني أصررت على التشبّث بمكاني،

وتركيز انتباهي على البناية التي رأيت الصبيّ الأسود في نافذتها، وهي تقع فوق الكهف تماماً.

وفيما أنا منصرف الى مراقبة النافذة، غافل عما حولي، سقطت حصاة على السطح بقربي. عندئذ أيقنت أنني المقصود تماماً، كدت أصرخ: «من هناك؟ ومن الذي يلقي الحصى على هذا الشكل؟» بل كدت أنادي الصبي الأسود اللعين أن يخرج ويقابلني، أن يقول من هو وماذا يريد. أن يكفّ عن لعبته السخيفة ومزاحه السمج، لولا أن خيالاً تحرّك على البعد، واضحاً وضوحاً كاملاً في ضوء القمر، وعلى مقربة من النافذة، ثم سار ببطء، وانحدر عن سطح أحد الكهوف باتجاه البحر.

تكشّفت اللعبة تماما، أو هكذا تصورت. الصبي نفسه يقوم بحركة استجرار. يغريني بملاحقته الى الشاطىء المقفر، وهناك، بين الصخور، ينقض علي الذين معه، فيكمّمون فمي ويفعلون بي ما يشاءون، إنهم يتآمرون لقتلي، ولسوف يجرّدونني من ثيابي ويغرقونني في البحر، فيصبح موتي غرقاً حادثاً طبيعياً، جزاء صعودي الى سطح الكهف، وتلصّصي على نساء البيوت كما ظنّوا.

تردّدت في اللحاق بالصبيّ الأسود. كنت أعزل تماماً، ولم يكن في بيتنا مدية أو عصا أدافع بهما عن نفسي، إذا تعـرّضت لهجوم مباغت. الميتة على هذا الشكل، مجانية لا فائدة منها ولا رجولة فيها. المغامرة أقرب الى الطيش، فالشجاعة، في مواجهة الغدر، لن تُثمر الا ضياعي. والدي كان يتحدّى الخطر ويواجهه، لكنه يفعل ذلك وجهاً لوجه. يعرف أعداءه وخصومه. يعرف أين ينازلهم ويضربهم. يفعل ذلك لإثبات رجولته، في سبيل قضية تتعلّق بالميناء والبحر، وليس لأجل أمر مجهول، يتعلّق بسبب تافه، هو صعـودي الى السطح، وتعرية جذعي لشمس الربيع. يكفي، قلت لنفسي، أن أُقلع عن

عادتي في التشمّس، وأن أهجر السطح، وحين تتحسّن الظروف أنتقل بعائلتي من منطقة الميناء كلها، حتى تنتهي هذه المهزلة.

اللعنة على الميناء! اللعنة على الميناء! ماء البحر فيها ليس أزرق. إنه خليط من ملح وزيت ودم. هنا وكر الجريمة والسرقة. هذا مرتع اللصوص والمجرمين. إنه بازاركبير لكل أنواع السمسرات والمؤامرات. أنذال، فتيان الميناء هؤلاء أنذال، من الذين قال إنهم شجعان؟ لا شجاعة هنا ولا فروسية ولا مروءة. لا يتعاملون بهذه القيم. فتيان الميناء الشرسون لا يعرفون القيم، لا يتعاملون بها. نسوها، تجرّدوا منها. أسماك قرش هم. يستثيرهم الحرام، والدم، والغشّ، والشذوذ. أكثرهم شاذّون. اللواط له سوق رائجة بينهم. هذا الفتى الاسود مخلب قط. خادم تافه. في المدينة يكون أمثاله في المدرسة، أما في الميناء، فإنهم لصوص صغار وقوّادون يأكلون رغيفهم على الوجهين.

فارت في داخلي رغبة في التصدّي. لعلّهم يجربونني. إذا تواريت عنهم فقد يطمعون بي. يظنّونني خائفاً. غداً يتحرّشون أكثر، ربما اعتدوا على البيت. هل يريدونني أن أغادر البيت؟ أنا لم أؤذ أحداً. لم أتسبّب في مشكلة مع أحد، وحين يتوفّر لي منزل أفضل فلن أُبقي عائلتي في هذا الكهف، وحتى يصير ذلك، عليّ أن أدافع عن نفسي، عن حقي في أن أصعد الى السطح أو أطوف في الميناء، وأن أتنزّه وأسهر وأعيش كما أريد، ودون ذلك سيطمعون بي ويهجّرونني.

نزلت عن السطح. لم أكن مستعجلاً. كان هناك قضيب حديدي قرب معصرة الزيت. بحثت عنه وعثرت عليه. تسلّحت بالقضيب وبشجاعتي. أعرف نفسي جيداً. أنا أبن صالح حزوم. في الميناء وُلدت وفيها سأعيش. لن يستطيع فتيان متسكّعون أن يزيحوني من هنا. أعرف الصخور أيضاً، وفي ضوء القمر، إذا لم يطلقوا عليّ

الرصاص، أقابل ثلاثة بمفردي. أنا أعرف أمثال هؤلاء الثعالب. خلقوا للسرقة والتهريب لا لمقابلة الرجال، ومن المؤكد أن الميناء قد ضاقت ذرعاً بهم.

هبطت الشاطىء، قرب الامبريال[1]، من فجوة في جدار الرصيف. مشيت في البقعة الرملية أحاذر أن أؤخذ غدراً. كان البحر ساكناً وادعاً، وكما انكشف لي من فوق السطح، كان مغموراً بضوء القمر، ومن كل اطراف الميناء تشعّ مصابيح تنعكس أضواؤها في الماء المتدافع باسترخاء نحو الشاطىء، ومن بعيد يأتي صوت ارتطامه بالصخور، ولا شيء غير ذلك يعكر سكينة الليل الساجي.

بعد قليل علت صافرة إحدى البواخر. العمل متواصل فيها برغم عطلة الجمعة. المرفأ يزدحم بالبضائع وأكياس الحبوب وبالات القطن. ثمة عصابات صغيرة تتسترّ بالظلمة وتقوم بالتهريب والسرقة. القوارب الصغيرة التي تتجوّل حول البواخر تباشر التهريب. بعضهم يدفع بماسورات تنكية في أكياس الحبوب ويسحب منها ما استطاع، وفي آخر الليل، تتجمّع كل تلك المنهوبات في الكهوف. وهذا الصبي الأسود فرد في عصابة من هذه العصابات. ربما كان مكلّفاً بحراسة المسروقات. إنه يرصد دوريات الجمارك والشرطة، وقد يكون حسبني جمركياً أو شرطياً. في هذه الحال هو المطارَد لا أنا. مهما يكن فقد نزلت الشاطىء، وسأصفّي حسابي معه.

أنعشتني نسمات بحرية رهوة وعذبة. شرع غضبي ينطفىء. اقتربت من الماء حتى كدت أبلّل قدمي. سرت على الشاطىء باتجاه البطرنة. عدت أدراجي باتجاه الميناء. ارتقيت الصخور وتطلّعت باتجاه الأبنية، وفي ضوء القمر، لاح لي شبح الصبي في المكان الذي رأيته

---

(١) شركة لتصدير التبغ المدخون.

فيه صباحاً. إنه يراقبني، قلت في نفسي. تلبّثت في موضعي أفكر بما ينبغي أن أفعل. أخيراً التقطت حجراً وقذفت به نحوه، فلم يتحرّك. ظل واقفاً، قبالتي، كأنه يستثيرني الى متابعةقذفه بالحجارة.

تقدّمت باتجاهه غير مبالٍ بالخطر. كل ما فعلته أنني شددت قبضتي على القضيب الحديدي، واستعددت، نفسيّاً وجسدياً، للمعركة التي تنتظرني. لكن الصبيّ استدار، ما ان اقتربت منه، وانسلّ الى الكهف، وفي اللحظة نفسها سمعت هسيساً صادراً عن مكان قريب منه، في فجوة بين الصخور. صحت بصوت قوي، خرج من صدري كالفحيح:

ــ من هناك؟

ــ لا تصرخ، (جاءني صوت نسوي)، هل أنت خائف؟

أذهلتني المفاجأة. كان الصوت صادراً عن تلك الفجوة الصخريّة التي عن يميني. إنه صوت امرأة، وهذا خيالها الأسود يلوح جليّاً، وليس في البقعة التي نقف فيها سوانا.

ــ من أنت؟ (صحت بصوت أقرب الى الهمس).

ــ ولماذا تقف بعيداً؟ اقترب..

تردّدت قليلا. لم تكن الدهشة قد زايلتني. امرأة؟ وماذا تفعل هنا؟ أي فخّ نُصب لي؟ وهذا الصبي الأسود الذي كان معها؟ أأكون مغفّلاً في انجراري وراءه؟ أتكون المرأة طعمًا، وأكون سمكة تعلق على الصنّارة بهذه السهولة؟

عادت تناديني:

ــ اقترب.. لا تخف.. لن يصيبك أذى.

ــ وماذا تفعلين هنا؟

ــ أشمّ هواء البحر. هذا مكاني المفضّل.

اقتربت؛ ألقيت تحية المساء، دون أن أخطو إلى الفجوة الصخرية التي تقف فيها.

ــ لماذا أنتِ هنا؟

ــ أنتظرك . .

ــتنتظرينني؟ كيف؟ أنا لا أعرفك . .

ــ سنتعارف . . قلت لك لا تخف . . لا أريد بك شراً . . تعال لنجلس قليلاً.

داخلني بعض الاطمئنان. غير أنني امتنعت عن الجلوس الى جانبها. جعلت، بشعور لا ارادي ، أتلفّت حولي ، باحثاً عن أثر لأيّما مخلوق، يكون قد اختبأ بين الصخور، ليفاجئني معها. وأدركتْ هي حذري ، وربما، بإحساس الانثى ، فهمته ، فقالت:

ــ اطمئنّ . . ما اسمك؟

ــ سعيد . .

ــ اطمئنّ يا سعيد . . أنا جارتكم . . كنت أراك من النافذة . . وأنا التي قذفتك بالحصى.

ــ وماذا تريدين؟

ــ لا شيء . . لنتعارف أولا . . اسمي عزيزة . .

غمغمت:

ــ أهلا وسهلاً بك . .

أضفت:

ــ أعذريني . . أنا لم أرك قبل الآن. لم أدر أنك كنت ترمينني بالحصى . . ظننت الصبي الأسود هو من فعل ذلك.

ــ هذا خادمي . .

ــ ولماذا لم يأت إلّي مباشرة؟

ــ أوصيته ألّا يفعل . . خفت العيون . . الليل أستر . . إنني أقصد هذه البقعة في الليل، فهي جميلة بقربها من البحر.

تقدّمت، مطمئناً، وجلست على مقربة منها، في تلك الفجوة التي تحجبنا عن الأنظار. وفي ضوء القمر، تفرّست فيها غير مصدّق، كأنماأنا في حلم، لقد استثارني جوّ اللقاء، في السرّية التي تمّ بها، وبعد قلق يوم كامل، قضيته وأنا ألاحق الصبي الأسود، دون أن يخطر لي أن مفاجأة كهذه تنتظرني.

سألتني:

ـ هل أنتم غرباء عن المدينة؟

ـ نعم.. نحن من اسكندرونة.

ـ حزرت ذلك.. قلت في نفسي إن وجوهكم غريبة. سمعت أصواتكم. أيقنت من لهجتكم أنكم لستم من أهل المدينة..

أضافت:

ـ هذا أفضل.. وبسببه، ربما، رغبت في التعرّف اليك.. (وبعد وقفة) على كلّ، حصل خير.. هل أنت خائف بعد؟

ـ كلا.. أنت جارة، والله أوصى بالجار.. إنما ذلك الصبيّ الأسود.. ألا تخافين أن يفشي السر؟

ـ لا.. قلت لكإنه خادمي، وهو أمين.. وتستطيع الاطمئنان إليه.

ـ طيّب.. ليكن ما تريدين.. من جهتي لن أبوح بالسرّ.. ثقي بي، ولو أن مثل هذه الثقة تحتاج إلى برهان، والوقت باكر عليها بعد.

ـ أنا لا أثق بالرجال..

قالتها وابتسمت تحت خمارها الاسود.

ـ الرجال ليسواصنفاً واحداً.

ـ كلهم سواء..

ـ من أين لك هذه الخبرة؟

ـ هذه خبرة كل امرأة..

ـ أنت صغيرة بعد.. ولم تعرفي الناس كفاية.

ـ عرفت زوجي على الأقل.

ـ ألا يعاملك كما يجب؟.

ـ بلى! ولكن ما الفائدة؟ حين يكون فارق العمر كبيراً بين الزوجين، تصبح كل معاملة طيّبة لا معنى لها..

ـ من هو الأكبر فيكما؟

ـ أنا طبعاً!

قالتها وضحكت.

ـ زوجي صغير السنّ، مثل ابني تقريباً. هذا هو السبب في أنك تراني هنا (وبعد تنهدة) آه منكم أنتم الرجال، تظنّون أن اللقمة والفستان كافيان للمرأة.. ما أغباكم! عفواً.. أنا أتكلم عن زوجي. أنت غريب عنيّ، ولم أعرف خيرك من شرّك بعد.

ـ الآن لم أعد غريباً. لقد تعارفنا.. ثقي بي واعتمدي علي..

ـ بماذا؟

ـ بهذا السرّ الذي بيننا..

ـ قلت لك إنني لا أثق بالرجال ولا أعتمد عليهم.. كل رجل يقول ما تقوله. في البدء يظهر الطيبة والنبل والكرم، وكل الصفات الطيبة، فإذا أحبّته المرأة، ووثقت به، وأسلمته نفسها، استغلّ حبّها وثقتها وضعفها، وفي أول فرصة، حين يشبع منها، أو حين تلوح له امرأة غيرها، يدير ظهره ويمشي. يبلع كل عهوده ووعوده. تظهر الشياطين من تحت أظافره، تضيع توسّلات المرأة ودموعها.. تصبح خرقة عتيقة لديه.. أليس كذلك؟

لذت بالصمت. ما تقوله صحيح. رأي أمي في الرجال مماثل، كذلك أسمعها تتحدّث عنهم أمام أختي. أنا لا أعرف كيف يتصرّف الرجال مع النساءبدقّة. تجربتي صغيرة، لكن الرجال أنفسهم، حين نجتمع في الميناء، أو حين كنّا في السجن، كانوا يتحدّثون عن المرأة

بكلام سوقي قبيح يقولون: ما عدا العرض، أي ما عدا نساء الرجال المتكلمين، كل امرأة عاهرة. كنت أعجب لهذا الاستثناء. فالرجل يظن أن المرأة من أهله وقريباته أشرف النساء، وما سواها ساقطة. وبسبب من هذه النظرة القاصرة، كان كل رجل لا يرى في المرأة سوى جسد، وسوى أداة لإشباع رغباته المحرومة، ثم لا فضل ولا اعتبار. ماذا أقول لعزيزة؟ أنا أختلف عن الآخرين؟ هذه قلتها فما صدّقتها. أنا نفسي لا أصدقها. لم أجرب بعد. أطمح الى أن أكون رجلاً جيداً، شريفاً، ولكن من يدري.. والدي ايضا قال هذا الكلام لأمي، ثم أحبّ عليها كاترين الحلوة.. ومع كل حبّه لها كان مستعدّاً، ربما أن يحب أخرى، لكنه لم يغفر لها، وهو في السجن، أن تحبّ سواه.. زعم أن الذين أحبّتهم من الأتراك، وهو كعربي، لا يغفر لها ذلك، ومن أجل ذلك طردها ورحّلها عن مرسين.

عادت عزيزة الى الكلام فقالت:

ــ بماذا تفكر؟

ــ بما سمعته منك.

ــ هل تقرّني عليه؟

ــ لا..

ــ لماذا؟

ــ لأنني لا أريد أن أتّهم نفسي..

ــ ولا أنا اتّهمك.. لو اتّهمت كل امرأة كل رجل لما كان حب ولما قامت علاقة بين اثنين.

ــ لا تقيسي كل الرجال على زوجك.

ــ قلت لك.. إن زوجي طيب.. أنا لا أقول إنه سيّء.. هو نفسه يظنّ كل الفضائل في شخصه.. وإذا كان كبيراً وأنا صغيرة، فالفارق في العمر لا يشكل سبباً للسوء في نظره.

ــ وكم يكبرك؟
ــ أربعين سنة. .
ــ جريمة. .
ــ كغيرها. . الجرائم كثيرة. . لو أحصيت عدد الشيوخ الذين تزوّجوا فتيات صغيرات، لعلمت أن زوجي كغيره، ليس شاذّاً أبداً.

ــ وكيف وافقت على الزواج منه؟
ــ أنا لم أوافق. . ولكن ما قيمة ذلك؟ والدي وافق وهذا هو المهمّ. أنا من عائلة فقيرة وزوجي غنّي. . المال يشتري كل شيء.
وأضافت وهي تبتسم:
ــ هل تريد أن تعرف كل شيء عني من اللقاء الأول؟ لنترك هذا الموضوع. . ماذا تعمل؟
ــ في البحر. .
ــ تسافر؟
ــ لا أسافر في الوقت الحاضر. . أعمل على زورق الميناء.
ــ الحمد لله. .
ــ على ماذا؟
ــ على أنك لست بحّاراً. . أشقى حياة هي حياة نساء البحّارة. . هكذا تقول صديقتي، وهي امرأة بحّار.

تذكرت أمّي. . هي أيضاً كانت تكره البحر. رجتني ألّا أكون بحّاراً. كانت تعتبر البحر عدوّها. وقد تأكّدت عداوته لها. . سلبها زوجها في النهاية. خوفها كان في محله. . في وجود والدي معنا كان الفراق يعذّبها. وفي غيابه عنا غدا الانتظار يعذّبها. وقد تعذّبت كلّ حياتها، المسكينة.

مدّت عزيزة يدها وأخذت كفّي بين كفّيها. أحسست بارتعاشة في كل بدني. كانت كفّاها دافئتين، كانتا رخصتين،

لذيذتين، شملتني سعادة غامرة. شعرت بضوء القمر ينفذ الى داخلي. يدخل عينيّ وفمي وصدري. كان قريباً من تمامه. مستديراً ساطعاً، جليلاً، وكان يرنو الينا. كان يرانا، كان يحدّق فينا، تمنّيت، تلك اللحظة أن يغيب. خفت منه، غرت منه. حسدته لأنه بعيد، وعالٍ، ولايبالي بالناس. لأول مرة، في حياتي، خشيت الناس. كنت أريد أن أبقى أنا وهي، وحيدين، جالسين جنباً الى جنب، اليد في اليد، والعين في العين، بغير كلام، لافائدة من الكلام. الصمت ولاشيء غيره. السكينة التي تعمّ الكون. الزمن الذي ينسانا. ساعة السراي التي تتوقّف ولاتدق، تذكّرنا أن الليل يمضي، وأن علينا أن نفترق.

هل هذا هو الحب؟ وهل يبدأ فجأة كما بدأ؟ ولماذا يخفق قلبي، ويجفّ لساني؟ عزيزة! ياعزيزة! يا عزيزتي! من أرسلك الي؟ أية فرحة صنعتها لي اليوم؟ هلْ كتب علي أن آتي من بعيد، من اسكندرونة، وأن أسكن الميناء، كي التقي بك وأراك؟ أنا كنت أعمى. لم أنظر الى نافذتك يوماً. لم أحسّ بك يوما. كل ما شعرت به هو الرغبة، هو الحنين، دون أن أعرف لمن، ودون أن أدري أنك هناك، في علّيتك، تنظرين الّي، وتدبّرين كي نلتقي. الصبي الاسود لم يعد أسود. ما كان مخلب قط. ما كان فرداً في عصابة. كان رسولها الي، وكنت أجهل أنه رسولها الي، لذلك حقدت عليه، وشتمته. كنت مغفّلاً كبيراً. لا أعرف من المرأة سوى أنها وسيلة لإرواء العطش الجنسي، لإشباع تلك الحاجة التي بدأت تفترسني.

من جديد استأنفت عزيزة الكلام قائلة:

ــ أراك شارداً.. وبماذا تفكر؟

انتبهت.

ــ لاشيء، لاشيء.. أنا سعيد، سعيد جدا.. أكثر مما تتصورين.. لكنني لا أعرف ماذا أقول..

ـ آن الأوان ان نفترق.. لا أستطيع البقاء أكثر.. لاتخرج الى السطح وتتعرّى.. أخشى أن يراك زوجي أو أحد من الجيران.

ـ وكيف نلتقي؟

ـ سنتدبر أمرنا.. اكتم السرّ.. لا تتحدث إلى احد بما وقع لك..

ـ لن أفتح فمي بكلمة.. ولكنني أريد أن أراك.. يا ربيّ أنا لم أرك.. لا أعرف وجهك ولا شكلك الا كخيال.. ضوء القمر هذا لايكفي.. ما لون شعرك؟

ضحكت بهناءة وقالت:

ـ كفى، كفى، غداً تشبع منيّ وتملّني.. لاثقة لي بالرجال أبداً.. إبق مكانك ريثما أنهض وأدخل البيت.. الصبي ينتظرني في القبو.. ولايجوز أن أتأخر أكثر..

لم أنم تلك الليلة إلا قليلا. الفرحة الطاغية استبدّت بأعصابي وأيقظتها. وقائع ما جرى، بكل تفصيلاتها، بكل جزئياتها، انبعثت في ذهني. مارست علي سلطانا غريباً. أنا الذي استدعيتها في البدء. استعرضتها بكثير من اللذة، تذوّقتها بكلّ حواسي. تركت لنفسي أن تستأثر بها. عشت تلك الوقائع ثانية. وحين تعبت، وطلبت النوم، تمنّع علي. ظلّت صور اللقاء تتراءى وسط الظلمة، وكان صوت عزيزة يتردد في أذني، وضحكتها تهيج خيالي، واللقاءات المنتظرة، وما عُدت به من متع خلالها، تفتح مسارب في جسدي، صارخة بالشبق الجاري فيها.

كانت هذه تجربتي الأولى في الحبّ، وكانت هذه التجربة رأسا مع امرأة. الزمن لم يتح لي، بسبب الاضطراب والسجن، أن أعيش حياة مستقرة. ناعمة، تتوفر فيها العلاقات الطبيعية مع الجيران، ويتاح لي من خلالها أن أحبّ أيّ فتاة. حدثت محاولة أثناء دراستي.

كنا نذهب الى مدرسة البنات ونقف أمامها، وكانت هناك فتاة استهوتني، ولأجلها كنت أبكر في الصباح، وفي الظهر، وأتأخر في المساء، منتظراً أمام مدرستها، عليّ ألفتها إلّي، وأبادلها ولو نظرة عابرة، ويصير بيننا حديث، لكن هذا الولع الصبياني ظلّ من طرف واحد، وانقطع بعد تركي المدرسة، وعملي في الميناء.

من أجل ذلك كانت عزيزة الأنثى الوحيدة في حياتي. بقيت زمناً طويلاً أظنها الأولى والأخيرة في حياتي، وأتعامل معها كفتى يحبّ فتاة حبّاً عذرياً مجنوناً، فاذا رأيتها التهبت، واذا مسّت يدي يدها تكهربت، وعندما قبّلتها أول مرة، خيل إلّي أن ناراً من الوجد تشتعل في جسمي كله. وكانت هي تضحك، تحبّ ذلك مني وتضحك. تدرك أنني غرّ، لاتجربة سابقة لي، وأنني طفل كبير، بجسم عملاق، وعاطفة بدائية ؛ لم تعرف مثلها هي أيضا، لأن زوجها كان عجوزاً، وكان متزوّجاً غيرها، وكانت تجارته تُبعده عنها، فهو يعاملها بشعور من الانتصار، وكأنها صفقة فاز بها. ولقد غامرت بالاتصال بي، واندفعت في ذلك الى درجة خفت معها عليها، لكن تطلّعها الى حياة ملونة، فيها حب، وعاطفة، ومغامرة، جعلتها تنسى كل المخاطر، ولاتبالي بتحذيراتي من سوء العاقبة.

بعد اللقاء الأول، عشت شبه محموم لبضعة أيام. استولت عزيزة على كل تفكيري. شغلتني عما حولي. بدوت شارداً بشكل لاحظه الآخرون، في البيت والميناء. كنت أقود الزورق بغير انتباه، بحكم العادة، فما أن أعود الى الرصيف، أو اتجه قاطراً الماعونة الى عرض البحر، حتى تستأثر تموّجات المياه الزرقاء بحواسّي، وعلى صفحتها ترتسم صورة عزيزة، في الوضع الذي رأيتها عليه، بالصوت الذي كلّمتني به، بالضحكة الرنانة التي أطلقتها قربي، فأروح ألوم نفسي لأنني تصرّفت بغباء، وأكثرت من الصفن، ولم أقل كذا او

كذا، ولم اسأل هذا السؤال او ذاك. ولم أتملّ وجهها جيّداً في ضوء القمر.

وبرغم تحذيرها غامرت وخرجت الى السطح. قلت في نفسي أراها في النافذة. ألفت نظرها إلّي وأذكّرها بـي، فتستعجل اللقـاء الثاني. لم أعد أبرح البيت، ولامنطقة المعصرة، ورحت أمشي في الطريق المؤدي الى الميناء، ذهاباً وإياباً، أو أنزل الشاطىء، مع أن الجو الربيعي القلّب، سرعان ما اكفهرّ، ولم يعد ملائمًا للنزهة على الصخور. ومن عجب أن الصبيّ الأسود اختفى ايضاً، ولم أقع له على أثر طوال ايام. حتى خيّل إلّي أنهّا لن تطلّ أبداً، ولن تلتقي بي، وأنّ ما حدث كان نزوة، كان عبثاً طائشاً، انتهى في وقته، وأقلعتْ عنه صاحبته بعد أن فكّرت بالمصير الذي يقود اليه.

ومع أني كنت أكره الهواجس الكثيرة التي تلمّ بأمي، وتجعلها تقلق، وتتوهّم أشياء لاوجود لها، فقد صرت، أنا الآخر، أهجس في أمر عزيزة، وأتصوّر أوهاما مضحكة، من بينها أن يكون زوجها، تلك الليلة، قد عاد باكراً الى البيت، واكتشف غيابها عنه، أو أن أحداً رآنا فوشى بنا، أو أن كلمة أفلتت من الصبيّ فأوقعتنا في ورطة، وأن عزيزة لن تتمكن بعد الآن من الخروج من البيت واللقاء بي على أية صورة.

ولشدّة اشتياقي، واللجاج الذي تملّكني الى رؤ يتها، فكّرت أن أدخل الكهف، وأتعرّف الى طريق بيتها، وأترَّبص بخروجهـا، أو خروج الصبيّ الأسود، أو أدق البـاب متحجّجاً بمـا لا أدري من حجج، لكنّ افتضاح أمري، إذا ما قمت بحركة هوجاء كهذه، كان يردعني عن الإقدام على اقتحام البيت عليهـا، فتنتهي الأشياء إلى كارثة.

فجأة، بعد أسبوع، رأيت الصبي الأسود. كـان يقف أمام

الباب، فلما رآني سار باتجاه الميناء، تبعته عن بعد. أدركت أنه الرسول، وأن الإشارة منه ستأتي، وعلي أن أتبعه جيداً، ولا أدعه يغيب عن نظري. إلا أن الصبي، الذي يتحـرّك كزئبق، ويدور ويلفّ، ضاع مني في الزحمة، فاضطررت الى البحث عنه، والى التجوال في الميناء، بغير تردد ولا حذر، حتى رأيته قرب المنارة، وحتى تبعته من جديد، حين سار أمامي منحدراً على الشاطىء الصخري، ثم دخل الكهف، وغاب، دون أن يبدو ثانية.

قررت المكوث حيث أنا. قلت في نفسي إن يكن مرسلاً من قبلها فلابدّ أن يكون اللقاء في الفجوة الصخرية التي التقينا عندها سابقاً، وإلّا لماذا دار بي هذه الدورة الواسعة، ونزل الى الشاطىء، ثم دخل البيت من الكهف، عبر بابه المواجه للبحر؟ هو يعلم الآن أين أنا، ولابدّ أنه أبلغها، وعندما يتسنىّ لها ستخرج إلّي، أو تبعث به لاستدعائي، يكفي أن يغادر البيت حتى أتبعه من جديد، وهكذا أصل الى موضع اللقاء، وأرتّب معها، برويّة، خطة لقاءاتنا المقبلة، وبذلك نستغني عن الواسطة، ونأمن شرّ العيون، ونبعد الصبي الأسود الذي بقيت على خوفي القديم أن يبوح بسرنا، بفعل ترهيب أو ترغيب، يوجّهها الزوج اليه.

اللهفة التي عشتها، خلال انتظاري، افترستني، لم أقْوَ على امتلاك أعصابي. أنياب القلق نهشتني نهشاً. كان الرجاء واليأس يتناوبان. ألّا أراها، ذلك المساء، معناه ألّا أنام أبداً. , برّح بي شوق طاغ. الاختلاء بها كان يعدل عندي الدنيا وما فيها. أحسست أنني عاجز عن مغادرة الشاطىء ولو بقيت مسمّراً عليه الى منتصف الليل. وكنت أتساءل، برجاء ودعاء، عن مصيري هذه الليلة، وهل ألقاها أم أعود خائباً الى البيت؟ وكلّما تصرّم الوقت، كان الأمل بلقائها يتضاءل. محال، أقول لنفسي، أن تجتمع بي في هذا الجوّ المكفهر،

لأنه محال أن تتذرّع كي تخرج من بيتها. أمام هذا الجزم اليائس، كنت أُصاب بالإحباط، تسودّ الدنيا في وجهي، أتألم بصمت كأن الحياة فقدت معناها في نظري، ثم لا ألبث أن أستعيد الأمل، دافعاً يأسي بكل طاقتي المعنوية، وعندئذ أقول إنها لم ترسل الصبيّ عبثاً. وقوفه أمام الباب كان مقصوداً، مسيره عندما رآني كان متعمّداً. لقد دار بي حول الميناء. واستجرّني الى هنا لغاية واحدة: أن أفهم أنها ستلقاني. الصبر إذاً. امتلاك رباطة الجأش والانتظار. البقاء على الشاطىء والتظاهر أنني أتفرّج على هذا الجزء من الميناء.

ساعات الانتظار تلك، كانت تعدل أيام السجن كلّها. هناك كان أمري مقضيّاً. كنت محكوما وأعرف أنني محكوم. لم أكن أتوقّع جديداً، ولا حدثاً مفاجئاً. كنت أجهل الحبّ، وهذا الجوع الجنسي لم يكن شديداً إلى هذه الدرجة. قبل زيارة المبغى، كان الاتصال الجنسي حلمًا داعراً من أحلام اليقظة أو المنام. لم يكن نّهاشاً كما بعد الزيارة. ومع أنني خرجت من هناك متقزّزاً، فإن رؤية المرأة عارية، حتى بالشكل الذي رأيتها، واحتضانها، جعل الذكرى حريقاً في دمي. وقبل اللقاء بعزيزة لم أكن أعرف الحب، لم أعان الشوق، لم أمارس عذاب القلب، الآن اختلف الوضع. هوس مجنون يتسلّكني. رعدة تسري في بدني، كلّما تخيلت كيف كان لقاؤنا، وكيف اجتمعت بها، وأمسكت يدها، إنني لا أصلح للتجربة. ولا طاقة لي على المعاناة. ضعيف أنا الى حدّ لعين. أختلف عن والدي الذي كان قويّاً، مجرباً، جباراً، قادراً على ضبط أعصابه في كل الظروف. آه ما أتعسني، وما أشد وطأة الحب علي. إنه لذيذ إلى حدّ لايوصف، ومعذّب، معذّب الى حدّ لايوصف. الحب شيء غريب، يستولي عليك، يتغلغل في ذاتك، دون أن يكون لك عليه سلطان. ليس جرحاً في اليد، ولا رمداً في العين. أنت لاتعرف أين هو، وكيف دخل. وأنى يستقر، وهذا القلب الذي يختلج، كيف العمل لوقف اختلاجه؟

تناهبتني المشاعر المضنية. صرت رخواً كأنني لست أنا. عقلي ضد موقفي المتهافت هذا، وقلبي لايلوي على شيء مما يقوله عقلي. الصخر أفضل مني لانه لايحسّ. والنورس الذي يطير ويحطّ على وجه الماء، حراً، منشداً، مبتهجاً، يلقى أنثاه بلا حرج، بلا خوف، بلا انتظار قاتل مثلي. ما نهاية هذا العذاب؟ كيف ينتهي حبّ المحبين؟ هل يكون الزواج هو خاتمة المطاف؟ الفارس القادم على حصان أبيض، كما تقول الحكايات، يخطف حبيبته ويتزوّجها؟ عندئذ يكون كل يوم معها؟ لايفترق عنها؟ لايملّها وكيف، يا رب، يمكن أن يمل العاشق معشوقته؟ كيف يشبع منها؟ هل يذهب الى العمل ويَدَعها؟ ينام الليل وهو قربها؟ ألا يأكلها؟ لماذا لايؤكل الحبيب وينتهي عذاب المحب؟ أليس ثمة دواء للحب؟ لقد وجدوا لكل داء دواء، فلماذا لم يجدوا للحب دواء؟ يقولون إن الفراق يؤدّي الى النسيان، وهذا الى الشفاء من الحب، أنا لن افترق عنها ولن أنساها، لن أشفى من حبها أبداً.

الوقت يمضي وأنا مكاني. يئست. لن تخرج إليّ الليلة. محال أن تخرج إليّ الليلة. وإلاّ ماذا تنتظر؟ أن ينام زوجها؟ أن تنام المدينة؟ أن يصيح الديك؟ أيها السمك! يا سمك البحر! يقولون إنك تشهد على حال العاشقين. حسناً! اشهد على حالي. أنت تراني فاشهد على حالي. إضحك مني ماشئت، لكن لاتذهب الى والدي وتحدّثه عن وقفتي الذليلة هذه. دعه متوهمّاً أن ابنه، الذي من صلبه، الذي أراده بحاراً، أراده مناضلا، والذي نزل الى أعماق الباخرة الجانحة بحثاً عنه، وأخرج تلك الجثة الغريبة، وسُجن بسببها، ما يزال هو هو، الفتى الذي يعتزّ برجولته، ولايرخصها لأجل امرأة، ربما كانت الآن بين أحضان زوجها العجوز.

اعتزمت المسير. أيقظت إرادتي بقرع جميع الأجراس في بدني.

انهلتُ عليها تأنيباً وتعنيفاً حتى استفاقت. اليأس أوصلني إلى الراحة. لم يعد لديّ صبر. إذا كانت تلعب بي، حان للعبتها أن تتوقف. لست قادراً بعد على البقاء. لم يعد بقائي جاهزاً. إذا كانت تراقبني فستطمع بي. تعتقد أنني صرت طابة بيديها. صرت خرقة تمسح بها حذاءها. أنا لن أكون لعبة ولاممسحة. كفى... سأذهب في جولة عبر المدينة. سأهيم على وجهي في أزقتها، وعندما أهدأ أعود إلى البيت، ومن غد أغيرّ سلوكي. أدعها تعاني ما عانيت. تنتظر كما انتظرت. تتعذّب كما أتعذب. وحتى لو رأيت الصبيّ الأسود فلن أتبعه. سيقول لها إنني رأيته ولم أتبعه. ستعرف لماذا لم أتبعه. تعرف أنني رجل محبّ، لكن ليس الى الدرجة التي أخون فيها رجولتي في سبيل حبي.

مع ذلك لم اتحرّك من مكاني. لم تقتلعني الريح. لم تدفعني الإرادة. قلت في نفسي: دقائق أخرى وأمضي. مضت الدقائق فقلت: دقائق أخرى أيضاً. دقّت الساعة الحادية عشرة. خمس ساعات وأنا كمن يقف على رجل واحدة. تعبت رجلي. لو أنهم عاقبوني بوقفة كهذه لوجدتها عقوبة لاتحتمل. كنت أفضّل عليها السجن، الضرب، العراك، أفعل أي شيء ولا أحتمل هذا العذاب الأخرس. طيب. لينته عذابي اليوم. إنه الأوّل والأخير. أعِدك أيها البحر ألاّ يتكرر وقوفي هذا، ألاّ أقع في ضعف كهذا، ألاّ آتي بعمل أخجل منه أمامك. أرجوك فقط أن تحفظ سرّي، ألاّ يتحدث موجك الى الشاطىء بما بدر مني.

كان القمر قد أشرق. متأخرا طلع الليلة. كان محجوباً بسحب رقيقة. كان مثل نفسي المغلفة بهمومي. لم يكن مضيئاً. على وجهه كدر. مثلي تماما. هو أيضا رآني. شهد هواني، أثق أنه لن يتكلم، القمر لايتكلم. آه ماذا يجري لو كان القمر يتكلم؟ يقول كل ما يراه.

يفضح العشاق ويفشي أسرارهم بين الناس..؟ لا، القمر لايفعل هذا. هو أيضاً عاشق ويعرف أحوال العاشقين. تُرى، من يعشق القمر؟ الشمس، وكيف يلتقي بها؟ يطلع فتغيب، وتغيب فيطلع، وهكذا تستمرّ لعبتهما الأبدية. إنه معذّب مثلي، يأتي كل ليلة الى موعده، وكل ليلة يعود خائباً، لكنه لايمل. كيف يفعل كيلا يملّ؟ ألا ييأس؟ هل الإنسان وحده الذي ييأس؟ ما سر هذا الجبّار كما يقول أبي، يصارع البحر ويعجز عن امرأة؟ أنا عجزت أمام امرأة.. عفوك يا أبي، لم أعد أطيق الانتظار.

في هذه اللحظة دقّت ساعة السراي، دقّت اثنتي عشرة دقة. انتصف الليل. أطلّ القمر من وراء غيمة وحدّق بي. نظر إلّي شامتاً. تهيّأ لي أنه ينظر بعين واحدة. ينظر ساخرا. أنا أستحقّ سخريته. المصابيح أيضاً تحدّق بي من كل أطراف الميناء. هي أيضا تسخر. من حقّها ان تسخر... وداعاً ايها الشاطىء..

ومضيت دون أن التفت إلى وراء.

في اليوم التالي ندمت على تسرّعي. لم أكن أدري أن أمثال هذه اللقاءات تبدأ بعد منتصف الليل. قد تكون الزيارة قبل الصباح، خوف الرقيب. رأسمال العاشق صبره. هذا هو خشبة الإنقاذ. العاشق يغرق والصبر وسيلته الى النجاة. كل تفكير غير هذا خطأ. الحب والصبر توأمان. من صبر ظفر ومن لجّ كفر، يقول المثل. كان علي أن أنتظر أكثر مما فعلت. ماذا يعني أن أبقى ليلة تحت النجوم؟ العشّاق، كما في القصص، يقضون ليالي تحت النوافذ. لكن البحّار لاوقت لديه، تركيبه النفسي يختلف. البحر يجعله عصبياً، مغامراً، مندفعاً الى غايته اندفاعاً، لهذا فإن البحّار لايصلح للحب، لايستطيع أن يرتهن للعواطف الرقيقة، البطيئة، فعل طلّاب المدارس، والفتيان المراهقين. أفضل مشرب له الخمّارة. أقرب النساء بغايا المرافىء،

هكذا يقولون في الميناء. يتحدّثون عن شراسة من فيها. أصابتني العدوى أنا أيضا. لوثة العنف لحقتني. قرّرت اليوم، أن أكون عنيفاً. أن أدير ظهري.. لكن ما حدث، جعلني أطامن من غلوائي.

قبل المغيب التقيت الصبي الأسود. نبق فجأة حول البيت. كان يحوم حوله كما أقدّر. أشار إليّ أن أتبعه. هذه المرة كانت إشارته واضحة. إنه رسولها إليّ. أمس لم يكن كذلك. اعتمدت على نباهتي. ظنّتني لبيباً. خيّبت ظنها؟ ربما.. سأعرف ذلك عند لقائي بها. أنا لن أعاتبها على شيء، لا أريد سوى مرضاتها. لتهمس شيئا في أذني، لتضحك في براءة. عندئذ أنسى ما كابدته. أعود دمثاً مطيعاً، وديعاً، كفتى أمام فتاة. أدع لها أن تبتّ في أمري.

انحدر الصبيّ الى الشاطىء مباشرة. تغلغل بين الصخور وأنا أتبعه. لم يكن مسرعاً كعادته. تقاصرت المسافة بيننا، حين أدركته. توقّف، أعطاني ورقة مطوية. فعل ذلك وهو ينظر حوله. تقيّد بتعليماتها جيداً. لم يقل شيئاً. واصل طريقه باتجاه الميناء. مكثت أنا بين الصخور. فتحت الورقة وقرأت: «الليلة في منتصف الليل». الخط رديء. صاحبته لم تنل حظاً كافياً من تعليم. المهم أنني فككت أحرف الكلمات. فهمت جيّداً وقت الموعد. المكان ظل مجهولا. هذا ما أقلقني. بعد تفكير صممت على الانتظار هنا. قرب الفجوة الصخرية التي التقينا عندها. عليّ أن أذهب وأعود. اتجوّل في المدينة حتى منتصف الليل، وفي الموعد المحدّد أكون على الشاطىء.

من جديد، عندما اتجهت الى المدينة، فقدت شيئاً من قدرتي على الانتظار. كانت ساعات تفصل بيني وبين الموعد. تحت وطأة التوفّز العصبيّ، خيّل إليّ أنّ هذا الوقت الطويل لن ينقضي. ماذا أفعل خلاله؟ اذا واصلت تجوالي على هذه الوتيرة، سيكون في وسعي أن أخترق المدينة من جوانبها الاربعة. خفّفت خطوي، جعلت أتملّ

المعروضات في الحوانيت، اهتديت الى مخرج. قلت في نفسي أدخل السينما. إنها أفضل وسيلة لقتل الوقت. لم أتـردد. ابتعت تذكـرة ودخلت. لم أنسجم مع الفيلم. ظلّ حسّ الوقت يعذّبني. لم أندغم بالشاشة، عجزت عن تركيز أفكاري على المشاهد أمامي. مع ذلك تشبثت بالمقعد. هذا أفضل من التجوال في الشوارع. أفضـل من العودة الى البيت، ومحاولة الخروج ليلاً. سأصطدم بمعارضة أمّي. أخضـع لأسئلتها عن وجهتي وسبب خـروجي. أما التـواجد عـلى الشاطىء، قبل الموعد، فإنه يعرّضني لأنظار من أصادفه هناك. لقد أكثرت، في الآونة الأخيرة، من التردّد على الصخور، وهذا يلفت النظر، عليّ أن أتحاشى كلّ ما يجعلني موضع ريبة.

في الساعة التاسعة كنت في الشارع من جديد. اتجهت نحو حيّ القلعة. صادفت بعض الضبـاط الفرنسيين في طريقي. كان المارّة يتحاشونهم. نظرات ملأى بالكراهية تُحيطهم من كل جانب. لا أحد يعترضهـم، لكن الصدور تنطوي على مشاعر مقت وألم، فرنسا دولة محتلّة. تستطيع أن تعرف ذلك من العزلة المحاطة بها مندوبيّتها في اللاذقية. الشفاه لاتتلفظ بكلمات الرفض علانية، لكن من يفهم حركاتها يدرك أن تمتماتها صرخات مكبوتة. من العبث أن تحـاول فرنسا البقاء. لا أحد يريدها. كلّهم يعدّون للمعركة، غير أن المعركة ما تزال في ضمير الغيب. الاحتلال، الاحتلال، ما أكره هذه الكلمة واشنعها!

هذه الأفكار شدّتني قليلاً. خجلت من نفسي أن أنسى ذلك بسبب من غربتي عن المدينة. في الميناء لايعرفون من أنا. لم أتحدث عن والدي ولا عن نفسي. يجهلون مشاعري الوطنية فلا يتكلمون أمامي، هذا الحاجز الجليدي سيذوب يوما. شيئاً فشيئاً أنفذ الى الحياة الاجتماعية وأتعرف على الناس. إن ذلك سيصير. قد يتأخر قليلاً

لكنّه سيصير. الكتلة الوطنية هي التي تقود النضال. سمعت ذلك في الميناء. كانوا يتحدّثون عن زعمائها. ذكروا فلاناً وفلاناً. لم أعرف بينهم أحداً. هنا الوضع يختلف، في اسكندرونة كان النضال واضحاً. المناضلون السرّيون كانوا يمرّون بالحي. أين المناضلون السرّيون هنا؟ والذي كان مع البحارة، مع فقراء الحي، هؤلاء هم الذين تظاهروا. هنا لايتظاهر الناس، لماذا؟ كم أشتهي مظاهرة واحدة أسير فيها.

انتبهت لنفسي في «عين ام ابراهيم» في الطرف الشمالي من المدينة، استغرقتني أفكاري فسهوت عن الوقت، نظرت في ساعتي فألفيتها العاشرة والنصف. لدي ساعة ونصف بعد. علي أن أنحدر صوب البحر، متعة أن يسير المرء ليلاً، بمحاذاة البحر. من المحال أن تخلو المدينة من المنضالين السرّيين، يفترض أن يكونوا موجودين. سيأتي يوم فأتعرف إليهم. أعمل معهم. لا أستطيع أن أكون «زلمة» لزعيم. الكتلة الوطنية تتألف من زعماء حولهم أزلام، وعمال المدينة، بحارتها، فقراؤها، في طرف آخر، والى هذا، الطرف أنتمي أنا.

جلست في المنشيّة قبالة الكازينو، كانت موسيقى راقصة تنبعث منه. وجهاء المدينة واثرياؤها يسهرون في الداخل. العائلات الكبيرة تتواجد هنا. الفرنسيون يتواجدون هنا ايضا. يتم اللقاء في جوّ من المودة. تساءلت: هل الكازينو منطقة محايدة؟ هل هي أرض فرنسية؟ هل هي أرض عربية ـ فرنسية؟ الأمر ليس كذلك في الأحياء الشعبية. لم أجد فرنسياً واحداً في «الشحادين» أو «الصليبة». مثل هذه الأحياء أرض عربية خالصة. هنا حبّ الوطن يكون صافياً. السكان فيها لايهادنون، ينتظرون فرصتهم للانقضاض.

حين دقّت ساعة السراي الثانية عشرة نهضت وانحدرت في طريق الميناء. درت حول البطرنة حتى بلغت بناية «الامبريال». كان

القمر قد طلع مستديراً، شاحباً، متسلّقاً ببطء، وغيوم ربيعية غلالية، تخفيه وراءها. كنت في ذاتي، قلقاً أن يكون على الشاطىء من يرصدني. أرجو ألّا تتأخر عزيزة علي. أن تأتي في الموعد المحدد. أن تسبقني الى تلك الفجوة المريحة. قفزت عن حائط الرصيف. تراءت لي الصخور، تحت ضوء القمر، في تشكيلات بديعة، تتخلّلها كتل من الظلام . ومع ثقتي أني سألقاها، ما دامت هي التي طلبت ذلك، فإن ظلاً من الشكّ خيّم على روحي. خفت ألّا تستطيع الخروج، أن يكون زوجها قد حال بينها وبين ذلك. كنت مزمعاً على الانتظار، لكنّه من الجنون أن أطوف، أو أقف، في منتصف الليل، على هذا الشاطىء المهجور، الذي أعرف أن رجال الجمارك يراقبونه ويقومون بدوريات حوله، كذلك يمكن أن يكون الشاطىء مراقباً من نوافذ الأبنية المطلّة عليه، واذا ما شاهدني أحد في وقفتي المريبة، فإن خطراً مؤكداً سيحيق بي وبعزيزة، ولن يلبث أمرنا أن ينكشف، وتثار فضيحة مدويّة من حولنا.

تقدّمت على الرمل ذي الحصى بخطوات وجلة. أحسست أن كل ما في المنطقة قد انقلب الى عيون، كم مرةً تسلم الجرّة؟ إنني أسير إلى لقاء امرأة، أقوم بفعل لاتسمح به الأعراف. صرت واحداً من هؤلاء الذين يتحرّكون في الظلام، قياماً بفعل لاتسمح به القوانين. أي فرق بين المخدّر والحب، كلاهما ممنوع. نوع من المهرّبات التي تنقل سرّاً وتشرب سرّاً. أنا الآن مهرّب بمعنى ما. أتعاطى التهريب ببضاعة خطرة. وأين؟ في منطقة الميناء نفسها، المنطقة التي تزخر بأشباح ترتكب الإثم بكل أنواعه. الذي عنده بضاعة يخبئها هنا. والذي سرق شيئاً من الميناء يطمره على هذا الشاطىء، أو يخفيه في أحد هذه الكهوف. والى هنا يأتون بالغلمان، لارتكاب المنكر معهم. وحين يظفرون ببغيّ في المدينة يأتون بها إلى هنا. يفعلون ذلك جماعة، وحين يختلفون يتعاركون بالمدى حتى تسيل الدماء. تماماً كما تفعل

الوحوش وهي تعرّ وتصخب حول فريسة يريدها كل منهم لنفسه. إنني أعرف الموانىء. أسمع ما يقولون عنها، وأفهم الحرمان الجنسي الذي يعيشه الجميع، والاستعداد البهيميّ للموت في سبيل غلام عند اللزوم.

جلست القرفصاء على حافة الماء. كان البحر كسولاً جداً. يجرّ نفسه الى الشاطىء بحركة رتيبة، كأنه تعب من هذا التكرار الذي لاينتهي. الأمواج تأتي خفيفة. تتكّسر على الرمل والحصى ببطء. خريرها الموزون يشجي، لكنه، في مثل حالتي، يبعث على الوحشة. انصتّ جيداً. رغبت في التأكد ألاّ حركة في المنطقة. ولكن حين نهضت، لاحت أشباح في البعد، قرب المنارة، لم تلبث أن غابت بين الصخور، اللعنة قلت في نفسي، فسد كل شيء. من المحال أن تأتي عزيزة الآن، ومن المحال أن نلتقي في الفجوة الصخرية. وإذا كانت هذه أشباح رجال الجمارك، فإن وجودي هنا، حتى بمفردي، سيؤدي بي إلى بعض المتاعب.

عدت الى القرفصة على حافة الماء، أمضيت وقتا في فتح حفرة في الرمل المبلّل، جعلت أصيخ السمع وأتلفّت الى أقصى مايبلغه النظر، محاولاً اكتشاف حركة تلك الاشباح، لكنهّا لم تظهر أبداً. ربما رأتني فتوارت. المهربون يخافون الجمارك أيضاً. يلطون في الفجوات الصخرية حتى يأمنوا. عليّ أن أنسحب باتجّاه الجدار الحجري للطريق. من هناك أتسلّل لصق الأبنية الى الموضع الذي وقف فيه الصبي الأسود في المرة الماضية. لكن قبل أن أنهض وقع حجر ورائي. يدٌ ما قذفت الحجر متعمّدة. إنه للتحرّش أو للتنبيه. في الحالتين أنا المقصود. حسناً! لابدّ من المواجهة. انتصبت واقفاً. إنه اللقاء أو المعركة. كان اللقاء من حسن الحظّ. أبصرت، في ضوء القمر الواهن، خيالاً يتحرّك على مبعدة. لم يكن لي خيار فمشيت

نحوه. تبيّنته بعد قليل. إنه الصبيّ الأسود. أوسعت الخطى لألحق به، فإذا هو يمشي أمامي ،ويسير لصق الأبنية، الى مدخل الكهف تماما. معنى هـذا أن عزيـزة ليست في الفجوة الصخـرية. دخـل فدخلت. كان الظلام دامساً. لم أكن أحمل كبريتاً، ولكي تناكدني القداحة لم تشتعل. وعندئذ سمعت الصبي، للمرة الأولى، يقول:

ــ لاتشعل ضوءاً.

امتثلت فوراً. تلبّثت في مكاني وقلق خارق يفترسني. المغامرة التي أنتظرها صرت في قلبها. كل ما بقي أن أكمل الشوط، أن أرضى بقدري، أنا الذي اندفعت اليه اندفاعا محموماً طوال أيام. لم يعد النكوص جائزاً أو مقبولاً مني. إثبات رجولتي يتوقّف على مدى ما أظهر من شجاعة. كتمت خوفي واستسلمت الى الصبيّ الذي يقودني الى مصير مجهول. إذا كانت عزيزة مخلصة فسأصل اليها بسلام، وإذا كانت غادرة فلن أخرج من هذا الكهف.

وقال الصبي هامساً:

ــ هات يدك.

أعطيته يـدي بغير كـلام. أدركت أنه يعـرف الطريق وسط الظلمة. لقد حفظها كما يبدو، ومهما يكن فإنني لن اعترض عـلى شيء. سأحاول اكتساب صداقة هذا الصبي النبيه الشجاع.

وقال لي، بعد قليل:

ــ إنتبه، أمامك درج..

رفعت قدمي بحذر ووضعتها على الدرجة الأولى، هذا طريق خلفيّ للبيت. لابد أن عزيزة خطّطت للقائنا جيّداً، ولكن إلى أين يفضي بنا؟ وهل أنا أوّل عاشق يجتازه أم سبقني آخرون الى ذلـك؟ المغامرة جريئة، ما في ذلك شكّ، وإن تكن عزيزة تقدم عليها للمرة الأولى فإنها ترتجف خوفاً الآن.

كان الدرج لولبياً، أشبه بالأدراج الحجريّة التي توصل بين طابقين في القلاع القديمة. وكان ارتقاؤه صعباً، فهو ضيق، بدليل أن جسم الصاعد عليه يلامس الجدار ملامسة قوية. ولاذ الصبي بالصمت، كأنه مدرّب، على مثل هذه المهمّات. ولم أقل أنا شيئاً، خشية أن ينكشف السرّ. واصلت صعودي بحذر، وعندما انعطفت الى اليمين، بان فانوس صغير على بسطة الدرج العليا، وهناك كانت تقف عزيزة التي طلبت من الصبي أن يَدَعني ويظلّ في الكهف، يراقب الطريق العام من فجوة في الجدار.

قالت لي وأنا أجتاز آخر الدرجات الى البسطة:

ــ هل كان الطريق صعباً؟

ــ لأجلك كلّ صعب يهون..

ــ لاتحاول أن تخدعني.. أنا لا أثق بالرجال.

ــ ولماذا أتيت بي إذن؟

ــ لأنني أحببتك.

ــ تحبينّ ولاترضين؟

ــ أحببتك برغمي..

ــ كيف؟

ــ هكذا.. أرغمتني على حبك.. لماذا كنت تخلع قميصك وتعرض جذعك عليّ كل يوم؟

ــ الحق علي إذن؟

ــ تماماً..

قالتها وضحكت. أضافت:

ــ إنني أغامر بقطع رأسي.. لو كان الرجال يقدرون تضحيات النساء لقبّلوا أقدامهنّ..

ــ أنا مستعد لتقبيل قدميك..

ــ ومستعدّ لأن تنساني في أول فرصة..

ـ معاذ الله.. أنا..

قاطعتني..

ـ إسمع! لا أمان مع الرجل.. هذا رأيي..

ـ ستغيّرينه في المستقبل..

ـ ياريت! لكنني ما أظنّ.. الرجال من معدن واحد.

ـ ما أسمعه يجعلني أصدِّق أنّ تجربتك كبيرة..

ـ لو لم أجرب وأفشل ما تزوّجت هذه الزيجة..

أضافت بسرعة:

ـ لنَدَع هذا الحديث.. لماذا لم تنتظرني ليلة أمس؟

ـ حسبت زوجك في البيت.

ـ كان عند زوجته الأولى.

ـ واليوم؟

ـ عند زوجته الثانية.

ـ هل نحن في أمان؟

ـ خائف؟

ـ وأنت؟.. ألست خائفة؟

قلبت شفتيها كأنها تقول: «لا أدري». كنّا قد صرنا داخل البيت. وعلى ضوء مصباح صغير، محجوب بغطاء ورقي، استطعت ان أتملّاها، بنظرات خاطفة، مركّزة، لم تلبث أن اكتشفتها فقالت: «لماذا تنظر إليّ هكذا؟ ألم تتبيّن ملامحي في ضوء القمر؟» قلت ضاحكا: «ضوء القمر كان مكسوفا أمامك.. كسفت ضوء القمر يا عزيزة». فنظرت إليّ بإمعان، كأنها تريد أن تكتشف ما وراء مزاحي. أضفت بسرعة: «قضيت أيّاماً بكاملها وأنا أحاول تذكّر هذه الملامح، لكنّها غابت عني..» قالت: «إذنْ تمعّن فيّ جيّداً، حتى لاتغيب ملامحي عنك في المستقبل.»

كانت، الآن، قد جلست على مقعد من الطراز القديم،

وأشارت إليّ أن أجلس إلى جانبها. كانت الغرفة واسعة، فيها تخت واحد، وعلى الأرض سجادة، وفوقها طقم من المقاعد، ومن السقف تتدلى ثريا قديمة، لم تشعلها عمداً، وعلى الجدران بعض الصور وبعض اللوحات، وستائر تحجب نوافذ تطلّ على الطريق العام.

فوجئت أن عزيزة نحيلة وقد تبدّت لي ممتلئة في ملاءتها. كان وجهها أبيض البشرة، فوقه شعر أشقر، وجلد الخدين رقيق شفّاف، يعطي وجهها المستطيل ملامح فتاة عصبيّة. ولقد لفتني فمها الدقيق رقيق الشفتين، على شكل كرزة حمراء. وكانت الشفة السفلى، على رقّتها، مكوّرة، تكسبها حلاوة خاصة، عيناها عسليتان، متطاولتان، يرفّ فوقهما رمشان مميّزان، وصدرها، رغم نحولها، بارز، يضمّ رمّانتين ناتئتين، ارتعشت حين تصوّرت يدي تمسح عليهما وتداعبهما. لقد كانت، بكل تكوينها، مغايرة لتلك الفتاة التي عرفتها في المبغى. طولها، جسمها، شعرها، خصرها، يداها، كلّ ما فيها يختلف، ويذكّر من يراها بأنه أمام ممثّلة في فيلم من الأفلام.

ظلّ الصمت لحظات سائداً بيننا، تركت لي الوقت كي ألتقط أنفاسي، وآلف الجوّ، وأشبع نظري منها. وحين مددت يدي لآخذ يدها لم تمانع. قالت وهي تبتسم:

ــ انتهيت من تفحّصي؟

ــ عفواً لم اقصد.. (وتلعثمت) ساعديني على التخلّص من هذا الارتباك.

ــ ارتباكك يريحني.. يؤكّد لي أنك طيّب، وقليل التجربة.

ــ.. وأنت أوّل من أحبّ..

ــ هذا غير متأكدة منه..

ــ تأكّدي..

ــ كيف؟

ــ أنت أوّل امرأة أحبّها.

ـ وهل تحبّني؟ أواثق أنت مما تقول؟ وماذا أحببت فيّ؟ منذ لحظة قلت إنك لم ترني جيّداً في ضوء القمر، ومنذ دخولك وأنت تتفرّس بي كأنك آتٍ لخطبتي. . . هل رقت لك أخيراً؟

ـ لماذا تتكلّمين هكذا؟ قلت لك إنني أحبك فصدّقيني. . أنت أجمل مما تصوّرت. . أجمل مما تصوّرت. .

ـ أريد أن أصدّقك. . ولكن كفّ عن هذا التحديق بي. . تكلّم. .

أسبلت أجفاني خجلا. استشعرت شيئاً من هزء في كلامها. لاشكّ أن خراقتي كانت كبيرة الى درجة أزعجتها. يبدو أنني أطلت التحديق فيها. كان يجب أن أفعل ذلك بشكل آخر، غير مباشر، فأمامي وقت كثير لأتملّى منها. أنا أجهل كيف يتصرفون في هذه المواقف. . لست إلاّ حيواناً بريّاً، لست إلا حيواناً برياً.

ـ ألا تتكلّم؟

ـ أنا أتكلّم، ألا تسمعينني؟ ألا تتحدث يدي الى يدك؟

ـ أسمع ما تقوله يدك، لكنني أريد سماع ما تقوله شفتاك. .

وقفت وانحنيت عليها. كانت تجلس في مقعدها باستقامة. شعرها الاشقر ينسدل على كتفيها. أغراني بأن أداعبه، أمسكه، أفرده، أتخلّله، ألاطفه، أدعه كشرابة حرير يتناثر بين أصابعي ويتساقط. مددت يدي ومسحت على رأسها. مسّدت شعرها، رفعت رأسها إلى أعلى، صار وجهها في متناولي. لم تغيرّ جلستها في المقعد، لكنها أعطتني وجهها بكرم. كانت عيناها العسليتان تبتهلان إليّ. تنشدان لحناً خافتاً خافتاً، يدرك ولايسمع. تغزلان شوقاً جنسيّاً مبرّحاً. تتنهّدان على طريقتهما. تبوحان ولاتبوحان، يختلج بؤبؤهما برغبة أنثوية الى الذكر، وفي ذبولهما، تنضحان دفئا غريباً. لمست على وجهها. كان حارّاً. أملس وحارّاً. كان ناعمًا، كأن جلده حرير طبيعي. مررت بيدي على العنق. خيّل إليّ أن عروق الرقبة تنبض

بالدم، تصعد إلى الرأس بكل ما يضخّه القلب. تجمع في الهام كلّ نزوات الجسد. سألتها:

ـ ما بك؟

قالت وهي تقرب أذني من فمها وتهمس فيها:

ـ حبّني!

ـ أنا أحبّك، أحبّك فوق ما تتصوّرين..

ـ هس.. لاتتكلم.. دعني هكذا.. إنني أحلم.

احتويت جذعها بين ذراعي. استسلمت كقطة أليفة. وجدتها رقيقة كطفلة. ظلّت في مكانها. الرأس مرفوع. العينان الى أعلى. الشفتان تنفرجان عن أسنان بيض جميلة. الكتفان يختلجان في توقّع لاهف. تحوّلت بسرعة عجيبة. انقلبت برودتها الى حرارة، سخريتها الى جدّ، نفورها الى اندغام كامل. وسمعت صوتها يرشح من أعماقها متوسّلاً:

ـ قبّلني. قبّلني..

قبّلتها بلطف. كانت هذه أول مرة أقبّل امرأة في شفتيها. لامستهما برفق شديد، فضحكت وقالت:

ـ هل تشمّني بشفتيك؟

ـ خفت أن أعضّك.

ـ لاتعض، انتبه.. لكن قبّلني بعنف.. إضغط شفتيك على شفتي..

فعلت كما طلبت. كنت مشوقاً لأن أفعل ما تطلب. ضغطت ذراعي حول جذعها. أنّت بارتياح. لانت أكثر. صارت قطعة عجين مطواعة. تحوّلت الحرارة في وجهها الى لهب، رأيت اللهب. كان في عينيها، في خديها، في شفتيها. نبض العرق الأيسر في رقبتها بقوة. اندفاعاتها الجنسية تحوّلت الى اهتياج. غرزت أظافرها في رقبتي. أدركت، الآن، ماذا يعني أن يكون الرجل مع المرأة. أن يحب امرأة.

ان يحتويها. أن يقبّلها في شفتيها. أن تعطيه هي شفتيها. تمنحهما له بسخاء. تصبر على التهامهما، لا تشكو. لاتصرخ، لاتسحب رأسها. لاتقبل إرضاء للرجل، ولا قياماً بواجب، ولا استثارة لشهية، تفعل ذلك رغبة، شوقاً، احتراقاً، لذة، انسجاماً مع الآخر.

أفلتّها للحظة. نصبت قامتي ولعقت شفتي. بقيت هي في مكانها. استوت في جلستها وضحكت:

ـ هل تعبت؟

ـ أنا أتعب؟

ـ اكتفيت؟

ـ وهل بدأنا؟

ـ وماذا تريد أكثر؟

قالتها بنبرة اغرائية مثيرة.

ـ لاشيء..

أنا لا أعرف الأصول. الشهوة تنبح في جلدي، لكنني أجهل الأصول. أخشى إن تماديت أن تصدّني. أن يكون ذلك سابقا لأوانه. تصوّرت أنّ العشاق يجب أن يكونوا كيّسين. لايهجمون من المرة الأولى، لايظهرون شراهة. لايرغمون الآخر على بذل كل شيء. يقتصدون في شهواتهم. يكبحونها، يَدَعون للمرأة أن تقرّر. أن تعطي. أن تبدي رغبة في المواصلة. وبذلك يضمنون رضاها، يراعون مشاعرها، يكونون مؤدّبين معها.

ـ كيف لاشيء؟

قالت وهي تبتسم بإغرائها السابق. أضافت:

ـ تعال قبّلني مرة أخرى لكن حاذر أن تعضّني.

لماذا تذكّرني بالعضّ كلما نسيته؟ أنا لن أكون وحشاً حتى لو أرادت هي ذلك. أستطيع، في هذه اللحظة، أن أعضّ كفيّ حتى

أدميها من فرط اهتياجي، هذا يلذّ لي، لقد جرّبت أن ألتقط شفتها السفلى بين أسناني. كان ذلك مثيراً. مصّ الشفة شيء مثير، لكن عضّها أكثر إثارة. مع ذلك تمالكت نفسي. أنا لست إلّا تلميذاً يريد أن يتعلّم الأشياء المفيدة. لن أجعل شكلي الهرقلي يخيف النساء. حتى في المبغى كنت كيّساً. مانعت الفتاة في التعرّي فلم أصرّ، رفضت التقبيل من الشفتين فلم أعترض. طلبت الإسراع فأسرعت. لم أقل كلمة نابية. خرجت خفيفاً كما دخلت. لم أندم على شيء، فكيف الآن مع عزيزة، مع عزيزتي، مع حبيبتي؟ لا يا عروسي، يا مليكتي، لن أعضّ، لن أترك علامة يسألك عنها زوجك. إنني أرفض توريطك، وحتى لو اندفعت الى ما يضرّك فلن أطاوعك عليّ أن أحميك من نفسك. أن أصونك جيّداً، كي تبقي لي، لي وحدي، والى الأبد.

كنت أقبّلها وأنا أفكر. أمثال هذه الخواطر فرضت نفسها عليّ. أنا قادر على فقش عزيزة بين يدي. كلما ضغطت عليها خفت من تحطّمها. خُيّل إلى أنّ في جسدها زجاجاً وليس عظاماً. أمام قوتي تبدو هي ضعيفة الى درجة لاتُصدق. في وسعي أن أعصرها كليمونة. ربما كانت تريد ذلك. هذا الالتحام بي، والضغط عليّ ودفن الرأس في صدري، يدلّ على أنها تريد أن أحتويها، أن أضغطها، وأنا أفعل، وأسمعها تتنهّد، تشهق، لكنني أتوقّف عن إيلامها. أنا لا أريد إيلام عزيزتي، لا أريد أن يُغمى عليها بسببي.

سمحت لي أن أفكّ أزرار بلوزتها. كان نهداها الصغيران، المكوّران، تحت هذه البلوزة. مجرّد فكّ أزرار القميص، أضرم النار في جسدي. سينكشف الآن صدرها. يدي لم تلامس نهداً حتى الآن كيف تكون ملامسة النهد؟ الكنز أمامك. عليك أن تكشف عنه. الصدر ليس أرضاً. لن تحفر ولن تتعب. مع ذلك الكنز هناك.

أخرجه بهدوء. فُكّ الأزرار بتأنّ، بينما شفتاك على شفتيها. هي تعرف ما تفعل أنت، تريده، تنتظره، تترك لك المبادرة، تدعك تفكّ الرصد عن كنزها، هذا أدعى لاستثارتك، وأدعى لاستثارتها. لو فتحت هي صدرها ما أحسست بتلك الرعشة. لاشك أنها تعرف ذلك. تعلّمني إياه بغير كلام. أنا طفل يتعلّم. ما أزال في مدرسة الحب الابتدائية وهي التي تقود خطاي الى الجنة. تُحفّظني الدرس حرفاً حرفاً. لاتستعجل الوصال. تتلذّذ بكل جزء من العملية. تذعن لأصابعي. وهي تتحرّك على عنقها، ثم تهبط إلى صدرها، وتشرع برفع الغطاء عن نهديها. أصابعي تحترق. خدر في رؤوس الأنامل، لبدت في صدري مرتعشة لتوقّع الآتي. كيف تفكّ صدارة النهدين؟ أشدّها؟ أمزّقها؟ حاولت، ضحكت، همست ببحّة «أنت لاتعرف» أضافت: «من وراء.. من الظهر.» مددت يدي. لم أفلح. عادت الى الضحك «جاهل» يئست. عدت الى الصدر. رفعت الصدارة كيفما اتفق. لم تقل شيئاً. كانت تنتظر الخلاص. وضعت كفّها على عنقي. بأصابعها خرمشتني وأنا احتوي النهد بكفي. آه.. أي إحساس لذيذ! أيّ إغراء بأن تضغط كرة من لحم، ذات غشاء مخملي!. صغيرٌ نهدها. مثير لأنه صغير.. ثم ماذا؟ دفعت رأسي الى أدنى بكفها، وضعت أنفي بين نهديها. حسبت أن المستقرّ هنا. ظلّت تدفع رأسي. أنزلت يدها وأمسكت نهدها من جذره. عاملتني كطفل فألقمتني الحلمة. مصصتها برفق ولكن بشهيّة، باندفاع فتأوّهت. تركت يدها تعبث حيث تريد. ليدها الحق أن تعبث حيث تريد. أحسست أن توازني يختلّ.. نضجنا نحن الاثنين. زاد تأوّهها. نظرت في وجهها. تغيرّ وجهها، تغيرّ فمها، انفتح، بانت أسنانها، تغيّرت عيناها، صار لونها موشّحاً بالحمرة، كأنّ بها حمّى.

وقفت. استعدّت لمنحة أكبر. كنت أضم الجذع. صار الآن في وسعي أن أضم الجسم. قدّها الحلو، الفارع قليلا، أصبح في

متناولي. فجأة ارتمت بين ذراعي. حارّة، كالجمر، ارتمت بين ذراعي. ضممت الخصر. نحيلاً ضممته، غضّاً غضيضاً، شهيّاً، ضممته. ما أروع أن يكون خصر المرأة ضامراً! في حياتي، بعد ذلك، احتويت، بين ذراعي، نساء كثيرات، لكنني لم أستطع نسيان عزيزة وخصرها. كنت قادراً أن أهصر خصرها. يداي المعقودتان وراء ظهرها، تقلّصتا. شدّتا برفق. التصقت بي. زادت من التصاقها بي. ضغطت خصرها. رفعت ذراعي الى أعلى وضغطت جذعها. طقطق عمودها الفقري. سمعت ذلك بأذني. حدّقت في وجهها. ابتسمت فقط. لم تكن تتألم. رفضت، ربما، أن تتألم. كابرت. تحملت. استلذّت. أسعدني أن تتحمل، أن تستلذّ، لكنني أردت، في هذه اللحظة، إيلامها، مدفوعاً برغبة الرجل، في أن يسمع المرأة التي معه، تشكو قوة ساعديه. غير أن عزيزة تأبّت على الشكوى، أنّت فحسب. تأوّهت بعمق. انفرجت شفتاها عن أسنان قاطعة، راغبة في أن تعضّ. ومن فوق القميص، أتحت لها أن تفعل، وفعلت، بقوة أكثر. وجاء دوري في التحمّل، في الصمود للألم، تخدّرت عضلة الساعد، وشعرت أن أسنانها غرزت فيها عميقا.

سألتها بايماءة من رأسي:

ـ أين؟

ـ هنا.

واشارت الى السرير. ثم أضافت:

ـ على سريره..

قالتها بحزم، برغبة في الانتقام. أن تنتقم، الآن، وأن تموت، الآن أيضاً، فهذا يعني، أن تخرج من الحياة مستريحة. هل هي الآن مستريحة؟ انتقمت؟ استعاد شبابها زهوه المفقود؟ استردّ حقه المغتصب؟ وماذا تسمّي في ذاتها، خيانتها لزوجها؟ هل تعترف أنها خيانة؟

قصدت أن تخونه لأنه خانها؟ من فعل ذلك أوّلاً، وبأيّ حقّ؟ واحدة بواحدة. هذا هو التعبير. إنه قاس، لكنه التعبير الوحيد.

غير أنني ، برغم ذلك، وجدت في عبارة «على سريره» معنى أكبر. إنه الانتصار. عزيزة كانت في معركة، وهذا هو الانتصار. عقلها لم يحلّل فعلتها، لكن رغبتها في أن تمارس الجنس، على سرير الزوجية نفسه، تحمل اكثر من معنى الانتقام. إنه الظفر بما حرمت منه. إنه تمريغ لكرامة الآخر، وشفاء لكرامةٍ جريح.

واستلقينا على السرير

وذهبنا في شوط بعيد..

وعند الفجر غادرتها..

وعندما مررت بالصبي الأسود، على حافة الدرج في الكهف، وجدته نائمًا..

كان نائمًا ورأسه يستند على الجدار..

إن موعد انتقامه الخاص، العادل، لم يحن بعد..

وربما كان لايعرف متى يحين..

لكن البحر يعرف.. إنه يهدر على الصخور، معلناً احتجاجه، غضبته، ثورته المضمرة..

ودقت ساعة السراي عن بعد..

كانت الثالثة..

وكان صوت رنينها النحاسي ناقوساً..

وخيل إلّي أنني أسمع أصوات نواقيس كثيرة، وفي كل مكان من المدينة.

٥

الشاطىء بين طرطوس واللاذقية، طويل يا سعيد. اقلع عن محاولة السير عليه كمتشرد يتجلبب الليل، ويسامر البحر، إن هذا العميق، الأخضر، قد تقبّل صلاتك الابتهالية، وسيكون رحيمًا بالناس، رئيفاً مع الكائنات، وكأب طيّب، يعطي أسماكه للصيّادين الذين انتشروا على متنه، معهم خبزهم المصنوع من قمح الأرض، وليس يعوزهم، في زاد الفقراء، سوى السمك، وبه تكتمل أعطيات الماء واليابسة.

لاتقل إنني لا أريد شيئاً. الإنسان لم يخلق زاهداً. الزهد فرض عليه، توسّلاً لما يريد بغير تعب. أنت ترفض أيّما شيء بغير تعب. الإنسان يريد، وسيظلّ يريد، وسيرغم البحر، ويرغم الأرض، على اجتراح المعجزة، ففي ذاته يكمن القمح والسمك، وبنضاله، سيفجّر العطاء في القمح والسمك.

أصحابك الذين هناك، الذين تركتهم في الخيام، ينامون الآن ملء جفونهم. البحر، بالنسبة اليهم، ليس همّاً. التسلية بالشيء، لاترتفع الى مستوى الهمّ به. البحر همّك أنت، رجاؤك أنت، وعنده وديعتك: أبوك! ومن أجله أنت على استعداد، من الآن والى آخر العمر، أن تصحبه بغير ملل، وأن تحكي له، وتسمع منه، وتسير على شاطئه الى قصر السيدة الذي ينتظرك هناك.

وقال سعيد في نفسه: «من يراني يحسبني مجنونا». أضاف: «أنا، مع البحر، عاقل جدا. الجنون كان، حين لم يكن هو. لكن البحّار يظل مجنوناً على نحو ما، كل إنسان مجنون على نحوٍ ما. العاقل من ليس له شيء يجن به. يكون، عندئذ عاطلاً. يكون بليداً. يفرح لنفسه، ويحزن لنفسه، ويبتسم، كمجذوب، لنفسه أيضا. أنا، مرة، رأيت رجلاً يضحك لوجهه في المرآة. رأيت، مرة أخرى، رجلاً يحاول إمساك ضوء القمر على صلعته بطربوشه، كان ذلك الرجل تافهاً، لا يعرف البحر ولا السهل ولا الجبل، ولايعرف أن يتكلم مع البحر والسهل والجبل، وأن يُفتن، إلى حد المغامرة، بالسرّ الذي من أجله كانت المرأة امرأة وكان البحر بحراً».

قال أيضاً: «أصحابي الذين في الخيام، ينتظرون طلوع النهار ليفرحوا به. ينامون ليلا، ويستيقظون نهاراً، ويعملون ويأكلون بينهما، وهذا كل شيء. أستثني من بينهم تلكم السيدة الجميلة. عيناها تحلمان بقمر، واستثني تلك الطفلة الصغيرة، عيناها تحلمان بقصر، في حديقته شجر، عليه طيور، وفي بحره سمك، أخضر وأحمر وأصفر. وأنا؟ بماذا أحلم أنا؟ وأجاب على تساؤله: «لا أدري لا أدري» إنني أسير، وهذا كل شيء، وإنني أتشرّد، وهذا كل شيء أيضاً، وأنا أتكلم، والبحر يسمع. كلّ من يتكلم يحتاج الى من يسمع. كل من يكتب يحتاج الى ورق، الا البحّار، يكتب على الماء. البحر كتاب، وقصص الناس على صفحاته، ولو وجد من يقرأ صفحات الماء، فأية حكايات كان يستخرج؟ لا، عندئذ تثور فضائح، وتبكي امرأة، ويحمرّ رجل. الأفضل أن تظل الحكايات التي يسمعها البحر مدفونة في صدره. أنا أحكي حكايتي له لأنها ستبقى في صدره، فالليل يطوي أسراره، وقاعات المحيطات تنطوي أبداً على خفاياها».

«ويا عزيزة (فكر في نفسه) يا عزيزتي العزيزة، أين أنت الآن؟ وهل ألقاك ثانية؟»

ارتطمت موجة بقدميه.. في السماء غمزت له نجمة. لقد خسر، والى الأبد، براءته تلك. البحر والدهر حطّما براءته. حين يكبر الانسان، وتكثر تجاربه، تتحطّم براءته. تفارقه دهشته الأولى. تنأى طفولته، ويجفّ فيه ماء كان يوماً خصيباً. حدّق، عبر الليل، في كفّه. أيّ جلد يكسو، الآن، هذه الكف؟ إنها بتمامها، بكل أصابعها وسلامياتها، بكل لحمها ودمها، وبالاظافر الخمسة على الأصابع الخمسة، لكنّها هي وليست هي، فردود الفعل التي تعطيها، وهي على نهد امرأة، غير ردود الفعل التي أعطتها ليلة كانت على نهد عزيزة. اللمسة البكر تلك، لن تعود أبداً، وجسده الذي سكنته الخطيئة، لن تبارحه بأي شكل، ومن العبث أن يتحسّر. الحسرة لاتفيد، والبحر الذي يسمع يحتفظ بحيدته الباردة، وربما، مثله أيضا، ينظر في كفه ويتنهّد...

لقد ظلّ سعيد، بعد ليلته تلك مع عزيزة، ينظر في كفّه ولايصدّق، يرى الى ارتعاشتها، حين يتمثّل، كيف، وكيف، وكم وكم، هذه اليد، داعبت ذلك الجسد الحار، واحتوت مفاتنه، ونعمت بملامسة حريرية، حارقة، نقلت ذرّاته، خلالها، نار المرأة اليه، وأوصلت ناره الى المرأة، فشبّ، بعدئذ، ذلك الحريق المقدس، المشتهى،الذي ما إن يفكر فيه حتى تعتاده رغبة مسعورة في أن يقتحم عليها بيتها، ويخطفها، صارخاً في الناس: «هذه حبيبتي، وهي لي، ولن أفترق عنها أبداً.».

لكن عزيزة حذّرته: «إذا اردت ألّا تموت أنت، ولا أموت أنا، وألّا تثير فضيحة، ولاتجلب الأذى لعائلتك، ولاتفقد عملك وتهاجر من منطقة الميناء كلها، فالزم الصمت. إنس في الصباح ما رأيته في

الليل، وانس، بعد اللقاء، أنك كنت في لقاء، وأنك تعرفني. دع الصبي الاسود لي، فأنا أعالجه. أرغّبه، أرهّبه، ولا أدعه يقول شيئاً. هذا الصبي مطواع، لايكترث بما يرى، أو يتظاهر كذلك، ولا أدري ماذا يدور في رأسه، لكنه، قطعاً، غير معنيّ بي، ولابك، وإن له شأناً خاصاً، يفكر فيه دون أن يفصح عنه».

وقال سعيد في نفسه: «الصبي يفكر فيك يا عزيزة.. ان تفكيره غير محدّد بعد، وهو لايعرف ما إذا كان يحبّك أو يكرهك، لكنه، حين يكبر، سيتعلم أن يحبك أو يكرهك، والأرجح أن يكرهك، فالعبيد لايحبون السادة، والفقراء لايحبون الأغنياء، وأبناء البلد لايحبّون الفرنسيين، وكل منهم يداري مشاعره، يعتّقها، يتركها حبيسة، وعندما، في يوم من الأيام، تنفجر تلك المشاعر. ستسمعين دقات ساعة السراي نواقيس في ظلمة الليل، تماماً كما سمعتها أنا، ليلة خرجت من عندك، ورأيته ينام على الدرج، ورأسه يستند الى الجدار».

وقال لها:

ــ لا طاقة لي على الصبر يا عزيزة.. أن أنتظر أسبوعاً لأجتمع بك ساعة، فهذا كثير.. إنني أتعذّب.. ألا ترين أنني أتعذّب؟ أضرب الوسادة، كل ليلة، بقبضتي، لأنها خالية منك، وألعن الفراش لأنه يضمّني دونك، وأعانق الشوق، في جسدي الذي يتلوّى من الألم.. فماذا نفعل؟ وما هو المصير؟ وإلام أستمرّ قريباً بعيداً، أدنو في الخيال وأنأى في الواقع، وأنت، كل ليلة، تستسلمين الى ذراعين، تلتفّ أصابعها ذات العقد، على شعرك الأشقر، الحلو، المتماوج؟

وقالت له:

ــ هذا قَدَرنا يا سعيد.. فاذا كنّا لانستطيع أن نهرب منه،

فلنحاول أن نقنع بـه اكتفِ بما تنـال، أنا مثلك أقضم الـوسادة، وأخرمش الفراش، وأستشعر أسياخ النار في جسدي، لكنني أصبر، لأنه لابدّ لي من الصبر، ولأن الحياة قد أسلمت شعري الى غصون الشوك، ولا أستطيع تخليصه منها.

وظلّ يقول لها..
وظلّت تقول له.

وما اتّفقا مرة، الى حد القناعة، وما اختلفا، يوماً، الى حد القطيعة. كان يحبّها، وكانت تحبّه، ومن شوق كان يطلب المزيد، ومن حذر كانت تكتفي، وراحت الأيام تكرّ، وكل منهما يتساءل: ماذا، تُرى، يخبىء لنا المستقبل؟

سعيد صار رجلا. بالفعل، لا بالاسم، صار رجلاً. سلام لأيام المراهقة. سلام لأيام اسكندرونة. قبل المبغى، وبعـده. قبل عزيزة، وبعدها، أيّ انقلاب؟ كيف تمّ التحول وهو لايدري؟ متى صارت المرأة شهوة مسعورة في جسده؟ أين تلك اللامبـالاة، يوم الجنس استثاره، لكنها لاتحُرق، وسرعان ما تُنسى، إذ هو لايعرف طعمهـا ولم يجرّب الجنس مـع امرأة بعـد؟ في السجن بقي ثلاث سنوات، وكان في عزّ المراهقة، لكنه لم يكن قد عرف المبغى ولانام مع عزيزة، لذلك فإن مراهقته ظلّت أحلاماً في اليقظة أو المنام، تأتي وتمضي دون أن تترك أثراً موجعاً.

الآن، بعد عزيزة، شعر أنه امتلك الدنيا، يستطيع، هو أيضاً، أن يباهي كما يفعل الرجال في الميناء. إن له عشيقته، له طعامـه الدسم، هو المحروم، فلم يعد يتوازن، خيّل اليه أن اقتناص المرأة سهل، وأنه، بشبابه، قادر أن يغوي أية امرأة، ولأن عزيزة قالت له إن جسمه، الذي كان يعرّضه للشمس، قد كان سبباً في إغوائها، فقد

طفق يتنرجس بجسمه، يتبجّح بفحولته، يكثر من الكلام على النساء والجنس، أو يشرد وهو يقود الزورق مفكراً بكل هذه الاشياء الطارئة. إن لوثة الميناء، نتنها، الزنخ الخلقي فيها، وجد لديه قبولا، وتحت جلده سرت الجراثيم الوبائية لكل ما هو فاسد في الميناء.

وقال له بحّار عجوز، يعمل معه في زورق واحد، وقد لاحظ التبدّل عليه، واندفاعات التبجح أو التفكير التي تُلمّ به أثناء العمل: «أنت رجل ملء ثيابك يا سعيد! أنت قويّ كثور، وليس الا البحر أو المرأة من يروّضك. لو ذهبت في البحـر كنت تتعرف عـلى نساء المرافىء، ولا تلبث أن تهدر طاقتك العارمة في أحضان عاهرات يُتقنّ استلاب الصحة والمال. كنت تعود من كل مرفأ بمرض، وحين، في الباخرة، يثور ألم السيلان أو الزهري وتخضع لمعالجات قاتلة، لطولها ونوعها، وما تتطلب من صبر وتضحية، تتعلّم أن تكبت شهوتك، وألّا تقذف بنفسك في أحضان أوّل مومس تصادفها. إسمع! أنت إنسان. معنى هذا، لك عقل تميز به، وفي هذا يفترق الإنسان عن الحيـوان. البهيمـة ـ حـاشـاك الله ـ لا تـرعى العشبـة السـامـة. تتحاشاها. تتجنّب سمّها. أماالبحّار، فإنّه، بعد أسابيع في البحر، ينقلب الى ما هو أدنى من البهيمة، ولا يميّز بين النساء قط. لا يتجنّب سمومهن ولا أمراضهن، من أجل ذلك يفتك به التعب، والمرض، والحنين، والسكر، ويهدر قواه هدرا. تعلم إذن أن توفّر قوتك. ألّا تطيل التفكير بالمرأة. ألّا تستسلم لأوّل دعوة، وألّا تقع في مطبّ الاغواء. تقول إن والدك كان بحارا؟ طيب ألم يقل لك كل هذا..؟ لا بدّ أنّه جرب، في حياته البحرية، كل ألوان الفساد، وتعلّم، في النهاية، أن يتجنّبها، وكان عليه، ما دام قد أعدّك لتكون بحّاراً، أن يرشدك الى ما يجب على البحار، وأن يوصيك الحذر في المرفأ، ولا أستثني مرفأنا هذا.. فيه من الفساد ما يكفي، وأراك تنغمس يوماً بعد يـوم... فماذا تبقي للمستقبـل؟ دعِ التفكير، انتبـه الى عملك،

اقتصد في طاقتك وصحتك، فالنساء يملأن الدنيا. تذكّر كلامي هذا، ستتعب أنت، ويتعب الآلاف من أمثالك، ولا تتعب النساء أبداً.

قال سعيدمباهياً بقوته:

ـ تخاف عليّ؟

ـ ولماذا لا؟

ـ ومن النساء؟

ـ هذا هو.. من النساء يا سعيد..

ـ لا تخف، ليس من امرأة قادرة أن تروّضني

ـ كل شابّ، من أمثالك، يقول هذا..

ـ أنا أختلف..

ـ بماذا؟

ـ تعرف أنت..

ـ مؤسف.. بدأ الغرور يداخلك.. ستندم.

ـ على ماذا؟

ـ على جهلك أن المرأة أقوى من الرجل.

ضحك سعيد.

ـ هذا كلام عجائز..

ـ يمكن!

ـ ليس من امرأة أقوى مني.. إطمئنّ.. قادر أن اسحق أية امرأة..

نظر العجوز اليه باشفاق، وقال بنبرة أسف:

ـ طائش، كنت أحسبك أوفر عقلاً وأكثر اتزاناً.. لكن فورة الشباب هي التي تدفعك الى هذا الكلام، أنا لم أكن مثلك، لم أقل ما تقول، لكنني رأيت، خلال حياتي البحرية، وعرفت، شباباً في مثل سنّك، ومثل فتوّتك، ومثل ادعائك أيضاً، وكل يقول عن نفسه إنه سيسحق المرأة التي معه، لكن هيهات، المرأة لا تسحق.

لم يقتنع سعيد.. كان البحر، أشد الاشياء إهاجة للرجل، قد بعث فيه من حميّا الفحولة ما جعله يرفض منطق البحّار العجوز. هو يعرف نفسه. يقدر أكثر من سواه فحولته التي تنزّ فحيحاً في جسده. إنه لا يصدّق أن المرأة تسحق الرجل. من المحال أن تسحقه عزيزة. تتعب معه، لذلك تتجنّبه. تباعد بين اللقاءات لا حذراً فحسب، بل خشية أيضاً. عبثاً أن يخاف امرأة. «أنا الذي أخيف النساء» همس في ذاته «المرأة التي تسحقني لم تخلق بعد...» قال:

ـ اسمع! تريد برهاناً على قوّتي؟ هات حبلاً ودعني أسبح وأقطر الزورق ورائي..

قال البحّار:

ـ وماذا يعني هذا؟ ألم أقل لك إنّك ثور؟ أنا أصدق أنك تقطر الزورق.. لكننا نتحدّث عن المرأة.. أتحسب من يقطر زورقاً، يقطر، بالسهولة نفسها، امرأة؟ إنك طفل يا سعيد.. المرأة شيء آخر.. غداً تجرّب وتتذكّر..

وقال سعيد في نفسه «أتذكّر ماذا؟ هذا العجوز يهول علي. أنا لن أبقى قعيد المرفأ. سأبحر يوماً. سأكون بحّاراً كما أوصاني والدي، وعندئذ نرى إلى نساء المرافىء.. لن أعلق في شراك أيّة عاهرة. قد أدخل معركة في سبيل امرأة، لكن لن أدعها تستولي عليّ أو تسحقني، سأعرف كيف أصون نفسي من النذالة.. محال أن أكون نذلا».

كان معتدّاً بقوّته. كانت هذه القوة تذكّره بنفسها، لكن سيرة والده كانت تذكّره بنفسها أيضاً، ومنذ مغامرته مع عزيزة، طرأ تطوّر تدريجيّ عليه، أحسّ معه بضرورة الاقتراب من حياة البحّارة، هذه الحياة التي كان نداؤها في روحه وجسده قويّاً، آسراً، مغرياً جداً. وفي اللاشعور من نفسه، كان يبحث عن مغامرة ما، تجعله ندّاً

للآخرين، تفرضه حديثاً في الميناء كلّها، تذكّر من حوله بأنه ابن صالح حزوم.

مضت الايام...

لم يعد البحّار العجوز، في الزورق، يتحدّث معه عن النساء. وجده جاهلاً بالمرأة، كما هو جاهل بالبحر. قال في نفسه: «إذا لم يسافر سعيد، تحوّل الى فتى ميناء وغد». لكن سعيد كانت له أسبابه في عدم الانصياع الى النصائح، فإضافة الى عزيزة التي تحبّه، وقع له حادث جديد، جعله يغترّ أكثر بنفسه. ففي أحد مقاهي الميناء، التقى بالرّيس عبد الحميد، بمحض مصادفة، كان، في القديم، يتردّد على هذا المقهى، لكن أحداً لم يُوله اهتماما. بل في البدء تساءلوا عنه: من هو؟. ماذا يعمل؟ وشيئاً فشيئاً ألفوه. كان يجلس منفرداً، يشرب قهوته ويدخّن، فاذا انعقدت حلقة من البحّارة، في صدرها ريّس يتحدّث عن تجاربه، أو يروي حكاياته البحرية، زحزح كرسيه، حذراً، متلطّفاً، وانضمّ الى الحلقة يستمع الى ما يقال، دون أن يتكلّم، أو يطرح أيّما سؤال. في هذه الحال فقط، كان ينسى نفسه وفتوّته، ويمتلىءإعجاباً بمآثر البحارة. يعود إلى عالم البحر، ذلك الكون الساحر الذي انفتح لعينيه في رؤى مرسين، حين كان والده يتحدّث الى البحارة، أو كان هو يطوف في الميناء، أو يسمع رجال الحي يحكون عما وقع لهم. كذلك كان يتذكّر ميناء اسكندرونة، وما وجد في أجوائها، من أشكال حياتية تطبيقية لما كان يسمع، فيتحمّس ويختزن في نفسه بعض المشاهد، إما لتقليدها، أو لاسترجاعها والاستمتاع بها. لقد بلغ من غرامه بحياة البحارة أنه اشترى عمرة صوفية للرأس، وفكّر أن يلبس شروالا، فاذا كبر وصار ريّساً لبس «الست كروزا» الحريري، وخطر له أن يجلب الى البيت بعض

الأدوات البحرية، وأن يجمع نقوداً لشراء مركب صغير مما تتزيّن به بيوت البحّارة.

في إحدى هذه الحلقات، تكلّم الريس عبد الحميد عن اللواء ذات يوم، خصّ اسكندرونة بكلامه، قال عن بحارتها كلاماً حلواً. فسأل سعيد، منتشياً بما يسمع، محمولاً على موجة الإطراء لسكّان ذلك الحي الفقير الذي شبّ فيه:

ـ هل عشت طويلاً في اسكندرونة يا ريس؟

التفت رجال الحلقة اليه دفعة واحدة، كأنما يكتشفونه بينهم فجأة. قاسوه طولا وعرضاً، توقّفوا عند سمرته، وكتفيه العريضتين، وشاربيه الأسودين، وكل الرجولة الفياضة المتبدّية منه، وقال الريّس عبد الحميد مجيباً:

ـ عشت فيها؟.. لكنني، بطبيعة العمل في البحر، كنت أتردد عليها كثيراً. كان الخطّ البحري من يافا الى مرسين، مروراً ببيروت واللاذقية واسكندرونة، هو خطّنا، وكم حملنا الحبوب من تركيا الى فلسطين، والبرتقال من يافا الى مرسين، والعائلات والبضائع من كل هذه الموانىء.

ـ إذن تعرف مرسين أيضاً؟

ـ قلت لك خطّنا البحري كان يمرّ فيها.. بلاد غنية، برّ الأناضول برّ غنّي.. لكن الحكم التركي، آه.. ثم اسكندرونة وفرنسا. الكريزة خربت البيوت، وبعدها أكملت الهجرة.. لي أصحاب كرام من بحارتها، ترى أين هم الآن؟

تكلّم بحّار نصف في الحلقة مؤكداً حقيقة معروفة:

ـ نحن بحّارة بحر واحد.. نعرف الماء في كل هذا الساحل شبراً شبراً..

قال سعيد:

ـ أنعم وأكرم.. رجال والله.. هكذا كنت أسمع من والدي.

سأل الريّس مستدركاً:

ـ الاسم بالخير؟

ـ سعيد.. سعيد حزّوم..

ـ وما يكون لك صالح حزوم؟

ـ والدي!

قالها سعيد بفخر واعتداد، كأنما كان ينتظر، منذ وصل اللاذقية، سؤالاً كهذا، وفي مقهى للبحّارة بالذات. وبين دهشة الحاضرين وارتياحهم، نهض الريّس من مكانه، في صدر الحلقة، وهو يقول برنّة إعجاب صادقة:

ـ صالح حزّوم والدك؟.. لا أكاد أصدّق.. يا للمصادفة الغريبة! إسمح لي يا بنيّ، إسمح لي(وقبّل رأس سعيد) أنت ابن أخي ولا أدري.. من جاء بك إلى هنا؟

ـ الأيام يا ريّس.. هجرة اللواء شملتنا جميعا.. ما عدا الوالد..

ـ كيف؟

ـ الوالد هاجر قبلنا.. ذهب في البحر لا ندري الى أين.. هرباً من فرنسا التي كانت تطارده.

استدارت رؤوس البحّارة اليه. كبر سعيد الآن. فجأة صار كبيراًوقريباً. «إنه منّا» قالوا في أنفسهم.. يكفي أن تطارد فرنسا والده حتى يكون منهم. هنا المرفأ يا سعيد. هنا بيت الرجال. هنا الذين، عبر البحر، اتّصلوا بالعالم، واحتكّوا بالوطنيين، من مصر الى فلسطين فلبنان. هنا الذين، تحت لبّاداتهم، ينعقد الشرف الوطني، وفي صدورهم تتأجّج نار المقاومة.

قال الريّس مبهوتاً مما يسمع:

ــ ألم تعرفوا على أيّ مركب سافر، وإلى أين؟

تدخل بحّار فقال:

ــ سمعنا بالقصة والله يا ريّس.. (وملتفتاً الى سعيد) أليس والدك الذي قيل إنه غرق في باخرة الكاز؟

ــ والدي لم يغرق.. بحثت عنه في كل عنابر الباخرة فلم أجد جثته.. بدلاً منها عثرت على جثة متفسّخة لبحّار فرنسي.

ــ لم أفهم ــ قال الريّس ــ ماذا كان يفعل والدك في باخرة الكاز؟

روى سعيد القصة. شرح كيف احترقت باخرة الكاز وكيف غرقت. تحدّث عن نزول والده من الجبل ليلاً لإخراج صفائح الكاز، وكيف فُقدت آثاره، وماذا جرى بعد ذلك، ولم يَنْسَ أن يذكر الحكم عليه هو بالسجن ثلاث سنوات، وهجرة اللواء التي تلتها.

ــ يا بطل! (صاح الريّس) في سبيل الوطن ما حلّ بوالدك وأسرتك.. الله ينتقم من فرنسا يا بنّي.. والدك عمل معي على مركب واحد. كان ذلك قبل هجرته من مرسين.. أنا أعرفه جيداً وأعرف أخباره.. حادثة النهر لا تنسى.. أبوك كان بحّاراً لا يجارى.. أحببته مثل أخي، وأنت ابن أخيَ الآن. أين تعمل؟ وماذا حلّ بالعائلة؟

شعر سعيد بالراحة والزهو. ههنا من يعرف والده إذن. البحارة عائلة واحدة، وأخبارهم تنتقل من بلد الى بلد. كفاح والده في البحر، وضد فرنسا، وفي سبيل الحي، أشياء ترفع الرأس، عليه أن يرفع رأسه. هؤلاء البحارة إخوانه وأهله، ولن يكون غريباً بينهم. الميناء ليست للتهريب والقتل والمخدرات فقط. لها جانبها الآخر، العظيم، الذي يعثر عليه البحّار فجأة، كما يعثر على كنز. قال في

نفسه: «يا ليت عزيزة هنا. يا ليتها سمعت ما يقال عن والدي وكيف هتف بي الريّس «يا بطل» وماذا كان وقع كلامه على من حوله.

تنازعه، في ذات الزهو، شعوران من التواضع والتشوّف. استشعر تواضعاً أمام الريّس عبد الحميد، وتشوّفاً أمام الآخرين، أمام ناس الميناء، بمن فيهم عزيزة. «كان عليَّ،قال في ذاته، أن أكشف عن نفسي من زمن بعيد. البحّار، في النهاية، له شجرة عائلة، ترى ما هي شجرة عائلتي؟ أجدادي الاول، كانوا بحّارة؟ لو عرفت تاريخ هؤلاء الأجداد، وتحدّثت به للبحّارة، أيّ مكانة كنت أحظى بها؟» ضاق جلده عن جسده. كبر الجسد وتفتّحت مسامه لكلّ كلمة إطراء جديدة. صار راغباً في الحديث، في الكلام على أبيه، لكن الحياء منعه من التمادي، فأحسّ بحيرة حيال السلوك الواجب في مثل هذه المواقف.

كانت لديه فتوّة لا يعرف كيف يتصرّف بها، وطاقة يجهل الوجه الصحيح للإفادة منها، وفحولة تستثيرها يوديّة[1] المياه المالحة، وقد اجتمعت كلها وتوحّدت، مضافاً إليها ما سمع من كلمات الريّس عبد الحميد، فاندمج كل ذلك في عالم البحر، وذاب في المجرى الكبير لأسرة الرجال الذين تمتدّ مملكتهم لتشمل ساحل المتوسّط الشرقيّ كله، والذين لا يتحدّون العواصف في اللّجة وحدها، بل على الشاطىء أيضاً، في مرسين واسكندرونة واللاذقية وبيروت وحيفا والاسكندرية، فهم يكافحون حيثما وجدوا، ويقتلون القروش حيثما وجدوها، ويتصدّون لشراسة النوء كما يتصدّون لشراسة الاحتلال.

وقال له الريّس بعد أن سمع منه كل شيء:

ـ من لا يعرفك يا بنيّ يجهلك.. كان البحّارة يتساءلون؛ من

(١) اليود سائل طبي قوي الرائحة.

هذا الغريب؟ لماذا يجلس ويسترق السمع إلينا؟ نحن لا نخاف فرنسا. ولكننا نتحاشى الغرباء خشية أن يكونوا من زلمها المندسّين في مقاهي الميناء.. لقد عاملك البحارة بحذر.. هذا واجب.. الحذر واجب.. لكنّنا الآن نعرف من أنت، من أبوك، نعرف ماضيك، وسابقتك في الجهاد.. أنت ابننا وأخونا الآن.. أبشر.. كل شيء سيكون على ما يرام.. قل لعائلتك أن تأمن وهي في جوارنا. افتحوا بابكم وناموا.. لا تأبهوا إلا للحقّ.. من يرفع يده عليكم نكسرها، ومن يعتدي على أسرة بحار فكأنه اعتدى على أسر البحّارة.. غداً آخذك الى ريّس الميناء، وأنزل معك الى المرفأ، وسألقاك في هذا المقهى كل يوم.. صرت منا وفينا.. لك علينا حق، ولنا عليك حقوق.. فرنسا لن تبقى في هذه البلاد، هذا الميناء لنا، وهذا البحر لنا، بحرنا، ولا تسأل عن المحكومية السابقة. السجن في سبيل الوطن شرف. كلّنا سجناء، أو سنسجن، وكلّنا لا نحمل ورقة «لا حكم عليه» ولا نحتاجها.. السلطة تغمض عينها. تعرف أن قانوننا هو الذي يسري هنا.

قال ذلك بهدوء وحزم. وبعد أن لفّ نربيش ناركيلته على الزجاجة، نهض الريّس عبد الحميد وهو يسوّي زنّاره الحريري على سرواله الأبيض، وقام البحّارة لقومته، وكذلك فعل سعيد، وارفضّت الحلقة فتفرّق البحّارة في كل صوب.

كان جوّ المقهى ضبابياً من الدخان. وفي سقفها القبوي المعقود من حجارة، على شكل قبة ذات أضلاع، كانت سحب الدخان تتلبّد، وعلى الجدران كتابات وصور بواخر مما توزّعه شركات الملاحة، وثمة مرآة مكسورة، ويافطر قرب الباب، كأنما المقهى اتّخذه رمزاً، وعلى طاولة صاحب المقهى، قرب صندوق ورق اللعب وطاولات النرد، مركب صغير، مما يصنع في جزيرة أرواد، والمقهى يغصّ

بالبحارة ذوي اللبّادات والشراويل، وهناك عمال المرفأ، يتميّزون بالشراشير الحديدية في خصورهم، ورائحة التبغ والتنباك، وقرقرات النراكيل، وضوضاء صاخبة، كأن هؤلاء الزبائن قد اكتسبوا من البحر عادة الكلام بأصوات مرتفعة، وبشتائم مقذعة، بغير حساب أو مبالاة.

وقال سعيد في نفسه: «في مثل هذا الجوّ عاش والدي. سأجد بين هؤلاء البحّارة، وخاصة الكهول منهم، الكثير ممن يعرفونه. أنا لم أعد طارئاً على الميناء. منذ اليوم صرت واحداً من أبنائها. سيطول لي الزمن لأدرك مكانة والدي. بل سيطول بي الزمن لأدرك مكانة الريّاس. هنا الزعامات لا تتوارث. يكتسبها البحار بشجاعته، بصبره، بتضحيته، وبرجولته أيضاً. أنت لا تعرف، رغم الحفاوة التي استقبلت بها اليوم، متى يدوس الآخرون على رجلك، متى ينتقصون من قدرك، متى يجرّبونك ليروا أعصاباً وراء جلدك أم تبناً. سوف تلبس لبّادة، وشروالاً، وحذاء معقوفاً، وتدمن على الناركيلة، والسكر، والنساء، والموت.. الريّس قال: «لك عندنا حق، ولنا عليك حقوق» معنى هذا أن عليك أن تدفع الثمن. قد يعترضك غداً فرنسي، قد يشي بك واش. ربما واجهت السجن من جديد في كل لحظة ينتدبك الريّس لعمل ما: تهريب حشيش، تهريب أسلحة، خوض معركة لكسر زند السلطة، لا تقل ماذا يجري، ما هو منتظر أن يقع. استعدّ أبداً. ستجد هنا من يحميك، لكن عليك أن تحمي الآخرين. حين يجدّ الجدّ يبرز البحّار مارداً تنشقّ عنه الأرض، أو يغور جرواً صغيراً فيها. والدي لم يحدّثني كثيراً عن حياة المرافىء. لم يقل لي أشياء كثيرة عن سلوكياتها وأخلاقها. تركني لأتعلّم بنفسي. وثق بجسارة قلبي ورجولتي. أنا هنا امتداد له. من أكون لولاه؟ من هو سعيد حزوم دون صالح حزوم؟ ولماذا قبّل الريّس رأسي؟ هيبة والدي تحيطني. تصير هالة حول رأسي. أعزّزها أم أحطّمها؟

الريّس، منذ البدء، أنذرني: «لنا عليك حقوق» معنى هذا انتبه! هنا لا يتعاملون بالماضي وحده. حاضرك يؤكد ماضيك. يحدّد مستقبلك أيضاً. أن تخوض الموت مئة مرة، وترتدّ عنه مـرة تسقط. البحّار العجوز الذي أعمل معه في الزورق قال كل ذلك بأشكال مختلفة. كان علي أن أصغي إليه بكل حواسي، ليس خرقاً هو. العمر يتكلّم. حين تصير مثله تتكلّم أيضاً، ويسمعك الشباب كما سمعته اليوم. قال لي والدي يوماً: «مدرسة البحر على رؤوس الصواري، هناك صفوفها» في الزورق أيضاً لها صفّ، وفي المقهى لها صفّ، وفي منطقة المرفأ، على الصخور، لها صفّ، هناك تظهر الأشباح كل ليلة. أنت لن تخاف منها بعد اليوم. ستتحوّل أنت نفسك إلى شبح. لا تجلس على كرسيّ وتمسحه. لاتقرف من رائحة السمك. لا تتقزّز من نتن الميناء، لا تخف على قميصك أن يتمزّق، ولا على شروالك أن يتّسخ. الحياة، هنا، نار، والنار تطهّر كل شيء.

أشعل سيكارة وعبّها بشراهة ولذة. كانت عروقه متفتّحة. كان الآن يستشعر نشاطاً لكل شيء. فكّر بوالدته: «ما زالت تعمل في الريجي. دخله وحده لا يكفي العائلة. إذا تحسّن وضعه فسيطلب منها أن تترك العمل. إذا رفضت سيرغمها. سيتوسّل إليها. «كرامة لوالدي. إذا عاد غداً وعرف أنك تتعذّبين على هذا النحو، فماذا يقول؟ عندما كنت في السجن كنت مضطرة للعمل. أختي صارت صبيّة. أنا لن أخاف عليها بعد اليوم. لن أخاف عليكم. لم يُخلق الذي يتحرّش بكم. قال الريّس عبد الحميد: «ناموا واتركوا بابكم مفتوحاً». شكراً يا ريّس. وجودي كفاية. وحدي بعشرة. الميناء بؤرة ذئاب، لكنهم يعرفون أن بيتنا وكر ذئب أيضاً. في مثل سنيّ يتزوّج البحّارة. أنا لا أستطيع، ما دام والدي غائباً وإخوتي صغاراً فلن أتزوّج. ليس لدي الإمكـانيات. ليس في مقـدوري أن أفتح بيتين. ثم لماذا الزواج؟ ها هي عزيزة ملكي. ثم أنا لن أبقى في

الميناء. غداً أو بعده أنزل إلى البحر. أسافر، أرى مرافىء العالم. مدنها خماراتها، وخاصّة نساءها. البحّار العجوز يهدّدني: «هذه القوة، قال لي، ستمتصّها قحاب المرافىء. هناك النساء يسحقن الرجال». حسناً! سترى أيها العجوز الطيّب. أنا سعيد حزوم، والمرأة التي تسحقني ستكون ملكة النساء. لن أوفّر امرأة في أيّ مرفأ. سأدخل معركة مع النساء. وعندما أجد المرأة التي تسحقني سأرفع منديلي راية. استسلم نهائياً. أقلع عن معاشرة البغايا. أعود فأتزوّج. قبل ذلك لا. أنت، يا صاحبي العجوز، تحدّيتني. قبلت تحدّيك. سأكون صادقاً. أقول لك ما يجري معي بغير كذب، واذا لم أجدك أقول للبحر. هذا صاحبي وصاحبك. هذا حَضَر رهاننا. سمع ما دار بيننا، وإذا عجزت، يوماً، سأقول الحقيقة له، أستغفره، أتوب على يديه».

غادر المقهى وهو يفتل شاربيه، استنشق الهواء البحري الابيض. ترطّب داخله. كانت الريح بليلة. المساء يقترب. سيدخل البيت قليلاً ويخرج الى المدينة. من المؤسف أنه ليس في الميناء نساء وخمارات. التقاليد لا تسمح بذلك. هذا يجري في الكازينو فقط. وقال في نفسه: «لماذا لا أقتحم الكازينو؟» ابتسم لفكرته الطفوليّة. أدرك أنه يتعجّل الاصطدام بالفرنسيين. نظر في الافق الصيفيّ وقال آسفاً «ليس هذا وقت العواصف..» لكنه سرعان ما تذكر أنّه على البرّ، وأن نزال العاصفة يكون في البحر، في أعماق البحر، عند اللجج البعيدة. عليه إذن أن ينتظر حتىّ يصبح بحّاراً. في الميناء ليس إلا المعارك القذرة. خَبِرها في اسكندرونة. هذه المعارك لا تصنع مجداً بحريّاً. والده كان يأنف منها. كان يوفّر قوته لشيء يستحق. زفر وتساءل: «ماذا في الميناء مما يستحق؟» قرّر: «لا شيء» وانعطف في الدرب الضيّق الموصل الى البيت، وهناك وجد الصبيّ الأسود ينتظره.

كاد سعيد يقفز للمفاجأة. ليس لأنه سيلتقي عزيزة، لكن لأنه

سيلتقيها الليلة بالذات. «جاءت في وقتها، قال في نفسه، في وقتها تماما.. أنا لست سعيد الذي تعرفينه يا عزيزة. لم أعد الفتى المجهول، الخائف، المتردّد، الذي كنت تستقبلينه وهو نكرة. أنا سعيد حزوم، الذي قبّل الريّس رأسه، ووضع البحّارة أيديهم على صدورهم وهم يقولون: «أنعم وأكرم» عند ذكر والده. أنا لن أدلّ عليك. حبّك على الرأس. معروفك على الجبين. كنت حبيبة وكنت صادقة، لكن فرحة سعيد الليلة طاغية. وإذا كان لم يخض معركته الخاصّة بعد، فإنه يستلف من معارك والده. من الخير أن زوجك تاجر وليس بحّاراً. لو كان بحّاراً لتسبّب لي في أزمة خلقية. كنت أشعر أنني أخون حقّ الزمالة. كنت أعود الى المقهى غداً وشعور بالذنب يفترسني. أنا تعلّمت اليوم، احترام الأخوة البحريّة. لن أصطاد من المقلاة. أنتظر بحّاراً حتى يسافر وأغري زوجته المحرومة. أو أبحث عن شيخ بين البحارة، وأقتنص زوجته الصبيّة بشبابي. في كل الأحوال أنت، يا عزيزة ، لست زوجة زميل في المهنة، ولا شريك في مواجهة العاصفة، ولست أخت مناضل أو ابنته، وهذا الدافع يخفّف عليّ، ويجعل لقائي بك اليوم خالياً من تأنيب الضمير».

تبع الصبيّ الأسود الى ساحل البحر، هناك تسلّم منه تلك الورقة الصغيرة المطويّة على شكل مربّع، والتي تضرب فيها عزيزة موعداً للقاء. إنه منتصف الليل كما توقّع. في هذا الوقت تكون المدينة قد نامت، والميناء أقفرت، وعلى صخور الشاطىء جاست الأشباح واختفت. لا يبقى إلا الصبيّ الأسود أمام الكهف، يسير أمامه صامتاً عبر الدرج المتلوّي، الدرج الذي لم يعد بحاجة الى دليل لارتقائه، ولا الى شمعة ليتبين مواطىء قدميه عليه. لقد فارقه ذلك الوجد والاهتياج. دقّات ساعة السراي لن تحطّم أعصابه بتواردها البطيء. ولن يستفزّه الزحف الرتيب، غير المرئي من بعيد، لعقربيها. قادر على أن يتصبّر، على أن يتصرّف بهدوء. على أن ينتظر في البيت ويقرأ قصة

ما. على أن يلجم شهوته الموّارة، بما يَعِدها من شبع كامل تتلف منه عزيزة، وتعتذر عن الاستمرار، وترفضه، أخيراً، بعناد.

وقال في نفسه: «اليوم ليس كسائر الأيام. ما وقع فيه استثنائي جدّاً، صحيح أنني لم أبارَك كبحّار، ولم أحصل على شهادة أيّما ريّس فوق مركب يصارع الموج، لكنني كسرت جمود النظرات من حولي. صار في وسعي أن أطمئنّ الى قبولي في العائلة البحرية. إنه الفاتحة. بدء الطريق الطويل. الخطوة الاولى نحو الإبحار. لهذا أجيز لنفسي أن أحتفل بهذه النتيجة السارّة، المدهشة، غير المتوقعة، التي نقلتني من عامل في الميناء، إلى بحّار معروف النسب. وسأحتفل بها وحدي، بهدوء، دون إثارة مشاكل تعوقني عن موافاة عزيزة الى ميعادها».

جلس في خمارة صغيرة في المدينة. كان العرق هو الشراب الوحيد الموجود والمتداول. سيوفّر على نفسه عناء التجوال في المدينة. أما البيت فقد مكث فيه الى الساعة التاسعة. قصّ على والدته وإخوته ما صادفه في المقهى من ترحيب وتكريم لمجرّد أن عرف البحارة أنه ابن صالح حزّوم. كان هذا حدثاً طيّباً بالنسبة للجميع، رغم دموع أمه التي انبجست من محجريها الغائرين، ما إنْ ذكر والده، ورغم تساؤلها، بالمناسبة، عن أخبار هذا الوالد، ومتى يعود.. لقد بذل جهداً ليؤكّد لأمه، ولنفسه قبل ذلك، أن والده حيّ، وأنه سيعود، وأنه سيعمل في البحر، حين يعمل، بهدف البحث عنه، إضافة الى ممارسة المهنة التي يحبّها، والتي نذره أبوه لها. «والدي ــ قال ــ لا يستطيع العودة ما دامت فرنسا موجودة، لكن فرنسا لن تبقى في هذه البلاد. هذا ما أكّده الريّس عبد الحميد اليوم. إنها مكروهة مثل الأتراك وأكثر. لو سمعت بأذنيك ما قاله الريّس عنها، ورأيت الحقد عليها والعزم على مقاومتها. المدينة كلها، لا الميناء وحدها، تضمر الحقد نفسه، العزم نفسه، وفي أول فرصة، كما حدث

في اسكندرونة تقوم المظاهرات، وتثور المدينة عن بكرة أبيها».

أمه اعتادت الإذعان أمام والده، أذعنت، بحكم الاستمرار، أمامه أيضاً. سألت الله أن يحقّق ما يقوله ابنها، أن تخرج فرنسا ويعود زوجها. ارتاح إخوته أيضاً. تمنّوا، في أعماقهم الطفليّة، أن يعود والدهم بسرعة. أسعدهم أن يبسط حمايته عليهم حتى وهو غائب، وأن تكون له كل هذه السمعة بين بحّارة اللاذقية أيضاً.

هكذا كان اليوم، بالنسبة لسعيد، يوماً للانشراح والزهو. تبدّى هذا في جلسته، في استعداده للعراك، وفي شربه الذي اتخذ طابع الهواية، وفي انديباح الرؤى أمام ناظريه المصوّبين الى الشارع دون أن يُعنى بما فيه، لتصوّره، سلفاً، لذائذ جلسة المساء، حين تكون عزيزة على ركبتيه، شبه عارية، وفي متناول يديه خصرها وصدرها، وشفتاها على شفتيه، تسعدانه بذلك التلاقي المثير للحم مخمليّ حارّ. ولأنها التجربة الأولى للشراب قبل أن يذهب اليها. فقد دبّت النشوة في جسده الفتي دبيباً ناعمًا، لذيذاً، موقظاً كلّ الاشتهاءات البدنيّة، كأنما وظائف أعضائه قد تضاعفت، وعروقه تفتّحت عن قابلية غريبة، وفي عينيه أومض شوق مبرح، كأنه لم يأخذ عزيزة من قبل، أو لم يأخذها أخذاً كافياً، ولم يجعلها تتأوّه طويلاً، حتى ينقلب تأوّهها إلى إثارة قاتلة في أذنيه. وفي غمرةهذه النشوة لكل التصوّرات الحسية كان يغمض عينيه ويستحضر جسدها لخاطره، تاركاً ليديه وشفتيه والألسنة الحمر المندلعة من جسده، أن تلامس، وتمسك، وتداعب، وتلعق، وتمتصّ كل النسغ الشهواني في الجسم الانثوي الضاجّ بالرغبات أمامه.

وعندما انحدر في طريق الميناء، قرب منتصف الليل، كانت النشوة قد سلطنت عليه، وتمركزت على فكرة واحدة: أن يسحق عزيزة. التحدّي ليس موجّهاً إليها، غير أنها واسطته. سيثبت لنفسه أنه كما أكّد لذلك البحّار العجوز واكثر، وأن قوّته فيّاضة الى درجة أنها

تكفي لجميع نساء الأرض. وقال في نفسه وهو يرتعش لفرط اشتهائه: «أنا لست قرشاً على كل حال. لن آكل هذه المرأة مع أن لديّ كل الاستعداد لأفعل ذلك. اللّهم حُلْ بيني وبين أن أفعل ذلك. اجعل فمي يمتنع عن قضمها، ففي هذه اللحظات، أحسّ أن وحشاً مخيفاً، شرساً، يعيش في داخلي، ويطلّ من أنيابي ونظراتي.»

نفعه هواء البحر البليل الذي كان ينسم غربيّاً. هدأت سورة هياجه. طامن من نفسه التي كانت تجيش بعدوانية لامبرّ لها، سوى انقلاب صورة العلاقة بين المرأة والرجل الى نوع من العراك التناحري رغبة في اللّذة مع القهر، مع هدم الآخر الذي هو شريك متعة وحياة. وكان تمثّل الفوز الساحق في المعركة المقبلة ينبت في ذاته إشفاقاً على عزيزة. أشفق على ضعفها من قوته، وعلى نحولها من امتلائه، وتصوّر جسمها اللّدن، الغضّ، ينصهر بين ساعديه القويّين، ونهديها، وهما لعبتان مدوّرتان صغيرتان، في قبضتيه الخشنتين، ينعصران حتى تصيح من الألم، وقال في نفسه: «إنها حبيبتي بعد كل شيء. يحسن ألاّ أعاملها معاملة امرأة مرفأ. قد أقتلها اذا لم أكبح شراهتي. إنها رقيقة حتى لأخاف تحطّمها، وما ان تطلب الكفّ عن ذلك الشيء حتى يكون عليّ أن أتراجع عنها».

غير أن سعيد، ما ان صار مع عزيزة على سرير واحد، حتى اندفع، لاشعوريا، في محاولته المبيّتة لسحقها. تباهى، دون استفزاز منها، بقوّته الجنسيّة الفائقة. عنف في تقبيلها، وفي ضمّها، وفي ضغط ساعديه على جذعها. فحّ بكلمات جنس مكشوفة في أذنيها، قال لها متوعّداً: «الليلة سنبقى الى الصباح.»

وفكّرت هي أن ذلك كله بسبب نشوة الخمر، مالت الى مسايرته، مع بذل جهد لتهدئته. حسبت، للوهلة الأولى، أن هياجه ناجم عن الشوق، لكن عدوانيّته كانت تتصاعد، تعبّر عن نفسها بحركات

شرسة، ولم تلبث أن فهمت أنه يريد قهرها، وأن المعركة بينهما، رغم مظهرها الجنسي، هي معركة بين الرجولة والأنوثة، وأن المشاركة الانسانية، في اللقاء بين حبيبين، مفقودة، وأن عليها إما أن تصرخ به، تزجره، تطرده عند اللزوم، أو تغلبه وتذلّه، وكان هذا موجعا لها، لكنه الموقف الذي لابد منه، أمام غطرسته الصارخة.

قررت أن تتجلّد. لم تئنّ ولم تصرخ. لكنّها لم تتجاوب. لاحظ هو ذلك. أدرك أن عزيزة لاتمنحه نفسها. قرأ عتباً في عينيها. رأى ألماً. أحسّ رفضاً. استشعر كرهاً، فزاد هذا في سخطه وعنفه. تحمّلت هي الصدمة وبدأت تمتصّها، أظهرت الامتعاض واحتضنته، مرغمة إياه على المواصلة، وكيلا يبدي العجز، استنجد بفتوّته، وبذل جهداً خارقاً. توسّل إليها، بنظراته، أن يستريحا قليلا، وحاول أن يقفز عن السرير، فأمسكت به، وأرغمته، من جديد، على المواصلة، وقالت ساخرة: «أين الذي يريد أن يبقى الى الصباح؟» وأجابها: «لنسترحْ قليلاً.. لنشرب فنجاناً من القهوة» لكنّها كانت قد شرعت تتذوّق نصرها الخاصّ، وتتقدم بينما هو يتراجع، وفي عينيها شعّ ذلك الوميض الذي يعبّر عن انتقام بأكثر مما يعبّر عن رغبة، وللمرّة الثالثة، وهو يلهث، باشرت الطلب، وبإلحاح، فامتثل لها، لكنه لم يستطع فوراً.. ولأنه استعجل ذاته، فقد دخل في تحدٍّ معها، وعندئذ كان الكفّ.. لقد توقّف عن أن يكون نافعاً. «كيف؟ يا إلهي، ماذا أصابني؟» قال في نفسه، ونبت، لأول مرة في حياته، ذلك الخوف المذلّ المحطِّم الذي ينتاب الرجل أمام المرأة، وفي هذه الحال، كان يحتاج إلى كلمة مجاملة، الى عبارة تشجيع، الى اقتراح هدنة، لولا أن عزيزة، دون أن تدري لماذا، اندفعت في ممارسة شعور عدواني بدورها، شعور لايقل حقداً عن ذاك الذي تجلّى في صوتها وهي تقول له «هنا! على سريره». لم تعد تخشى ساعديه، ولا كفيّه، ولا بطره الأرعن، بل هي، الآن، تريده حقيقة، تريده وهو عاجز، تريده وهو يهرب، مستشعراً أن لانفع منه

بعد. ثمّ مالت الى السماح، «تعال إليّ يا حبيبي» قالت له، عازمة على ان ترقده الى جانبها، أن تنصحه بالراحة قليلا، أن تهدّىء اضطرابه الذي لامبرّر له سوى أنه مصدوم ولا خبرة له، لكن سعيد الذي هوى من شاهق، كان ارتطامه بالارض موجعاً بأكثر مما قدرت. إن قوته التي حسبها فيّاضة الى درجة تكفي نساء الأرض جميعاً لم تكفِ امرأةً واحدة. صحيح أنها غدرت به، استعجلته، سخرت منه، انتقمت من عدوانيّته بعدوانية أفعوانية، قالت له كلمات خجل منها وتعقّد، إلّا أن ذلك كله، لم يدمل الجرح الذي انفتح في داخله، في كرامته، حتى أن التماس الأعذار لما صار، كان يعمّق الإحساس بالجرح، ويجعل من عزيزة في تلك اللحظات الرهيبة، عدوّةً لاصديقة. وبصوت أبح، متهدّج، ينطوي على رغبة قاتلة بالإهانة، رغبة في قهر ذلك الجسد الواهي، بالكلام، بعد أن عجز عن قهره بالفعل، قال لها: «يا عاهرة» وكان جوابها صاعقاً، بارداً، مذلاً، عبرت عنه برفسة من قدمها في صدره وهي تقول له: «قم.. أنت لست برجل» وللفور رنّت صفعة على خدّها، صفعة مدوية، قفز بعدها عن السرير وجلس عارياً على المقعد وانخرط في بكاء عنيف متشنّج، بينما كانت هي، من ألم الصدمة، تبكي بدورها، ولكن بصوت مكتوم، شاكٍ، مبلّل بالأسف لكل ما حدث.

٦

في الغداة كان في عمله. وجد في البحر، وحركة الميناء، والطقس الجميل، منفرجاً لصدره. حاول أن يطرح عنه ذلك الأسى الداخلي، أن يستجمع فكره، ويحدّ من تشتّته، ويقبل على الحياة كعهده كلّ يوم، إلاّ أنه رزح، برغمه، تحت وطأة سهوم لم يَقْوَ على التخلّص منه. لقد خسر معركة. كانت هذه الحقيقة لاتقبل المناقشة ولا النقض. خسر معركة كبيرة وخطيرة أحدثت شرخاً عميقاً في رجولته، في اعتداده، في زهوه، ومن المؤسف أنه لايستطيع استعجال الجولة الثانية، ليحقّق انتصاراً يُعيده الى توازنه السابق. الجولة الاخرى مرتبطة بالآخر، ومع غيره لايفيد النصر، حتى ولو تحقّق. هناك أرض بعينها، جبهة بذاتها، نخسر عليها، وعليها نريد أن نكسب، وحين لانكون من أصحاب التجربة، نستعجل النصر، ونتأزّم لأنه لايصير. ولقد أحسّ سعيد بأنه خسر على جبهة الداخل، وهي أصعب الجبهات وأخطرها إطلاقا. لو أنه تعارك، لاستقتل في عراك ثانٍ، واندفع الى الموت بغير حيطة ولاحذر، ولو أنه خسر في البحر، لقاد مركبه باحثاً في اللجّة البعيدة عن مغامرة يستعيد بها كرامته المهدورة. كل ما هو خارجيّ، يمكن مواجهته، يمكن مقاومته، يمكن تحدّيه، غير أنّ ما هو داخلي، يتطلّب مجاهدة من نوع خاص. وبقدر ما كره نفسه على هذه الفعلة غير اللائقة، التي انجرف اليها تحت تأثير غرور مراهق، كره زميله، البحّار العجوز، الذي كان على حق فيما قاله عن قوّة المرأة. إنه لا يستطيع أن

يعترف له بالحقيقة، ولا أن يتخفف من همومه، بالكلام على ما يعذّبه. «لا، قال في نفسه، هذا كلام لايصحّ أن يتجاوز الشفتين. البوح به محرّم. وحتى إدارته في النفس يجب أن تتمّ بهم » في صغره، في حيّ البحّارة في اللاذقية، تهامس الناس يوماً، عن رجل عجز في ليلة الدخلة، رووا أن شاباًّ انتحر لهذا السبب. ضخّموا القضية حتىّ تصوّرها كارثة لمن تحدث معه. كانت الخرافات هناك تنبت على جدران الجهل، لم يكن أيمّا رجل، أو أيّة امرأة، يصارح، او تصارح، أبناءها، مهما كبروا، بأسرار الجنس، كانوا لايتحدّثون، أمام الأولاد، حول شؤون كهذه. وإذا أرادت امرأة أن تقول شيئاً لأخرى، تطلب من الفتى أو الفتاة الخروج من الغرفة، أو من البيت، مما يعطي لسريّة المسألة الجنسية حرماً ورهبة، يستثيران في نفس المراهق، فضولاً مسوّراً بالخوف. وكان الرجال إذا سبّوا أفحشوا، لكنهّم إذا تحدّثوا عن الجنس، غدوا محتاطين الى درجة القول «المسألة محضورة».

وقد لاحظ البحّار العجوز أنّ همّاً يعتلج في صدر سعيد. كانت حركاته آلية تماماً، وفي عينيه قلق واضح، إلاّ أن العجوز لم يفطن الى علاقة الجنس بهذه الحالة النفسية، لو كاشفه سعيد بما في مخيّلته لضحك منه. فغرور المراهقة انقلب الآن الى إحباط وهميّ. كان قادراً، بكلمات، أن يزيل مخاوفه، أو بعضها على الأقل. ذلك أن العجوز يملك تجربته الخاصة، وهو يعرف أن أيّ فحل من الرجال، لايستطيع، دون راحة، أن يقوم بواجبه مع زوجته، او التزامه مع أيّة امرأة، وأنّ نهمًا كالذي كان يستشعره سعيد، ويحاول أن يتصرّف انطلاقا منه، لابدّ أن يؤدّي الى حرج جنسيّ كالذي بعث الوساوس في نفسه، وأنّ كل شيء سينتهي، ما ان يمارس، من جديد، الجنس مع أية امرأة.

قال له:

ـ يا بنيّ، أنت تتعجّل الأشياء.. تحسب أن الأمور ستكون دائمًا

وفق تصوّرك لها.

وقال سعيد بتواضع دهش له البحّار:

ــ أنت على حق . . وها آنا أتعلّم على حسابي.

ــ تتعلّم ماذا؟

ــ لاشيء محدّد. . لكنني أتعلّم. .

وقال في نفسه: «والدي كان بحّاراً عظيمًا، لكنّه رفض دائمًا أن يذكر ذلك. ترك للآخرين أن يتحدّثوا عنه. كان البحر، بالنسبة اليه، قوة جبارة، يحترمها في أعماقه ويباركها. , وكانت المرأة، صنو البحر وشريكته في هذا الاحترام. إنه لم يُباه قط بمهارته كبحّار، ولابفحولته كرجل. كان حقيقياً، لازائفاً مثلي. عرف أقدار الناس والأشياء، ولهذا عرف الآخرون قدره، من أين لحقتني لوثة التبجّح هذه؟ البحّار العجوز استثارني، استفزّني. ضخّم من قوة نساء المرافىء وخطورتهن. قد يكون على حقّ. بل هو على حقّ تماماً، فهذه عزيزة التي كنت أشفق عليها، وأخاف أن أقوّض هيكلها بين ذراعيّ، قد هزمتني دون عناء يُذكر. لقد بكيت بين يديها، بكت هي أيضاً. أنا بكيت من العار، وهي بكت من الألم. فقدنا كلانا ذلك الجوّ الأليف، الودود، الإنساني، دخلنا في لعبة التحدّي. كنت البادىء في ذلك. استجررتها الى اللعبة. أرغمتها عليها إرغاماً. نسيت تضحيتها. رفست نعمتها. عاملتها كبغيّ. كنت شرساً ووقحاً. كنت عدوانياً. من أين جاءتني العدوانيّة؟ كيف سمحت لها أن تسيطر علي؟ لو قدر لوالدي أن يطّلع على ما جرى، لو عرف العجوز بهزيمتي. . من الخير أن أحداً لم يعرف. هذا درس لن أنساه. عليّ أن أصالح عزيزة. أن أستغفرها. سأقول لها كلمات جميلة. فقط لو اجتمع بها. لو تقبل أن أزورها بعد الذي جرى».

ذهب عصراً الى مقهى المرفأ. الميناء تفرغ تدريجياً في مثل هذا الوقت. لايبقى إلاّ الذين يعملون في الليل. الضجّة تخفت شيئاً فشيئاً.

صافرات البواخر تتناقص. يحلو الجو. تبْترد النسمة، الأصيل رائع على البحر. الأصباح والأماسي فاتنة على الشاطىء، وفي مثل هذا الوقت لايكون المقهى مزدحما، من تبقّى من الزبائن يخرج الى الرصيف. يجلس الريّاس الى الطاولات وأمامهم النراكيل. قرقرتها تُسمع بوضوح الآن. الهدوء يسمح لموسيقاها الشرقيّة الخاصة أن تعبّر عن ذاتها. أن تعطي الجوّ مشهده المتميّز. نكهته الخاصة. حتى الأحاديث تقلّ. ينصرف الجالسون على رصيف المقهى إلى التأمّل، ينظرون في تشكيلات السحب المتأججة على الأفق الغربي. ينظرون في داخلهم أيضاً. يفكرون بمصائرهم وعائلاتهم، وعالم البحر العجيب.

جلس سعيد على إحدى طاولات الرصيف يترشّف قهوته. أحسّ أنّه أفضل من الصباح. كان قد تمكّن من لجم نفاد صبره. اقتنع أنّ أيّاماً ستمضي قبل أن تشتاقه عزيزة. لقد أتعسها ليلة أمس. ما سبّبه لها من نفور لن يزول بسهولة. الشرخ الذي يحدث في ثانية، يبقى أثره طويلا. عليه أن يعتاد الصبر، ألاّ يستعجل النصر. ألاّ يكون لجوجاً في طلب التوازن الذي اختلّ. هذا المقهى أضل ما في الميناء. هنا يستريح البحّارة والعمّال . هنا يلتقي الريّاس وبحّارتهم. رؤساء العمل يُديرون العمل من وراء الطاولات. يفهم كل هذه التركيبة، لكنّه غير معنيّ بها، عالمه خاصّ اليوم. سيبقى هو وعالمه وسيكارته. ترى بماذا يفكّر الآخرون؟ هل لدى أحدهم مشكلة كمشكلته؟ إنهم متزوّجون. الزواج راحة. هو لايستطيع أن يطمح الى هذه الراحة. عائلته كبيرة دون زواج، فكيف إذا تزوّج؟ وقال في نفسه: «ترى تتأخر كثيراً عودة والدي؟».

رفع رأسه على شبح يقف أمامه. كان الرجل ينظر إليه بمودّة. استأذنه في الجلوس قائلاً: «تسمح؟» وأجابه «تفضّل» دون حماس. كان

يأنس من نفسه ميلاً الى العزلة، الى الصمت، مكتفياً بتأملّ الشمس وهي تميل إلى الغروب، ساحبة أشعتها، مطيلة الظلال، مشعلة عند الافق الغربي ناراً أرجوانية. إن وقت التأملّ هذا، بعد ذلك الاضطراب النفسي، يشيع هدوءاً لذيذاً في كلّ كيانه. لقد حدثت في داخله عاصفة رهيبة. اسودّ هذا الداخل من غيم، وعصف من ريح، وأرعد وأمطر، ثم صفا. هذا وقت الصفو، وقت التأمل، وقت المراجعة، وكان يستعيض عن النراكيل التي يسحب منها الآخرون، بسيكارة يعبّها نفساً بعد آخر، فإذا انتهت أشعل أخرى، وهو يرى الدنيا من حوله بعينين جديدتين، وانيتين من ضعف، من نقاهة بعد مرض، من صفاء بعد عكر، تكتشفان في الطبيعة من حوله روحاً إنسانية حنوناً لم يكن يعرفها، لأنها لم تكن تلفته وهو يمور بصخب الجسد وما فيه من شبق شغله عن كل ما عداه.

تناول الغريب كرسيّاً وجلس على الحافة المقابلة من الطاولة. قدّم له سيكارة وأشعلها. طلب فنجاناً من القهوة دون سكّر، منتظراً أن يبدأ الرجل الكلام، أن يقول من هو، وماذا يريد منه. ولم يتعجّل الغريب الحديث. بدا هادئاً، دمثاً، واثقاً من نفسه، في عينيه تعبير عن الصداقة، وفي تصرّفه ما يدلّ على أنه ألف التعرّف إلى الناس، والدخول في علاقات خاصة معهم.

ـ أنا قاسم العبد، قال الرجل:

ـ تشرّفنا، أجاب سعيد، وأضاف: أنا سعيد حزّوم.

قالها وتفرّس في قاسم الجالس أمامه، كمن يحاول أن يتذكّر أين ومتى رآه. كان قاسم مربوع القامة، خرنوبيّ الشعر، مفلطح الوجه، وإصبعان من يده اليمنى (لاحظ سعيد بسرعة) ملتصقان برقاقة من جلد، كما هي الحال في رجل بطّة. قال دون مقدّمات:

ـ أنا أعرف والدك..

بوغت سعيد من قولة الرجل. حسب أنه يأتي من هناك، من حيث يقيم والده، وأنه يحمل منه خبراً. لكنّ قاسم الذي ادرك ما ظنّه سعيد، استدرك قائلاً:

ـ أعرفه من قديم.. من اسكندرونة، قبل أن يقع حادث الباخرة.

ـ آه.. قال سعيد.. أنت من اسكندرونة اذن؟..

ـ ليس منها تماماً، لكنّني عشت فيها.. وأعرف حيّ البحارة.. اشتركت في المظاهرة الكبيرة.

ـ عدم المؤاخذة.. أنت بحّار؟

ـ تقريباً.. أعني من جماعة البحر. اشتغلت في الميناء، وفي سكة الحديد.

ـ وهاجرت مثلنا.. بعد دخول تركيا؟

ـ قبل ذلك.. كنت مطارداً مثل والدك..

ـ طاردتك فرنسا.. أليس كذلك؟

ـ طاردني البوليس.. لكن فرنسا هي السبب..

ـ اشتركت في مقاومتها؟

ـ بطريقة ما.. (بعد وقفة) لم أحمل السلاح على كل حال.. كنت سياسياً، ولم تحتملني السلطة.

ـ حسبتك كنت مع والدي في الجبل.

ـ كنت على اتصال معه وهو في الجبل.

ـ هل حدّثك عن نزوله الى البحر؟

ـ الى تلك الباخرة؟ لا.. كنت في هذا الوقت في السجن.

ـ لماذا؟

ـ ضُبطت وأنا أُوزّع نشرات في أول ايار..

ـ عقاب ذلك السجن؟

ـ والتعذيب أيضاً.. السلطة لاتريد الاحتفال بأول ايار.. هذا

المظهر من التضامن العالمي بين العمّال خطر عليها.

ـ وأنتم تصرّون على الاحتفال كل عام؟

ـ هذا عيدنا ، وهو مناسبة لنشرح فيها وضع العمال البائس، ونحدّد مطالبهم، وفي رأسها استقلال سورية وخروج فرنسا المحتلة. السلطات تحسب حساب هذا اليوم. تستنفر قواها. تسيرّ دورياتها.. تقوم بتحرّيات واسعة قبل العيد، لكننا رغم ذلك نجد الوسيلة للاحتفال، للاجتماع، وللتظاهر أحيانا.. وفي كل عام يدخل بعضنا السجون، ويتعرّضون للتعذيب، لكنّ هذا لايخيفنا.. الوعي العمالي يزداد.. في البدء لم يكن أحد يعرف ما هو أول ايار.. وما هي حقوق العمال ومطالبهم، وكيف يناضلون ولماذا؟ وعاماً بعد عام يفهم العمّال الأشياء بصورة أوضح.. يلتقون أكثر، يتضامنون، يؤلّفون حلقات سرية... يناضلون في سبيل تحرير الوطن وتحقيق العدالة، وفي مقدّمة مطالبهم، الآن، انتزاع حقّ تأليف النقابات.

ـ يا لكم من شجعان!

ـ والدك كان شجاعاً أيضاً.. لكنه كان فردياً. تحدثّت معه طويلاً.. له تأثير كبير على البحّارة.. لكن عمّال الميناء أكثر تنظيمًا ووعياً، وكذلك عمال سكة الحديد.. الفردية لاتؤدي الى شيء، وهي اندفاع شخصي ينقصه الوعي. العمّال يناضلون على أساس جماعيّ.. وكانت حركتهم في اسكندرونة أقوى منها في اللاذقية بكثير، رغم خلوّ المدينة من المصانع .. ثم جاءت الكريزة[1] والبطالة ومعها الفقر والجوع. انتهت المؤامرة بسلخ لواء اسكندرونة. تصرّفت فرنسا بغدر خرقت حتى مبدأ الانتداب.. إنها مؤامرة دولية كبيرة.

قال سعيد:

ـ كنت خلال ذلك في السجن.. حين خرجت كانت تركيا على

---

(١) الأزمة.

وشك الدخول.. لم أفهم كيف تمّ ذلك.. عائلتي هاجرت مع المهاجرين.. وها نحن في اللاذقية.

ــ أعرف أنك كنت في السجن، بسبب جثّة ذلك البحّار. كنت فدية عن والدك.. انتقمت السلطة الفرنسية منه لفشلها في القبض عليه.. لابأس، كان لابد من الهجرة..

ــ واللواء؟..

ــ أصبح تحت حكم تركيا.. القصّة طويلة يا سعيد.. المؤامرة كانت مبيّته منذ العشرينات، ففي عام ١٩٢٣، عندما عقدت فرنسا اتفاقيتها مع تركيا، أُلحق بها ذيل سرّي يتضمّن وعداً بتسليم اللواء الى تركيا في ظروف دولية مؤاتية.. ولما اشتدّ خطر المانيا النازيّة، وشرعت فرنسا في توثيق عرى التحالف مع تركيا، كان اللواء عربون الاتفاق، بموافقة بريطانيا، وكان نقل القضية الى عصبة الأمم في جنيف، وإرسال هيئة دولية من قبل عصبة الأمم للإشراف على الاستفتاء، لعبة لا أكثر، وقد ناضل العرب اللوائيون ما وسعهم، لكن الاستفتاء كان مزوّراً لصالح الاتراك، ورغم ذلك أحرز العرب الأكثرية، وعندئذ أوقفت فرنسا أعمال اللجنة، وأمرتها بالمغادرة، وقامت بحملة إرهاب. وكان كل شيء جاهزاً لدخول تركيا وانسحاب فرنسا، وهكذا بدأت الهجرة وتمّت المهزلة...

ــ والآن؟

ــ نحن على أبواب حرب عالمية..

ــ ألن يعود اللواء الى سورية؟

ــ هذا متروك للزمن.. المهمّ الآن مواصلة النضال لإجلاء فرنسا.. وحين تستقلّ سورية وتصبح دولة ذات سيادة..

قاطعه سعيد..

ــ إذن، علينا ان ننتظر طويلاً!

ــ من يدري.. كل شيء متوقّف على استقلال سورية،

وتطوّرات الظروف الدولية.

فكّر سعيد: «هذا الرجل بارد الاعصاب الى حدّ مثير. لم يشتم مرة واحدة. من نظراته يبدو أنّ المعركة طويلة، وأن خروج فرنسا من سورية ليس بالسهولة التي كنت أتصورها... اللعنة! معنى هذا أن والدي سيبقى في غربته الى ما شاء الله. إنه لايستطيع العودة ما دامت فرنسا موجودة، لابدّ من الصبر إذن.. الصبر ودائمًا الصبر»

ـ في رأيك أن اللواء ضاع؟

ـ مؤقتاً على الأقل..

ـ ووعود المسؤولين السوريين الذين قالوا إن اللواء عربيّ وسيبقى عربيا؟

ـ كلمات للتخدير.. وهم يعرفون ذلك.. الثورة السورية انطفأت باكراً..

ـ يعني فشلت؟

ـ لم تنجح بطرد المحتلّين على كل حال.. ظلّت محاصرة ومعزولة.. لم يكن لها اتصال ولا سند دوليّ. وقد أفادت فرنسا من همود الثورة، وتفرُّق الثّوار، ومن دخولنا المفاوضات عبر عصبة الأمم في جنيف، لتقوم بمؤامرتها في اللواء من جهة، وتقسيم سورية إلى دويلات إدارية من جهة ثانية.

ـ والمعاهدة والدستور والبرلمان؟

ـ نقضتها فرنسا كلّها، وعطلت كل المؤسسات الدستورية التي كانت، في الأصل، تحت رحمتها.

ـ والزعماء السياسيون؟

ـ تعني رجال الكتلة الوطنية؟

ـ زعماء البلاد..!

ـ بعضهم في الحكم، تحت ظلّ فرنسا، وبعضهم في المعارضة.. الكتلة الوطنية تقود النضال الوطني في الوقت الحاضر، ولكن من هي

الكتلة الوطنية؟ مجموعة من زعماء الإقطاع والبورجوازية، وليست الكتلة حزباً سياسياً ذا برنامج أو عقيدة وطنية محدّدة.

ــ البحّارة مع هؤلاء الزعماء..

ــ كلّنا مع هؤلاء الزعماء في النضال الوطني. نحن معهم ضد الاحتلال الفرنسي، ولأجل جلاء تام، ولكن حذار من المساومة.. ثم إن الكتلة بمفردها لن تستطيع شيئاً، عليها أن تتعاون مع الأحزاب الأخرى العقائدية خاصة، فهذه الأحزاب صغيرة اليوم كبيرة غداً، وهي تملك نفوذاً ليس للكتلة بين العمّال والفلاحين والمثقّفين والطلّاب.. إن لها برامجها في الوحدة العربية والتحرّر الوطني والتقدّم الاجتماعي .. لقد آن الأوان لطرح موضوع العدالة الاجتماعية على بساط البحث، فشعار من هذا النوع يلبي طموح الشغيّلة ويجذبهم الى النضال الوطني. الكتلة تقف ضد المطالب الاجتماعية، ولاتسمح بقيام نقابات عمالية، فإذا قامت هذه النقابات برغمها، عمدت الى تخريبها أو التضييق عليها.

فكّر سعيد: «هذا الرجل يعرف أشياء كثيرة. يقولها على المكشوف دون خوف. إنه واحد من الذين كانوا يناضلون سرّاً في اللواء، ومن الذين عرفهم أبي وتحدّث عنهم. هؤلاء ينشرون دعايتهم بين العمال والبحّارة. لقد كانوا وراء تنظيم المظاهرة الكبرى في اسكندرونة، إنهم يعيشون في الخفاء، وفجأة يظهرون في المقدّمة، غير مبالين بالسجن أو الموت».

قال قاسم بعد فترة صمت:

ــ هل يعرفونك في الميناء يا سعيد؟

ــ قليلاً. الفضل يعود الى والدي.. ما ان سمعوا باسمه حتى أثنوا عليه وأكرموني لأجله..

ــ وماذا تعمل؟

ـ على أحد الزوارق . .
ـ يعني عاملاً في المرفأ؟
ـ تقريباً . . سوى أني لا أحمل على ظهري . .
ـ وكم ساعة تعمل في النهار؟
ـ من الصباح الى المساء . .
ـ هل لك تعويض . . ؟
ـ تعويض ممن؟ هنا لايعترفون بتعويض لأحد، ولم أهتم بهذه المسألة.

نقر قاسم على الطاولة الخشبية وابتسم:

ـ يجب أن تهتمّ . من الضروري أن تُحدّد ساعات العمل ويُقرّ مبدأ التعويض . . هذه حقوق أولية للعمّال.

ـ العمّال لايطالبون بهذه الحقوق . .
ـ لأنه ليست لهم نقابة . . ولا وعي عمّالي . .
ـ ماذا تعني بالنقابة؟
ـ السنديكا . .
ـ سمعتها من عمال المرفأ في اسكندرونة. كان عامل يوناني الأصل يردّدها أينما حلّ. وفي أيام الكريزة كان يقول: لو عندنا سنديكا ما حلّ بنا هذا الشقاء . . قوة العمّال في السنديكا يا إخوان.
ـ ما اسمه؟
ـ بنيوتي . .
ـ هه . . أعرفه . . كان عاملاً واعياً . . لولا دخول تركيا الى اللواء لاستطعنا تأليف نقابة لعمال البحر هناك . . كانت الأفكار النقابية مختمرة . . خسارة . . كان اللواء في نهوض ثوريّ حقيقي . . لقد ناضل اللوائيّون ببسالة ضد فرنسا، وضد مؤامرة سلخ اللواء . . إن لي بينهم رفاقاً طيبين.
ـ وهنا . . ماذا تفعل؟

ـ أدقّ على حديد بارد..

ـ ماذا تعني؟

ـ لاشيء.. أعمل في المرفأ..

ابتسم سعيد:

ـ وفي الليل؟

ـ قلت لك أدقّ على حديد بارد.

ـ ألا تسير الأمور كما يجب؟

ـ من ناحية العاطفة الوطنية كل شيء على ما يرام، بين البحّارة خاصة، إنهم يكرهون فرنسا.. هذا جيّد ولكنّه لايكفي.. يجب أن يفهم البحّار ماذا يعني وجود فرنسا هنا.. ماهو الاحتلال.. وكيف نقاومه.. وماهو التنظيم، وضرورته.. أنا عامل.. إنني أعلّق أهميّة كبيرة على العمال. لابدّ أن يفهم العامل أنه مستغَل من قبل أرباب العمل، وأن هؤلاء ضدّ مصالحه، ضدّ حقوقه، وضدّ تأليف أيّما نقابة.. وفي النهاية ضد التحرّر الوطني أيضاً..

ـ ألا يكرهون فرنسا؟

ـ الكره جيد.. ولكن كيف نجعله مفيداً في النضال؟

سكت سعيد.. خيّل إليه أنه يسير في ضباب.. لم يعد يفهم ما يقوله قاسم.. كان كل شيء جديداً عليه. اللغة التي يتكلّمها هذا الرجل المجهول جديدة عليه، إنه يعرف والده.. يعرف «بنيوتي» أيضاً.. كان في اللواء من غير شك، وكانت في اللواء حركة ثورية كما يقول.. فهل كان أحد قادتها.. إن في عينيه لمعاناً وهو يتكلّم. صوته هادىء وأليف، إنه صلب كزيتونة. ربما يعيش، كما في اللواء، سرّاً في هذا المرفأ.. وربما كانت السلطات الفرنسية تطارده.. هنا يعارض الزعماء تأليف النقابات.. يدقّ على حديد بارد كما يقول.. لكنه يواصل الدقّ..

غادر قاسم المقهى وهو يمدّ كفّاً خشنة. قال له: «سنلتقي مرة أخرى» وقبل أن يستدير ليذهب سأله بجدية:

ـ تجلس دائمًا في هذا المقهى؟

ـ من حيـن إلى حين.. هذا مقهى الميناء كما تعرف..

ـ إذن سنلتقي هنا. وربما أتيت الى الزورق الذي تعمل فيه.. أنا أعرف كيف أجدك إذا كنت لا أضايقك.

ـ على العكس..

قالها مندفعاً، بحماسة حقيقية، وعندئذ شدّ قاسم عـلى يده وتوارى، هادئا، واثقا، لايلتفت الى وراء.

طلب سعيد فنجاناً من القهوة بغير سكّر. أشعل سيكارة وعاين الذين حوله. لم يجد من يراقبه، لم يشكّ في أحد أيضاً. هذا مقهى البحّارة كما قال الريّس عبد الحميد. هو، إذن، في أمان. يستطيع أن يلتقي قاسم هنا. «هذا البوري[1] يسبح في مياه الميناء جيّداً» قالها دون صوت. إن له مهمة غير الشغل، بنيوتي آخر، لكنه من العرب هذه المرّة. سوف أعرف منه أشياء كثيرة. قد يحمل إليّ خبرا عن والدي، ما دام له رفقة من العمال في كل الموانىء. يبدو من كلماته وحركاته أنه تدرّب جيّداً على «البروبوغندا»[2]. في اسكندرونة سمعت هذه الكلمة. أطلقها أحدهم على بنيوتي. ماذا تعني يا ترى؟ الذي يتكلّم في السياسة؟ ربما، ربما، علي أن سأل قاسم عنها. عمّال البحر في اسكندرون كانوا يستعملون كلمات غريبة. هل هذا لأن بينهم كثيراً من الأرمن واليونان؟ أنا جاهل تماما. لم أعرف ما معنى «نقابة». هناك كانوا يقولون «سنديكا» بأية لغة هذه الكلمات؟ هـل يتكلّم العمال لغة واحـدة؟ وما هـذه الرابـطة التي بينهم؟ في اسكندرون سمعت بنيوتي يقول لعامل ايطالي «كاماراد» camarade كانا يشربان

(١) سمك البوري.

(٢) الدعاية السياسية.

في مقهى الميناء . في البدء رأيتهما يقلبان ياقتي سترتيهما. كانت داخل طرف الياقة، في كل من السترتين، قماشة صغيرة حمراء. بعد ذلك تصافحا وجلسا. قلت لبنيوتي: «من أين تعرف آكل المعكرونة هذا؟» أجابني: «إنه عامل مثلي..» «والشارة الحمراء التي في سترته؟» «رأيتها؟». وبعد قليل نصحني: «لاتتحدّث عما رأيت لأحد».

أشعل سيكارة أخرى. مدّ لسانه فلعق ثفل فنجان القهوة. تقبّل النسمات الغربية المنعشة التي تهبّ من البحر. كان قرص الشمس الأحمر عند حافة الماء تماما. أمه كانت تودّعها. تقول لها «إذهبي يا مباركة، نامي لتفيقي في الصباح» هو أيضاً ودّعها. وجد راحة لانه نسي التفكير بعزيزة. قاسم شغله عنها. قاسم مثل بنيوتي، وربما يغرز مثله شارة حمراء في قفا ياقته. من هم أصحاب الشارات الحمر هذه؟ هل يضع الريّس عبد الحميد، في ياقة سترته شارة حمراء أيضاً؟ إنه مثل قاسم، يتكلّم بجرأة. لايخاف فرنسا.. لكنه يؤمن بالزعماء. قاسم لايؤمن سوى بالعمّال. وفي يده، بين الخنصر والبنصر تلك الرقاقة الجلدية التي تصل بين الإصبعين. أتكون هذه شارة أيضاً؟ «مهما يكن ــ قال سعيد في نفسه ــ أنا لا أفهم من أي بحر يخرج أمثال هؤلاء، ولماذا يقضون حياتهم في البروبوغاندا ؟ يتحمّلون الفقر، والجوع ، والسجن، والتعذيب، ويتنقلون من بلد الى بلد، ومن مرفأ الى مرفأ، ويدقّون، أحياناً، حديداً بارداً، ولاييأسون. إنني لا أملك صبرهم. والدي لم يكن صبوراً الى هذه الدرجة، لذلك لم تكن له شارة حمراء في قفا ياقته. إنه لايحبّ «البروبوغندا». يتحدّث عن البحر وحده، ومن حين إلى حين يشتم فرنسا، كما يشتم تركيا .

كان كسل ملوكي يسيطر عليه الآن. يستسلم، هكذا، لطراوة المساء، ويدع البلادة، تغلّف جلده كلّه، ويوقف ذهنه عن العمل، مكتفياً بملاحقة دخان سيكارته المتبدد في الريح، فهو الأمنية لإنسان

يخرج من حلقة انفعال شديدة. كان، في الحالة الذهنية الراكدة، كمن تناول مخدراً، وبات، بغير جهد، يلاحق أفكاراً تتوالد لذاتها، وتطير كالفراشات من حواليه. إن شاربي النراكيل، حين يَـخْلون الى قرقرات نراكيلهم، يبلغون مثل هذه الحالة لخدرٍ داخليّ. ليس لديهم عمل، أو أنهم أعطوا أنفسهم لوقت مقتطع من نهار مُضنٍ، فهم الآن يصغون ولايتكلّمون. يلاحقون أخيلة تنبت كالعشب الـطفولي عـلى جدران مخيّلاتهم، وتأخذهم في رحلة خاصة، يستعرضون فيها الأشياء بحيدة ولامبالاة.

هو أيضاً كان يستعرض الأشياء بحيدة ولامبـالاة. الهمود رد فعل للفوران. كان صدره أمس يغلي. كان منسحقاً بشعور العجز. هذا الصباح ظلّ تحت سيطرة مشاعر مماثلة. لم يقل شيئـا للبحّار العجوز، مازال على رأيه بأن مثل هذه الأشياء لاتقال. تعلّم درساً لن ينساه: ألّا يغترّ كثيراً بنفسه. والده لم يحذّره من الغرور. حسبه تعلّم من سيرته هو، من سلوكه، من كرهه التبجّح في مجالسه. بعض الأشياء لايمكن تعلّمها بالأقوال. يجب أن يُخطىء المرء، ويدفع ثمن خطأه، عندئذ يتعلّم شيئاً نافعاً. «يتعلّم من كيسه» كما يقولون. أمس تعلّم سعيد من كيسه: لايستطيع الرجل أن يسحق المرأة، وقال في نفسه هذا الصباح: «ولا المرأة تستطيع سحق الرجل» لكن البحّار العجوز على خلاف معه في هذه النقطة. إن له خبرته الطويلة. هل هي الشيخوخة أم التجربة؟ سيّـان. المرأة كائن جبّار.

فكّر بوالده. لم تكن المرأة مشكلة، بالنسبة إليه. كان البحر مشكلته. «بنيـوتي» أيضـاً مـا كـان يتحـدّث عن النساء، كـانت «البـروبوغنـدا» زوجته.. وقـاسم هـذا؟ كيف ينسى المـرأة هؤلاء الرجال؟ وهو متى ينساها؟ هل ينسيه البحر إياها؟ يصير قضيته كسائر البحّارة؟ يشبع منها كالآخرين؟ متى؟ في أي سنّ؟ وعزيزة؟ تنسيه

إياها نساء المرافىء؟ لقد كان أمس معتدّاً بفحولته. كان مُغالياً بهذا الاعتداد. الآن تحوّل إلى النقيض. عذابه لم ينته. رقد في اللاشعور. قذفه الى وراء حين اجتمع بقاسم. تشجّع من كلامه. يضرب قاسم حديداً بارداً ولاييأس. يبني حجراً حجراً. ينقل مؤونته حبة حبّة. إنه نملة مجتهدة. يعرف ما يريد.. على الإنسان أن يريد شيئاً. أن تكون له قضيّة. هو يتعذّب لأنه ليس صاحب قضيّة. حتى والده نسيه. لم يعد يبحث عنه بجدّ. شغلته عزيزة. سحرته. منطقة المرفأ هذه مسحورة، مسكونة بالجنّ.

ظلّ متروكاً على كرسيّه فوق رصيف المقهى الى أن هبط الليل. حسد الآخرين حسداً أبيض. قال في نفسه: «ليس سهلاً أن ينفّذ المرء قراراً اتخذه. أنا عديم التجربة ما أزال. ليست التجارب إلّا حواجز في الطريق. عندما يصطدم الفارس بحاجز لاينثني عنه يائساً. يعود مرة أخرى لتخطّيه. رأيت ذلك في باحة التدريب على الفروسية. والدي كان يقول: البحر ميدان كبير لفروسية لاتنتهي. من تهزمه العاصفة مرة ويبكي كامرأة ليس بحّاراً. الربح جولة والخسارة جولة. لماذا نفرح حين نكسب وبندب حين نخسر؟ من يفعل ذلك يجهل قانون البحر. يجهل لعبة الحياة. لايمكن أن نكسب دائمًا أو نخسر دائمًا. المهمّ ألّا نيأس. ألّا ننسحب من المعركة الى بيوتنا مكسورين. سلبني البحر حتى شروالي. خرجت منه مرة عارياً. نجوت بنفسي فقط. قعدت على الشاطىء نظرت الى الأمواج تهدر وتتدحرج كالجبال. لم أعاقب البحر بالدمع. الدموع لاتفيد. تستّرت بالخروق وعدت الى المدينة. بقي الدوي في أذني والألم في جسمي أياماً. كنت مهزوماً ولم أكن مدمّراً. حافظت على هدوئي. خرجت الى البحر ووقفت على شاطئه: «حسناً يابحر، قلت له، أنت صاحبي وعدوّي، والمعركة طويلة بيننا» كان المدى الأزرق بعيداً، هادئاً، يضحك للشمس، وكأنّ به عدم اكتراث قاتل بي. من أنا أخيراً؟ من

يكون صالح حزّوم أمام اللجّة المرعبة؟ مع ذلك فإنّ اللجّة عجزت عن ابتلاعي. المركب صار في القاع، لكن البحّار ارتفع على الموج وكافح. المهمّ أن قلبي لم ينخلع. أهل بيتي خافوا عليّ. تمنّوا، ترجّوا، توسّلوا أن أترك البحر. لم أناقشهم في ذلك. عيناي فقط تكلّمتا فيما أصابعي تفتل شاربي. قد أترك البحر يوماً، لكنني لن أتركه مهزوماً. ماذا جرى؟ العمى أنكسر كعود يابس؟ أعوي منسحباً ككلب أصابه حجر؟ أتكلم متبجّحاً متوعّداً بالثأر؟ الصمت، في هذه المواقف هيبة رجولة..

«طيّب — قلت في نفسي — انا بليتي بوالدي.. بهظني بقامته. وضع قيداً في عنقي بسيرته. قررت، منذ وعيت الدنيا، ألّا أخون ماضيه، ها أنا أخونه لدى اصطدامي بأول حاجز. أنكمش كقنفذ سمع خشخشة من بعيد. وقاسم؟ وقبله بنيوتي؟ لماذا أستشعر حسداً لهما أتضاءل امامه؟ لماذا يخيّل إليّ أنهما بغير هموم، وألّا شيء في الحياة يمكن أن يخلخل أعصابهما؟ أين مكمن العصب في الجسد؟ أين مركزه؟ كيف أثار من أعصابي؟ أقطعها بسكّين؟ معنى هذا أنني أنتحر؟ وما هو المخيف في الانتحار..؟ يرتاح الانسان. أنا الآن بحاجة الى الراحة، الى النسيان، الى حذف واقعتي مع عزيزة من تاريخي. وهذا كلّه يعيدني الى التذكّر، الى الاكتئاب، الى الشعور بالعجز يعذّبني الى درجة التلف..»

في الشيء الذي ننهزم فيه يكون انتصارنا. حذار من السرعة. لاتطلب نصراً سريعاً. دَعْه يأتي في أوانه. استعدّ له جيّداً. لكن من أين لسعيد، الشابّ الفتي، أن يستخرج الخبرة من تحت أظافره. سيقلّم الدهر هذه الأصابع يوماً. سينزّ منها دم. عندئذ يعرف أن ينتظر حتى تطول أظافره. في هذه الحال فرخ الدوري أكثر معرفة وحكمة. لايطير حتى ينبت ريشه. أين ريشك أنت يا سعيد؟ نتفته

عزيزة ليلة امس. لاتعد إليها زغباً. إلجم نفاد صبرك الفطريّ. قم امش على الشاطىء. تعلّم شيئاً من الموج. يرتدّ عن الرمل. يهاجمه من جديد. ومن جديد يرتدّ. ومن جديد يهاجم. ليس عبثاً ما يفعل، مع الايام يتفتّت الصخر. هب أزمتك صخراً، كن رابط الجأش حيالها تتفتّت.

انتزع سعيد نفسه من جوّ المقهى. في الشارع، أمامه، واجه الميناء. أحسّ أنه جزء منها. تمنّى لو لم تغرب الشمس. لو تشرق بسرعة. لو يعود الى العمل في الزورق. الرحلة، بين الرصيف والبواخر قصيرة. لابأس. تكفيه للترويح عن نفسه. البحر يغسل، يطهر، يفتح الصدر. آه لو يواجه أية مغامرة. رحلة ما على ظهر مركب أو سفينة. مشاركة في سباق. غطس الى الأعماق. أيّ شيء يؤكد فيه ذاته من جديد. . الميناء، بعد كل شيء، دنياه. غابته. بيته. الميناء غابة حقيقية، فيها كل أنواع الوحوش، لكنّها، في وحشيتها البالغة، أصيلة جداً. انه احد وحوشها ليس الا. والده عاش فيها، وعليه هو أيضا أن يعيش. شيئاً فشيئاً يتعرف أدغالها، آجامها، مسالكها. سيكون له عرين فيها. يجوع، يشبع، يتعارك، يزأر، يعتاد الزئير، ومن يغلب يبق. «أناسأغلب ـ قال في نفسه ـ أنا الجرو المذعور الآن سأكون ذئب هذه الغابة غداً. عندما ينزل البحّار الى البحر، يرتدي كفناً غير منظور. كذلك حاله في الميناء. الرجل والميناء، والميناء تسخر بالرجال. تطوّح بهم. تسقيهم المرّ، وكذلك الحلاوة. اللعنة على مهنة نحمل فيها الموت علىأكتافنا، هنا الشقاء. وهنا الرجولة . هنا كل الشرور. وهنا كل اللذائذ. لولا الميناء ما كانت عزيزة، أو ما كانت على النحو الذي عرفتها فيه. ما أروع الحياة محاطة بالاسرار!»

سعيد يتكلّم بغير صوت. يتكلّم عالياً دون صوت. يقول

الأشياء لنفسه وللميناء، والبحر. يستعيد، في قفزة داخلية، إرادة تثب بين طرفين من ضعف وقوة. إنه يبحث عن تعويض. المعركة داخله هذه المرّة. من منا خارج دائرة المعارك الداخلية؟ «إضرب يا سعيد إضرب. صعِّد خيبتك أمس، بخيال مقاتل اليوم. كذلك يفعل الذين لايريدون أن تصير خيبتهم عقدة. غادِرِ الميناء. لاتتعجّل غداً انزع هذا البنطال، وهذا الحذاء، وهذه الرخاوة. خذ للبحر عدّته، وللميناء أدواتها. البس الشروال، والحذاء المعكوف. واعقد شملتك حول الرأس. دَعْ طرفها يتدلىّ على كتفك. تزنّر فوق مسدّس أو سكّين. كن فتى ميناء يا فتى، افتضّ بكارة هذه القحبة. تقحّم أسرارها. اكتشف مجاهلها. افعل كما يفعل رجال الميناء. اقصد الليلة بالذات خمارتهم واحجز لنفسك زاوية دائمة فيها.»

انحرف الى اليمين. صعد في درب الميناء الضيّق المتمعّج الهابط بالتواء من مستودع التبغ، كانت الكهوف عن جانبي الطريق. هنا مكمن أسرار الميناء. من يدخل هذه الكهوف ليلاً ويخرج سالماً يهتك هذه الأسرار. يؤاخي الجنّ الذين فيها. يتعرف الى صنوف من الرذائل . يصبح مصهوراً، كقطعة حديد في نار شديدة. هو سيفعل ذلك. لكي يتعمّد عاملاً في الميناء يجب أن يفعل ذلك. كي يصبح بحاراً ينبغي أن يفعل ذلك، يشترك في التهريب والتحشيش والموبقات. يعرف جميع الخطايا وجميع اللذائذ. يفقد براءته مرة الى الأبد. أيها الرجل، يا سعيد، افقد براءتك مرةً الى الأبد. ابعث بها الى الجحيم. لاتأسف على شيء. قد تجد في كهف محششة، وفي آخر موبقة، وفي ثالث اجتماعاً لذوي الشارات الحمر، من هذه الدنيا الرهيبة تتولّد، في النهار، دنيا أشد رهبة. في هذه الكهوف يستوي الليل والنهار. أنت في ميناء لامعبد. للميناء قوانينها وطقوسها. تعرّف الى هذه القوانين والطقوس. ألق بنفسك في الظلمة ولاتبال، وعندما

يشرق عليك النور، تكون قد دُمغت بالميسم المشترك لجميع وحوش هذه الغابة الملعونة.

توقّف عن السير. خيّل إليه أنه يسمع أصوات صادرة عن كهف على يساره. تساءل في ذات نفسه: «من بنى هذه الكهوف؟» إنها لاتصلح إلاللخمـارات وبيع الانتيكات. وفي الغرف الخلفية، على الأرض أو فوق الأكياس، يمارس البحارة الجنس. يأتون اليها بالعاهرات. وبالغلمان أيضاً. هذه المدينة لاتعترف للميناء بحقوقها. أوّل حقوقها خمارة وامرأة. حين ينزل البحّار الغريب لايذهب الى الكنيسة، يبحث عن خمّارة وامرأة. في هذه الكهوف لاتوجد خمارات ولا نساء، لذلك يبقى البحّارة في بواخرهم. هناك يشربون ويلوط بعضهم ببعض. انت لن تفتح خمارة يا سعيد. لن تقيم مبغى أيضا. لاتريد أن تصبح ساقياً ولاقوّاداً. إنك ابن صالح حزوم. يد الماضي تغلّ يد الحاضر. شرف والدك طوق حديدي في عنقك. سعيد حزوم خلق ليكون بحّاراً. أنت قرش لا انتياسة عاهرة. سيصطادونك يوما. سيقتلونك في يوم آخر. لكنهّم قرشاً يصطادون او يقتلون ، أما الانتياسة فلا. «عزيزة! يا عزيزة! أنا هو القرش الذي هزمته أمس، الانتياسة هزمت قرشاً. في أيّ بحر حدث هذا؟ في أيّ ميناء وقع؟ اخلع هذا البنطال، اخلعه من الغد. كن بحّاراً. كن قرشاً. كن ابن قديسة أو ابن داعرة، ولكن كن رجلاً، وعندئذ تفتح لك الميناء ذراعيها»..

تنفس ملء رئتيه حين خرج من الدرب الضيّق، العتيق، للميناء الصغيرة، الزنخة، الغائمة برائحة البول والنتن وعفن الأكياس والسمك والدم. تخلّص من ضجيج السيّارات والرافعات وأصوات الحمّالين وهدير البحر. تسلم درب المنشية، ومضى صعوداً باتجاه الكازينو ومقهى شناتا، لم يعرّج على البطرنة.

ملّ الصخور، وارتطامات الأمواج وفناجين القهوة، جعل يبحث عن خمارة، يطفىء فيها النار المتّقدة في صدره، وينسى عزيزته، أنتياسته، التي هزمته هو القرش بزعنفتين. وحين بلغ ميناء الزجاج، انعطف مصعّداً كرة أخرى، ودخل خمارة صغيرة، هي دكـان في الأصل، صاحبها على صلة بالشاطىء والبحر والسجن، وبين هذه الأماكن الثلاثة عاش، ولامجال في خمارته الا لمن يكون منها، وهو خريّج من مدرستها.

ألقى تحية المساء وجلس الى طاولة صغيرة. هنا لاشيء سوى الملح والترمس وحشيشة البحـر، الصيـادون والحشّـاشـون وبعض البحارة. أكثرهم من اصحاب السوابق. أبو الوفق، واسمه الحقيقي توفيق، يعرف زبائنه من رائحتهم، من رؤ ية أيديهم. مما يحملون معهم من شباك او قصبات صيـد او سلك سمك. وفي الفسحـة الضيّقة للدكان، والجو الملبد برائحة التبغ الرخيص، وفي نور فانوس معلّق على الجدار، يعطي الحاضرين هيئة أشباح، يتحرّك أبو الوفق لتلبية الطلبات، منتعلاً خفّاً عتيقاً، وقميصاً ذا خطوط، فوق شـروال أسود، حائل، وفي أذنه عرق حبق، من أصيص عنده على الرصيف، يسقيه كل صباح ومساء، ويتناول قهوته الصباحية حوالي الظهر، وهو يتشمّم رائحته كقطّ عجوز.

شعر سعيد بالانقباض عند دخوله. «ليس هذا مكاني» ـ قال في نفسه ـ لكنه كان يعرف أن هذا مكانه أيضا، فلكي يصبح ابن ميناء حقيقياً، عليه أن يتخرج من مدرسة أبو الوفق هذا، ويعرف طعم الملح والترمس وحشيشة البحر، عليه أن يغوص في وحل المدينة جيّداً، ويرى الى فقرها، ليس في أحيائها الشعبية فقط، بل هنا، حيث يجري من تلك الأحياء مصرف الى هذه الخمارة التي كان مكانها الميناء، ولأمر ما اختار ابو الوفق ميناء الزجاج، في المسافة المتوسطة بين السجن والمرفأ.

وقال سعيد في ذاته للمرة الثانية: «أخطأت، ليس هذا مكاني» ثم أشعل سيكارة واصطنع لامبالاة باردة، وهو يحدّق في الوجوه الرمادية من حواليه، وفي العيون الذابلة من الخمر، والشوارب الكثيفة التي تغطي الشفاه العليا، والأيدي القذرة، التي تبحث في صحون شبه فارغة، عن بقايا حشيشة البحر.

كانت الليلة في أولها، هؤلاء السكارى جاءوا من العصر. بعضهم لم يوفق في الصيد، وبعضهم زحف من وكره على الشاطىء، والبعض الآخر مشى متقوّس الظهر من العمل في الميناء، وهناك البحّارة الذين عادوا من رحلات بعيدة ! إنما لاريّس هنا، ابو الوفق وحده الريّس، وزبائنه، آخر الليل، من فصيل آخر، أكثر إمعاناً في الانحدار، وعندما يأتون يغلق باب الخمّارة، فلا يفتحه إلا على طرقات شرطة الأخلاق.

وقال سعيد في نفسه للمرة الثالثة: «أعوذ بالله من هذا المكان» لكنه تجلّد واحتفظ ببرودة أعصابه، سائلاً الله ألّا يمرّ بهذه الخمارة أحد يعرفه، كالريّس عبد الحميد أو قاسم، وألّا يعرف البحّار العجوز في الزورق أن رجله دبّت الى عند ابو الوفق، وحمد الله أن والده بعيد، فلو رآه هنا، بين حثالة المدينة هذه، لنسبه الى الزنا وأنكر أنه ابنه.

كان ابو الوفق قد لحظه من بعيد. تجاهله ريثما يلتقط انفاسه ويقرّر البقاء او الانصراف. هو ليس من زبائن الخمّارة. قد يصير يوماً، لكنه الآن ليس من زبائن الخمّارة . لابدّ أن تكون لم مشكلة، كأن يكون خارجاً لتوّه من السجن، أو مشتركاً في شجار وهارباً من رجال الأمن. أو سارقاً جاء يتمرّن على موت الضمير، في قاع جهنّم. هذا. وأدرك سعيد أن أبو الوفق يتفرّسه من بعيد، وأنه كمعلم ذي فراسة في معرفة الخطاة ، يريد أن يعرف، دون عجلة، من أيّ نوع خطيئته، وما إذا كان قابلا للاستسلام نهائياً الى الشيطان.

ودون اكتراث بنظراته المنبعثة من عينين سوداوين، شريّرتين كما بدا له، صاح سعيد:

ـ بطحة الى هنا يا أبو الوفق.

وقال أبو الوفق في ذات نفسه: «لقد قرّر صاحبنا البقاء، ترى من أيّ نوع من فتيان الميناءهو؟»

وصاح، في هذه اللحظة، صيّاد تعتعه السكر، من قاع الخمارة:

ـ حشيشة بحر يا أبو الوفق.. لا وفّقك الله!

التفت أبو الوفق الى وراء، ودون أن يظهر عليه ردّ فعل ما، عاد الى الصيّاد، وسأله؟

ـ ماذا تريد؟

ـ قلنا حشيشة بحر.

أمسك أبو الوفق بالصحن الفارغ، ودلق ما فيه من ماء مخلّل على رأس الصياد وقال:

ـ لايوجد.

انفجر الضحك في الخمّارة، كان مشهد من هذا النوع يثير القهقهات والتعليقات، وكان أبو الوفق يتعمّده، أحياناً، كي يخلق جوّاً من المرح، ويبرز سطوته، محذّراً الزبائن الجدد أن يتطاولوا عليه، أو يحدثوا شجاراً في الخمّارة. الصياد العجوز، المخمور، تقبّل دلق ماء المخلّل عليه بضحكة أيضاً، انقلب لها على قفاه، فيما الماء العكر يجري على جبينه ووجهه وعنقه، وطاقيته تنخلع عن رأسه فتسقط أرضاً،وشعره الأشيب، الملبّد من ملح البحر، ومن الإهمال، يعطيه شَبَهاً برجل أشمط، أشعث، متشرّد.

كانت الرؤوس كلها قد استدارت اليه، وصاح صوت من طاولة مجاورة:

ـ أحسنت يا أبو الوفق!.. ادلق ما تبقّى من العرق على رأسه أيضاً.

قال أبو الوفق:

ـ هذه نعمة.. أنا لا أكفر بالنعمة.

ـ لكنك ابن زنا ـ قال الصيّاد وهو يستقيم ويحاول أن ينهض.

ـ في هذه معك حق ـ قال أبو الوفق دون أن يضحك ـ أنا لا أعرف من أبي..

وقف الصياد العجوز، مترنّحاً قبالته، وأمسك به من قميصه:

ـ اسمع يا توفيق.. أنت ابن قحبة!

ـ وأنت؟ ابن من تكون؟

ـ إسمع..

ـ اخرس..

قالها ودفعه في صدره دفعة ترنّح لها وتراجع إلى وراء، ثم تهاوى وهو يبكي. وقف بعض الزبائن بين ضاحك ومتجهّم، فامتدّت يد أبو الوفق في إشارة رادعة قاطعة:

ـ لا أحد يقترب.. أنا لم أضربه.. تمسّك بقميصي ولم أضربه.. دفعته عني فارتمى أرضاً.. يستحق، ابن الفاعلة هذا.. أما سمعتم شتائمه؟

ـ الشتائم ملح الكلام..

ـ مازة العرق..

ـ من لايشتم هنا؟

قال أبو الوفق مكفهراً:

ـ لا أحد.. كلنا نشتم.. كلنا أولاد زنا. أعرف ذلك.. أعرف زبائني جيّداً.. لكنه زادها.. شدّني من قميصي.

ـ أنت المعتدي.. أنت البادىء.. والبادىء أظلم.

صاح أبو الوفق بالمتكلّم، وهو يستدير نحوه منتفضاً:

ــ يا ابن أمك!.. تتفلسف عليّ؟ تعلّمني القانون؟ تعال وتسلّم الخمارة.. لم يبق غير هذا.

ــ أنا لا أتفلسف.. ولكن بأيّ حق تدلق المخلّل على رأسه؟

ــ بحق الشيطان.. انا صاحب الخمّارة وأنا حر.. أفعل ما أريد..

قالها وتوجه الى الواقفين

ــ اجلسوا.. كل انسان مكانه.. ومن يعترض هذا هو الباب..

جلس الواقفون، بينما كان الصيّاد العجوز ينهض وهو ينفض الغبار عن شرواله، ثم ضحك على نفسه وقال:

ــ هات بطحة يا توفيق.. وأكثر من حشيشة البحر.. لو كنت في عمرك لكسرت رقبتك.. ما النفع ؟ ابن قحبة !

ضحك توفيق:

ــ اذا عدت الى الشتم قطعت لسانك.. يكفي ما شربت اليوم.. العمى! انطفأت وتطلب بطحة أيضاً؟

ــ حين لا أتوفّق في الصيد أسكر.. أحاول أن أنسى.. أعاكس الدنيا.. بنت الغانية هذه.

ــ في هذه الحال اذهب واسكر في خمارة أخرى.. صفّ حسابك مع الدنيا عند غيري...

ــ لانعرف غيرك.. هذه خمارة أمثالنا..

ــ وإذا متّ؟

قال رجل من طاولة مجاورة:

ــ مت أنت.. ونحن نصوم عن العرق!!

في هذه اللحظة دخل رجل في حوالي الاربعين، رمادي الشعر، غائر العينين، ثيابه الافرنجية عليها بقية جدّة وأناقة، ومن شكله

وحركاته يبدو أنه طائر غريب، يحطّ على غير سربه. تلفّت حواليه، ولما لم يجد كرسيّاً فارغاً إلا على طاولة سعيد، استأذنه قائلاً:

ـ تسمح؟

ـ تفضّل..

وصاح سعيد، متشجّعاً بالرجل الغريب، لابس البنطال مثله:

ـ طلبنا بطحة يا أبو الوفق!

تقدّم هذا من الطاولة، وراز الرجلين بنظرة عدائية، وقال:

ـ على مهلك.. الا تراني مشغولا بابن الكلب الذي أفسد علي ليلتي؟

وقال الرجل الغريب:

ـ اجعلها نصية اذن.. مع المازة..

ـ عندنا لايوجد سوى الترمس وحشيشة البحر.

ـ أريد لحماً وسمكاً.. أنا جائع..

ـ لا أغيرّ نظام خمارتي..

ـ الخمّارة على كيف الزبون..

ـ هنا الخمّارة على كيفي أنا..

قال سعيد في نفسه: «أبو الوفق يريد أن يقاتل. هذا الديك لايجد أمامه سوى الدجاجات. يفرض سلطانه هنا، لكنه يفرضه بغير كياسة. لم يرتح لدخولي، وكذلك لم يرتح لدخول هذا الجالس الى طاولتي. ينظر الينا بعداء، يرانا من فئة الخواجات. يبدو أنه لايتعامل مع خواجات. حسناً! عليّ أن أكشف له هويّتي. أن أقول له، باللغة التي يفهمها، إنني بحّار ابن بحار، ولكن من يكون جليسي؟ أنا لي قصتي، فما هي قصته هو؟ لقد كان كيّساً. طلب نصفيتين مباشرة. طلبها لنا نحن الاثنين. إنه مستعدّ للدفع. وأنا مستعدّ للعراك، أحسب أن دخول الميناء ليس سهلاً كما قدرت، لابدّ من دخولها عنوة. شعاري، بعد اليوم، يجب أن تكون قاتلاً أو مقتولاً، دون ذلك

يتحكّم فيك أمثال توفيق هذا. ويتحكم بسواي أمامي، ماذا يظنّ إذن؟ هو يجهل من أنا. . يحسبني جرواً من جراء الخمّارات. لابأس يا سعيد. . دعهم في الميناء يتحدّثوا عنك غداً.»

التفت الى توفيق وقال باستهتار، لكن بحزم:

ـ أنت تريد أن تقاتل يا توفيق. .

ـ احسبها كما تريد. .

ـ أنا لا أريد القتال إلا مضطرّاً. . ويبدو أنك تجرّني إليه. .

ـ حين تكون زبوني لابدّ أن تخضع لإرادتي. . لا لحم ولا سمك عندي، فهمت؟

ـ اترك اللحم والبطيخ. . المسألة مسألة أدب لا مسألة سمك.

قال الصيّاد العجوز:

ـ صدقت . . ابو الوفق مثل السلطان عبد الحميد.

ـ زمن السلاطين مضى. . هذا زمن فرنسا. . ولكنّنا لانخشى فرنسا. .

صفّق الحاضرون. طيّب قال رجل. «ابن ابوك والله». وقال أبو الوفق متحدّياً:

ـ أنت حرّ ألّا تخشى فرنسا. . ولكنني. .

نهض سعيد ودفعه في صدره قائلاً بازدراء:

ـ اذهب وهات العرق. .

تراجع أبو الوفق والتقط كرسيّاً كان صاحبه قد نهض عنه للفرجة. احمرّت عيناه. تحرّكت فيه روح الإجرام، وبخفّة يتقنها، هوى بالكرسي على سعيد، فمال هذا عنها مفسحاً لها كي ترتطم بالجدار. بعد ذلك أمسك بها بقوة ودفعها في الهواء ولم يضرب. كان شاباً. كان، هو أيضاً، ابن بحر، ابن ميناء، ابن صالح حزوم،

واحتقاراً لخصمه ألقى الكرسي بعيداً، وجلس قائلا له:
ـ ارجع الى شغلك، عفوت عنك.

اهتاج أبو الوفق. شارباه الرقيقان، المسبلان على جانبي فمه، تبلّلا بالرغاء المتجمّع في اللغمين. غصن الحبق سقط من وراء أذنه، ونصف قميصه الأمامي خرج من شرواله، واستطاع، دافعاً الرجال عنه، أن يصل إلى سكّين أشبه بسكّين المطبخ، ووسط الضجّة والصياح، تملّص من الأيدي متعثّراً بأحد الكراسي وهو يشتم. ظلّ سعيد جالساً. كل ما فعله أنه اتكأ على أحد الكراسي، جعله في متناول يده، وقال ببرود:
ـ يا توفيق هات العرق.. أنا لا أريد أن أضربك. يكفي. غداً تعرف من أنا..
ـ تهدّدني؟
ـ خذها كيفما شئت..

قالها ورفع كمّيه. عندئذ بان الوشم على عضلة ساعده. لقد أتى بهذه الحركة دون قصد. كان جوّ الخمّارة خانقاً. والفانوس يلقي بضوئه الباهت على الوجوه. وكان الحرّ شديداً. لعن سعيد نفسه لأنه جاء الى هنا. لكنه قال في نفسه: «ما دمت قد جئت فيجب أن أبقى. أنا لا أريد شراً بهذا المجرم. لن أبدأ حياتي في الميناء، بعراك مع سافل.» وتساءل: «هل كان عليّ أن أضربه؟ إنه، بالنسبة لي، كبير السنّ، مجرد خمّار أحمق. ابن زانية كما قال عنه الصيّاد العجوز».
هدأ أبو الوفق قليلاً، غير أنه كان يريد أن ينتصر، ألاّ يخرج مهزوماً من معركة مع شاب مجهول، لذلك قال له:
ـ اسمع.. أنا لا أرضخ للتهديد.. توفيق رجل.
قال الغريب وقد نهض واقفاً، يحاول ملاطفته:
ـ وسعيد لايهدّدك.. أنت رجل.. صاحب خمارة كهذه لابد

أن يكون رجلاً. . نعرف ذلك، على العين والرأس.

قال سعيد دون ميل الى الملاطفة:

ـ لو كان رجلاً كان يعرف قدر الرجال. .

ـ أنا أعرف قدر الرجال لا خرّيجي السجون أمثالك. .

تفرّس الرجل الغريب في زند سعيد. كان الوشم مصداقاً. لقد رآه توفيق. . «ربّما كان سعيد ـ قال الغريب في نفسه ـ قد شمّر عن ساعديه متعمّداً. ماذا كان يفعل في السجن يا ترى؟ بأيّ جرم دخله؟ أيّ نوع من الرجال يكون؟ لقد خاض المعركة لأجلك. ليس من زبائن الخمّارة. جاءها، مثلي، مصادفـة، لعلّه يبحث عن سيكارة حشيش. . إنه ضيفي إذن. . آه لو يهدأ توفيق ويأتيني بقطعة الحشيش التي جئت لأجلها» حاول النهوض ثانية. زجره سعيد:

ـ أجلس. . (وملتفتاً الى توفيق) أنا خرّيج سجون كما تقول، فماذا تريد؟

ـ لاشيء. . إنما. .

وقال رجل:

ـ السجن للرجال يا شباب!

وقال آخر:

ـ أن يكون المرء في السجن، فهذا طبيعي، نحن، كلنا، ولا فخر، كنا هناك، لكن لماذا كنت في السجن يا شيخنا؟

أجاب سعيد بجفاء:

ـ إسأل فرنسا:

قال الرجل:

ـ هم. . هذه مسألة أخرى. . نقطة عليك يا توفيق. . الأخ من الثوار.

وقال الصيّاد العجوز:

ـ أنعم وأكرم. . سدّ بوزك إذن يا توفيق.

قال توفيق:

ـ أنا لا أسدّ بوزي، ولايوجد ابن امرأة يسدّه. . أما إذا كان الأخ في السجن لأنه ضد فرنسا. . فهذه مسألة اخرى. . في هذه الحال أعتبر المسألة منتهية (وهو يسير نحوه) أقبّل رأسه أيضاً.

لم يعارض سعيد في تقبيل رأسه. وصاح رجل:

ـ قبّله، أنت أيضاً يا سعيد. . الصلح سيد الاحكام. . هكذا يتعارك الرجال ويتصالحون.

وقال آخر متسائلاً:

ـ ضد فرنسا؟ هذه والله مرجلة. . أنا لم يكن لي هذا الشرف يوماً. . أنا كلب بحري لا أكثر.

وقال الصيّاد العجوز:

ـ لاتحتقروا كلاب البحر. . اصطدت واحداً يوماً. .

قاطعه المتكلم:

ـ انت كذاب. .

ـ خسئت ، قال الصياد، أنا اصطدت درفيلاً أيضاً.

قال أبو الوفق الذي قبّله سعيد:

ـ سكوت يا بجم. . ألا ترون بيننا أوادم ؟

قال الصيّاد:

ـ الحمد لله أنك عرفت قدر نفسك. . قالوا لفرعون من فرعنك. .

ـ آه يا ابن الفاعلة أنت. . لا أخلص منك اذا ضربتك، ولا أخلص منك إذا رحمتك. . ألا تخرس وتريحني؟

قال رجل:

ـ أعطه شيئاً يشربه إذن. . لايقفل الفم مثل الكأس. .

وقال الرجل الغريب:

ـ أعطه بطحة على حسابي. . وهات النصفية، أنت ابن ابوك يا أبو الوفق.

قال الصيّاد العجوز ضاحكاً متخلعاً:

ـ بل ابن امه والله . . اسألوني أنا. .

قال رجل:

ـ مهما يكن. . دعونا من الانساب. . الآن صفا الجو. . ظنيّ أن الأخ سيطلب لي بطحة أيضاً.

قال الرجل الغريب:

ـ لكل شارب في هذه الخمارة بطحة. . الحساب عندي!

صفّق الجمّيع، وقال الصيّاد العجوز:

ـ عاش السلطان!

وقال رجل:

ـ وبالشكر تدوم النعم. .

فزمجر ابو الوفق:

ـ يا أولاد الكلب أنتم كالغربان. .

فردّ الصيّاد العجوز:

ـ لانقع الا على الجيفة التي هي أنت. .

شزره أبو الوفق بنظرة ولم يقل شيئاً. . كان يعرف أن المنولوج، مع هؤلاء السكارى، لاينتهي، بعض الليالي، حين يكون قد شرب سيكارته المدكوكة، يستثيرهم بذاته الى الكلام. يجد الطاقة، والمتعة أيضاً. يأخذ ويعطي. يحبّ أن يدعوه، من حين لحين، بحار متعتع، بلقب ما. يحسّ، في هذه اللحظات، سعادة حقيقية، يحسب نفسه سلطانا. يمارس الاستبداد لتأكيد سلطنته، تأخذه، كذلك، نفحة كرم. يجود بكأس، بصحن من حشيشة البحر، بعقب سيكارة حشيش، ويجلس على الكرسي عاري القدمين، إلية شرواله تسقط من

حافّتها الأمامية.

اليوم ليس على مزاج طيّب. في الصباح لم يوفَّق الى ما يريد من حشيشة البحر. هذه ينتزعها من بين الصخور. يغطس عليها بدراية وإتقان. يؤثرها أن تكون بنيّة وطويلة الفروع. لديه، في الخمّارة، جرار عتاق. انه صناع في تخليل الحشيشة. يفاخر أنه وحده يحضّرها كما يجب. الطلب عليها كثير، ولهذا يضنّ بها على السكارى والمفلسين والصيّادين العراة الذين يشربون العرق صرفاً في الشتاء طلبا للدفء، ويتملّحون، بعد ذلك، بالحشيشة المخللة.

كان يكره أصحاب البناطيل، لم يقل يوماً لماذا. يكرههم والسلام. كذلك كان حاله في السجن، وعلى الشاطىء، وفي الخمّارة. وبعض اعتكار مزاجه يعود الى وجود سعيد يلبس بنطالاً عنده، ثم انضاف عنصر آخر للاعتكار بدخول الرجل الغريب. إنه لايخاف السجن ولا الشرطة، ويشتم فرنسا أمام المستشار نفسه، اذا تحدّاه «كلب من كلابها». لكنّه، برغم كل ادعاءاته، يعرف أنه الأقصر قامة من رجال المرفأ، من البحّارة الحقيقيين، ومن الثوّار، والذين يقاومون فرنسا. وكان يقول في ذاته، إذا وجد نفسه في مأزق كما اليوم: «لابدّ أن أثور يوماً. أتظاهر اذا صحوت نهاراً. أحمل السلاح كالآخرين، عندئذ يعرفون من هو أبو الوفق» فإذا وقع على أمثال الصيّاد العجوز، كان يعود الى حجمه الطبيعي: «ابن قحبة لا أكثر» لهذا تبقى عقدة نقصه تدور حول مركز واحد: أن ينال شرف الجهاد يوماً، وأن يحصل على قامة أطول بين المجاهدين.

ورغم الكرم الذي أظهره الرجل الغريب، ظلّ ابو الوفق معتكرا. هو يعرف سبب الكرم هذا، فإما الرجل من الشرطة السرية، وإما طالب قطعة حشيش آخر الليل. وقال في نفسه مشفقاً: «إذا كان من الشرطة السرية يكون سعيد قد كشف نفسه». في حال

كهذه جديرٌ به أن يشمت. لكنه هو، ابو الوفق لايشمت بثائر. . «باطل - صاح بغير صوت» ومسّد على شاربه وأضاف «لنراقب الموقف. . سأكون الى جانب سعيد إذا أراد به شراً. هنا خمّارة ابو الوفق. وعملية كهذه سيتحدّثون عنها في المدينة. . يعرفون أنني، عند اللزوم، لا أقل عنهم وطنية».

رجل آخر لم يرتح لكرم الغريب، هو سعيد نفسه، قال في ذاته: «أنا لا أملك ما أجاريه به. . لقد قدّم عرقاً للجميع. صفّقوا له، مستعدّون للتصفيق مرة أخرى. في سبيل العرق والحشيش يفعلون أكثر من التصفيق، يقبّلون يديه، بل يركعون أمامه، وإذا صادفوه خارجاً يسرقونه، وقد يقتلونه عند اللزوم. هنا مبغى آخر. لايباع فيه الجسد بل الرجولة، استدرك، لا، هنا يباع كل شيء، ففي الخمارة والمحششة، يلاط بفتيان الشاطىء كأيّ ميناء بحري».

أحضر أبو الوفق «النصيّة» والترمس وحشيشة البحر. خرق نظام الخمّارة وقال لأحد الصيّادين:

«إذهب الى مقهى شناتا وأحضر لنا سمكاً ولحمًا». ثم حاول أن يدفع ثمن ذلك، فأخرج الرجل الغريب عشر ليرات سورية وقال:

ــ خُذ يا أبو الوفق. . على الحساب.

أخذها بغير تردّد. . نظر في ورقة العشر ليرات نظرةً شرهة. قال في نفسه: «أنا لم أقبض مثل هذا المبلغ الكامل إلا نادراً في حياتي. هذا الغريب سيطلب حشيشاً. ربمّا كان لصّاً، وقد يكون مهرّباً. . من يدري. . لست قاضياً على كل حال. سألبّي طلباته. إنما حذار. لن أسمح له أن يغدر بسعيد. . . أنا لا أقلّ وطنيّة عن جماعة «الصليبة» والشحّادين. . . خمّار؟نعم، حشّاش؟ نعم، عرفت كل الرذائل. . إنما الوطن. . لن أكون امرأة بشاربين».

صاح الصيّاد العجوز:

ــ أين حشيشة البحر يا توفيق؟.. هل تريدني أن أشرب العرق بغير مازة؟

ــ يكفي ما شربت اليوم.. حشيشة البحر للأوادم.

ــ وأنا؟

ــ أنت ابن كلب..

ــ أنا لن أشتمك بوجود الأوادم.. أعطني قليلاً من الترمس إذن.

ــ لايوجد سوى الملح..

ــ العمى! عرق وملح؟

قال الرجل الغريب:

ــ أعطه قليلا من الحشيشة يا أبو الوفق.. وتعال خذ كأساً معنا.

ــ الكأس على راسي. اما الحشيشة فلا.. أنا لا أستطيع التسامح أكثر مما فعلت..

ــ وأنا لا أشرب العرق مع الملح..

ــ الليلة استقويت؟

ــ أنا لا أستقوي إلا بالله..

ــ أنا أقول إنك استقويت وأنت تفهم..

ــ الرجل الكريم قدّم لنا عرقاً لا أكثر..

قال رجل:

ــ وسعيد؟

صاح الصيّاد العجوز:

ــ يا ليته يأتي الى الخمّارة كل ليلة..

صاح أبو الوفق مغضباً:

ــ بس.. ولا كلمة أخرى.. سأقطع لسان الذي يتكلم.

هدأت الخمارة قليلاً.. بعضهم خاف التهديد، والبعض الآخر أحسّ أنّ العجوز أحرج الخمّار. كان الدخان قد غدا كثيفاً جداً الآن. والسكر قد تعتع نصف الشاربين على الأقل. لم يشترك سعيد ولا الرجل الغريب في مونولوج السكارى، الأوّل كان يراقب، يتفرّس، يصغي، مأخوذاً بطرافة الجوّ، مرتاحاً لأنه فاز في معركته مع صاحب الخمّارة، شاعراً أنه يسلك الطريق القذر، لكنّه الطريق الذي لابد منه.. الآخر، الرجل الغريب، كان يرتعش داخلياً، تتفتّت أعصابه، يتشهّى الى درجة المرض، تلك السيكارة الموعودة التي تعيده إلى الصفاء النفسي، وتجعله ينسجم وينسى همومه الشخصية.

لم يأت أبو الوفق ليشرب كأساً مع الرجلين. الاعتكار الداخلي لم يزايله تماماً. لم يكن الليلة «سلطان» خمارته على النحو الذي يرغب. سعيد تحدّاه. استخلص الكرسيّ منه وألقاه جانباً. رفض أن يضربه به. أهانه. فعلة كهذه جديرة بالانتقام. هو، دون مدية، لاشيء أمامه، سعيد فتى، قويّ العضل، جسور القلب. كان يجب افتعال معركة اخرى، إنه قادر على أن يفتعلها في الخارج، في وقت متأخر من الليل، لكن سعيد من المجاهدين. وقال في نفسه، مخادعاً ومتعزّياً: «علي أن أكبح غضبي. لن أقتل واحداً من هؤلاء. لا، لست نذلاً إلى هذا الحد. غداً أعرف حقيقة من هو. في الميناء يعرفونه من غير شك. الأفضل أن أتروّى. لكنني لن أشرب كأساً معه. سيأتي الأصحاب الآن، وينصرف أولاد الكلب هؤلاء، وتبدأ الناركيلة تدور. الرجل الغريب زبون جيّد. دفع عشر ليرات على الحساب.. من أيّ صنف هو ياترى؟».

تقدّم الليل. خلت الخمارة إلا من بضعة سكارى. قذف أبو الوفق بالصيّاد العجوز خارجاً وأغلق الباب. جاء زبائن الغرزة. دار النربيش على الحلقة. قدّم الخمّار، بغير إنكار أو معارضة، قطعة

الحشيش إلى الرجل الغريب، دكّ هذا سيكارته، وكالظمآن، عبّ أنفاساً طويلة متلاحقة، حتى إذا انتعش، وجد الوقت ليدكّ سيكارة لسعيد الذي تناولها بغير ممانعة، مدركاً أنّه يوغل في الطريق القذر، ويرغب أن يجرّب هذه الموبقة أيضاً، قال في نفسه: «أنا لم أذق الحشيش إلا تلك المرّة في السجن. تناولته في القهوة على غير علم مني. كنت مراهقاً. حسب أنني آتي فعلاً منكراً. أنا لا أعتبره الآن شيئاً حلالاً. لكنني انغمست في التجربة فلأكملها. إنما الحشيش كالمرأة والخمارة. أشياء لابدّ منها للبحار. غير أنني أشرب هذه السيكارة للتذوّق ليس الا. يحسن بالانسان أن يعرف كل الأشياء. عليه، كبنت البيت، أن يتمسك ببكارته.. لكن البكارة، بالنسبة للبحّار قيد، إنني أفضّ هذه البكارة، الليلة، بغير أسف.»

وقال الرجل الغريب لتوفيق الخمّار:

ــ زجاجة كاملة!

وقال لسعيد:

ــ هذه على شرفك..

ــ لكن زجاجتنا مازالت ملأى.

ــ لايهم.. إشرب منها كأساً واحدةً واتركها للآخرين.. ألن ترافقني الليلة؟

ــ الى أين؟

ــ لا أدري.. سنقرّر ذلك فيما بعد.. المهم أن نشرب سيكارتينا الآن، وأن نستمتع.

وجد سعيد الفرصة سانحة للانتهاء من كلمات المجاملة المتقطعة. اتكأ على الطاولة بمرفقيه راز الرجل الغريب، قاسه من جذعه الى فوق. ألفاه رجلاً كيّساً، مضيعاً، يحتفظ ببقايا جمال وبقايا شباب. وفي عينيه الشاردتين دنيا من التجربة والفجور.

قال له بجدّ وكياسة:

ـ أنت دخلت وجلست الى طاولتي، لم يكن هناك مكان فارغ، وربما اخترتني بالذات، لأمرٍ في نفسك. وربما استأنست بي، لأنني غريب ههنا مثلك. المهم. تقبّلت تصرّفك كشيء طبيعي، وتصرّفت أنت كسيّد الطاولة، ولم أمانع أنا، لأنني لا أملك أن أجاريك فيما تفعل، أنت لاتبحث عن تجربة ولا عن مغامرة جديدة، أليس كذلك؟ أنا بخلافك. أجرّب الأشياء لأول مرة. طيّب.. كل شيء صار واضحاً الآن، تعرف اسمي، تسقيني عرقاً وحشيشاً، وترغب أن أرافقك حين نخرج من هنا.. لكن، ألا ينبغي، بعد هذا كله، أن أعرف من أنت وماذا تريد؟

ضحك الرجل الغريب، وضرب كأسه بكأس سعيد قائلا:

ـ بصحّتك..

جاراه سعيد صامتاً. أدرك أن لحظة المكاشفة قد حانت. لكنه لم يتوقع أن يصارحه الرجل الغريب على نحو مطلق كما فعل. قال:

ـ اسمي الحقيقي راغب.. راغب درويش.. وعملي مهرّب.. وأنا اليوم أخرج من السجن.. وجئت الى هنا أبحث عن قطعة حشيش، ولا أريد منك شيئا.. كن مطمئنا.

غيّض سعيد المفاجأة في معدته. ابتلعها كزيت الخروع دون أن يتقيّأ، أو يسمح لأعراض التقيؤ أن تظهر عايه. حدّق في راغب. استضعفه بدنيّاً، لكنه عجب أن يكون له هذا العقل الشيطاني، وأن يكون قد خرج ليومه من السجن، وأن يمتلك المال ويبحث عن حشيش.. عدَّ الاجتماع به مصادفة غريبة جداً بالنسبة له، لكنها طبيعية جداً بالنسبة للخمّارة والمرفأ، قال في نفسه: «هو يكذب.. يريدني أن أعمل معه. عرف أنني فتى صالح للعراك، وأنني كنت سجيناً. حسناً! لقد وقع على الرجل المطلوب، وها هو، كعنكبوت خبيث، ينصب شباكه للذبابة التي هي أنا».

أخرجه راغب من تفكيره على صوت فرح، فيه شيطنة وبراءة:
ـ خفت مني؟
قال سعيد جادّاً، ممتعضاً لأن خاطراً من هذا النوع ألّم براغب:
ـ أنا لا أخاف أحداً. .
ـ وإذا عرضت عليك صداقتي؟
ـ أرفضها. .
ـ أنت لم تفهمني. .
ـ فهمتك كفاية. .
ـ فهمتَ أنني أريدك أن تعمل معي في التهريب. .
ـ وهذه هي الحقيقة. .
ـ أخطأتك الفراسة. أنا مسافر غداً صباحاً. ربما لا أعود أبداً. أحمل دمي على كفّي وأمشي. لا أمان بين القتلة. أنا أعمل مع قتلة. . المهرّب قاتل. عصابات التهريب عصابات إجرام. . هل زرت مرافىء العالم. . ؟

ـ لا ، قالها سعيد بنبرة اسف، أعرف مرافىء ثلاثة: مرسين واسكندرونة واللاذقية.

ـ هذه ليست مرافىء. .
ـ كيف؟ قالها سعيد متعجّباً، منجذبا الى حديث راغب. .
ـ ليست مرافىء والسلام. . عندما تبحر الى مرافىء العالم تتذكّر كلامي.

ساد الصمت لحظة. تساءل سعيد في نفسه: «التهريب والقتل؟. . يعترف بسهولة. هل هو قاتل أيضاً؟ أأدخل مغامرة معه الليلة، أم أخوض تجربة مثيرة؟ لقد فتنني هذا الرجل. . لكنّنيّ لن أتبعه. . لن أخون وصيّة والدي. . سأكون بحّاراً لامهرّباً. . »

وقال راغب في نفسه «أخفته الى حدّ ما. . لا صداقة مع

مهرّب.. لا أحد يمنح المهرّب صداقته.. أنا أكذب ولن أسافر غداً. لكن سعيد يخشاني. الحذر يطلّ من عينيه.. أنا لا أريده إلا لليلة واحدة، أكره أن أمضي ليلتي وحيداً، وأريد أن أسعد فتى مثله، فتى كنته قبل عشرين عاما».

ـ إسمع يا سعيد.. أنا كنت فتى مثلك.. تعلّمت في المدرسة أوّلًا، وتعلّمت من الحياة ثانياً، سافرت.. غامرت.. اغتنيت.. افلست.. استدنت.. أدنت.. عرفت الجوع. وعرفت الشبع. عاشرت البغايا أُصبت بالزهري والسفلس.. أعطيت حياتي للشيطان.. لكنّني لم أعمل في السياسة.. إنا من اللاذقية ولست منها. لا وطن لي.. تشردت في جميع الأوطان. لايهمّني أبقيت فرنسا أم خرجت.. لقد عشت في فرنسا أيضاً.. وعشت في الشرق الأقصى، وتعاملت مع المهرّبين في هونغ كونغ نفسها.. هل سمعت بهونغ كونغ؟ وكازابلنكا؟ هل كنت في الاسكندرية يوماً؟

ـ أبداً.. أسمع بمدن غريبة..

ـ ستعرفها يوماً.. هل أنت بحّار؟

ـ عامل في الميناء. سأكون بحّاراً في المستقبل.. أنا سعيد حزوم.. ابن صالح حزوم.

الاسم لم يعن شيئاً بالنسبة لراغب، هذا ما أدهش سعيد وأصابه بخيبة كبيرة. أيُذكر صالح حزوم ولايكترث السامع؟ أين يعيش ابن الساقطة هذا إذن؟ ألم يمرّ بمرفأ اسكندرونة؟ ألم يتعامل مع مهرّبيها؟ شرب كأسه دون نخب. امتعض في داخله. لكنّ الآخر، الذي لاحظ امتعاضه قال بطيبة: «عفواً.. أعتذر عن جهلي، أنا لا أعرف البحّارة المشهورين.. هل كان والدك بحّاراً مشهوراً؟.»

أنف سعيد أن يقول شيئا عن والده أمام جاهل بعالم البحر. اكتفى بالقول: «ستعرف ذلك يوماً» وقال راغب: «يعمل على سفينة

أم في مركب؟» أجاب سعيد: «والدي محكوم بالاعدام ومطارد من قبل فرنسا..» قالها بفخر بالغ. أضاف: «اختفى في البحر قبل سنوات.. حسبناه غرق في باخرة جانحة.. بحثت عنه طويلا.. غصت الى أعماق الباخرة ولم أقع له على أثر.. استنتجت أنه فرّ من الملاحقة.. أنا واثق أنه لم يغرق.. والدي لايغرق.. سيظهر يوماً، بعد أن تخرج فرنسا من هذه البلاد.. أنا أنتظره. أبحث عنه.. أسأل البحّارة كل يوم.» قال راغب بلهجة احتفالية «أبوك بطل إذن!» عبّ نفساً من سيكارته وأضاف: «اسمح لي.. أنا لا أؤمن بالبطولة. البطل إنسان غبيّ.. ينتحر مجانا.. وقد رأيتك الليلة.. أنت تقتفي أثر والدك.. لقد ازدريت توفيق كأبطال السينما.. هذا سرّني.. لكنني لا أمارس هذا النمط من السلوك. المهرّبون لهم طرائق أخرى».

ـ المهربون أوغاد..

ضحك راغب. كانت ضحكته حصيلة ممارسة. إنه لايُستثار بالشتائم، ويبتلعها بيسر حين يريد. لقد جرّب الحياة بما يكفي لكي يبتسم في الوجه، ويضرب في الظهر.. قال:

ـ أنت على حق.. كل المهربين أوغاد، بمن فيهم أنا..

ـ عفواً، أنا لا أقصدك شخصياً..

ـ حتى لو قصدتني لايهمّ.. أنا لا أخوض معركة لأمر تافه كهذا.

ـ ولأي أمر تخوض المعركة إذن؟

ـ تستجوبني؟ هذه أسرار المهنة يا بطلي الصغير.. مع ذلك سأقول لك: أخوضها لأجل صفقة ما، لأجل تهريبة محرزة.

ـ ولأجل الوطن؟

ـ قلت لك إن وطني هو الدنيا.. أنا لا أتعامل مع هذه الكلمة مثلك.. غير أنني أصفقّ للأبطال في الملاكمة وفي كرة

القدم.. أنا نفسي كنت لاعب كرة قدم في المدرسة، إذا كان يهمّك أن تعرف هذا..

قال سعيد مستاء:

ـ لايهمّني أبداً..

ـ أعتذر إذن. أنا لم أنتقص من قدر والدك. كل ما في الأمر أنني لم أسمع باسمه.. لاتزعل.. هذه هي الحقيقة.. لا أعرف البحارة إلا بمقدار ما يدخلون في لعبتي.. أما المهرّبون فشيء آخر.. انني اسافر في البواخر وفي المراكب، لكنني أكون بمهمة.. عندئذ لا أسكر، لا أتكلم إلا قليلا،.. أعيش بمعزل خاصة بالنسبة للنساء. وحين نتسلل الى المرافىء، أنا أو من أتعامل معهم، نخوض معركة وحشيّة تحتاج الى قسوة وبرودة أعصاب.. لكننا لاننجح في كل مرة.. كثيراً ما نقع في قبضة السلطات، نساوم على حرّيتنا، وقد نهرب، وقد نسجن لمدد طويلة.. لقد أمضيت في سجن اللاذقية عاماً كاملاً.. بسبب تهريبة حشيش من قبرص، ضبطت معنا ونحن في فلوكة في البحر، قريباً من الشاطىء.

ـ لماذا اخترت هذا الطريق المحفوف بالخطر؟

ـ اسأل القدر..

ـ بدأت مهرّباً رأساً؟

ـ بدأت متشرّداً.. التشرّد يقود الى كل شيء.. أنا لا أستطيع الاستقرار في بلد واحد.

ـ وهل تقول لكل من تصادفه انك مهرّب..

ـ أنا لم أقل لك إلا ما هو مدوّن في إضبارتي وفي الحكم الذي صدر علي.

ـ اعترفت باسماء شركائك أيضاً؟

ـ لا شركاء لي.. اشتغل بمفردي.. الصفقة كانت صفقتي..

قالها وغمز بعينه ضاحكا. أضاف:

ـ هناك دائمًا ما يُقال ومالا يقال.. لو ذكرت اسمي غداً في الميناء لعرفني الكثيرون، وقالوا لك عني ما قلته عن نفسي.. لهذا أردت مصارحتك.. خاصة وأنني لا أحتاجك في شيء. ولن أدخلك لعبتي..

ـ ما أظنك تستطيع لو أردت.

ـ ربمّا.. أنا لا أراهن على حصان حرون..

ـ كيف عرفت؟

ـ هكذا خيّل إلي.. لي خبرة في الناس.. ثم رأيت معركتك مع توفيق..

قاطعه:

ـ وحسبت أنني أنفعك في مثل هذه المواقف..

ـ أن نقول إنك تنفعني فهذا صحيح. لكنني لم أفكر بالانتفاع بك.. أنا لا أتعامل مع الذين لديهم شرف.. ولا أراهم على صواب أيضاً.

ـ أنت نوع من ثعلب وذئب.. وسافل.

ـ أنا كل ما ذكرت.. وفوقه أني أعرف كيف أكون طيّباً في بعض الأحيان.. مثلما أنا الليلة.

خفق سعيد بكفه على الطاولة. شرب كأسه وجدده. لم يرفع عينيه الى راغب. قال في نفسه: «يا للنتن. ابن أيّ ساقطة هذا؟ لا يحلّل ولا يحرم. يقتل لأجل مصلحته. من المرجح أنه قاتل.. وأسوأ ما فيه أنه لا يشعر بشيء اسمه بلد أو وطن.. يا له من شرير!».

ـ أحسب أن علينا أن نفترق..

ـ لماذا؟.. هل أسأت اليك في شيء؟.

ـ أبداً. لكننا إنسانان مختلفان.. أنا لا أستطيع أن أجالس رجلًا لا يعنيه أمر الوطن.. ألا تسمع بما تفعله فرنسا بسورية؟

ـ اسمع.. أنا لم أقل إنني ضد الوطن أو مع فرنسا.. كل ما في الأمر أنني لاأستطيع أن أكون بطلاً، ولا أؤمن بذلك.. مع هذا أنا مستعدّ للمساعدة.. كم تريد أن أدفع؟

ـ لا شيء..

ساد الصمت بينهما. كان سعيد أقرب الى الجفاء.. بخلافه كان راغب. إنه لم يفهم لماذا يصرّ سعيد على احتقاره، وماذا يضيف هذا الاحتقار الى كل ما قاله عن نفسه. إذا كان فتى، فراغب أيضاً كان فتى. في المدرسة كان مولعاً بالأدب. يحفظ بعض الشعر أيضاً. إنه الزمن القديم. كان بريئاً في ذلك الوقت. وكان متحمّساً للمثل العليا. تبدّلت الأشياء الآن. براءته تحطّمت. صار شرّيراً. ولكن الطفل في ذاته يستيقظ أحياناً. عندئذ يفكّر لماذا سلك هذا الطريق، ولماذا لم يحبّ ويتزوج ليكون له أولاد، وكيف يفهم سعيد أنه الليلة يريد أن يكون شيئاً، أو يعود طفلاً، أن يحب الأرض والبحر والذكريات..؟ فكّر أن ينصرف.. إلى الجحيم بهذه الخمارة، وبسعيد، وبالدنيا كلّها. سيشتري كمية من الحشيش، ويذهب الى المبغى... يسكّر المبغى. بعضهم يسكّر طاولات القمار. هو أيضاً سكّر طاولة قمار يوماً. سكّر مبغى. دفع كثيراً. ماذا يهمّ؟ يملك شهراً ويفلس شهراً. حياته جوع وشبع، المرأة تبقى شهيّة في كل الأحوال. لقد عرف نساء كثيرات.. أن يرى امرأة جميلة، عامرة الصدر، ضامرة الخصر، ذات أسنان بيضاء وحادّة.. ذات شعر جميل يتهدّل على الكتفين.. عندئذ يفقد وعيه. يدفع بلا وعي. بجنون.. تتشهّى عروقه. يشرب. وهي تشرب. ما أمتع المرأة عندما تشرب! ما أمتعها عندما تعطي، وتكف، لليلة واحدة، عن أن تكون تاجرة! قال في نفسه: «أصبحت كهلاً. عرفت كلّ لذائذ الحياة، عرفت النساء من كل جنس ولون.. أحببت أحيانا بصدق. أحياناً كذبت.. أنا في النهاية إنسان قذر، وهذا سعيد يغضب مني، يريدني أن أكون إنساناً

شريفاً، أن أعود إنساناً شريفاً. . آه. . هذا ما لا أقوى عليه. . انتهى زمن الشرف. . أنا كالعاهرة التي نزلت السلّم حتى آخره. . ».

استمرّ سعيد يخفق براحته على المائدة. أي عالم رهيب هذا العالم يا سعيد! أنت لا تعرف شيئاً. قال لك إن المرافىء الثلاثة التي عرفتها ليست مرافىء. . كيف تكون المرافىء؟ أيّ قوّادين فيها وأية عاهرات وأيّ خمارات. . البحّار العجوز، في الزورق، قال لك إن نساء المرافىء يسحقن. . لم تصدّق. . استعجلت التجربة. ذهبت الى عزيزة لتسحقها. . ثم ماذا؟ سحقتك وأفقدتك صوابك، لولا ذلك ما كنت الآن في هذه الخمّارة. ما عرفت هذا الجو الموبوء. ما شربت خمراً وحشيشاً وجالست هذا الرجل الذي تتقزّز منه، لكنّك تحتمله لتكتمل الليلة تجربتك.

قال راغب متألماً:

ــ حين تكون للمرأة رائحة، من العبث أن تخفيها بالعطور. أنا رجل له رائحة، ومن الصعب أن أخفي نفسي بإظهار الكرم أو الطيبة. الحذ ني يلاحقني أينما ذهبت، ولو تبت لشكّ الناس في توبتي. . وهكذا أنا إنسان شقيّ، لم يبق لي سوى الخمر والحشيش والمرأة. . اللعنة على كل شيء.

جاء ابو الوفق يتفقّد الطاولة. حمل معه صحناً من حشيشة البحر. . دعاهما للانضمام الى «الغرزة» رفض سعيد. جاراه راغب. أعلنا أنهما مسروران. أخرج راغب نقوداً وقدّمها إلى الخمّار:

ــ خذ هذه وجئني بقطعة حشيش كبيرة. لا تدقّق في الحساب. . اليوم آتيك غنيا، وغداً آتيك مفلساً. ما أريده هو أن تتذكّرني فقط. لست لصّاً كما تتوهّم. . هذا المال مالي. . وأنا حرّ في إنفاقه كيف شئت.

تناول أبو الوفق المال شاكراً، وذهب للإتيان بقطعة الحشيش،

وعندما رجع، وضع رأسه بينهما وهمس كمن يفشي سرّاً:
ـ ترون الرجل الجالس في صدر الحلقة؟ إنه الريّس عبدوش!
ـ ومن يكون الريّس عبدوش؟ سأل راغب.

زوره ابو الوفق زورة تنمّ عن الاستغباء والدهشة. قال في نفسه: «هذا الحيوان لا يعرف الميناء ولا البحر. أقول له الريّس عبدوش فيزمّ شفتيه. من أيّ أرض جاء إذن؟ يقول إنه ليس لصّاً، وهذا المال إذن؟ غداً نعرف كل شيء... إنه يدفع بسخاء، وهذا جيّد بالنسبة إلي. ما أحسبه مخبراً. قد يصبح زبوناً، وعندئذ أتخلى عن أولاد الكلب الذين يشربون بقروش ويعربدون حتى منتصف الليل. سعيد مندمج معه. كيف حدث ذلك؟ ثائر ومخبر؟ لا، أستبعد. إذا كان ذلك كذلك فسنحمي سعيد. أقول للريّس عبدوش. للريّس نفوذ في الميناء. إنه، إلى حدّ ما، حامي الخمّارة. ولو كان هذا مخبراً هجّره من المدينة. ثم ماذا يهمّ؟ ومنذ متى صرت جباناً أحسب لمثل هذا الوبش حساباً؟ السجن؟ مرحباً سجن.. هناك أيضاً يروج الحشيش على نحو طيّب».

ـ الريّس عبدوش، قال أبو الوفق بتفخيم، أكبر ريّاس الميناء وأمهرهم. له مركب يسافر الى كل المرافىء وكان مشهوراً بسطوته. اللاذقية كلّها تعرفه وتحسب حسابه.

لم يَبْدُ على راغب، وكذلك على سعيد، أيّ اهتمام. كانا في عالمهما الخاص. راغب مسرور بقطعة الحشيش الكبيرة التي حصل عليها، وسعيد يصارع ضميره ويحاوره بغير صوت. وأمام هذه اللامبالاة، لجّ أبو الوفق في إضفاء صورة الإثارة على بطله، فتلفت نحوه وقال لراغب بصوت خفيض:
ـ الريّس عبدوش هو الذي خلّص كاترين الحلوة من البحّار المشهور صالح حزوم.

ارتعد سعيد. طرف بعينيه راغب. زايلهما عدم الاكتراث. الأول تنبّه كأن سطلاً من الماء البارد دلق على يافوخه. الثاني ضحك للمفاجأة. هذا هو سعيد حزّوم. وهذا غريم والده. الآن ستشهد الخمّارة فصلاً دراماً. ما أعجب هذه الليلة!

سأل سعيد ممتعضاً:

ـ من قال إن الريس عبدوش استولى على كاترين الحلوة من صالح حزوم؟

ـ لا أدري.. غير أن هذا الأمر معروف.. ربما ذكره الريّس عبدوش لأحد.

ـ هو يكذب!

قال أبو الوفق مدافعاً عن الريّس عبدوش:

ـ ما أظن.. الريّس لا يكذب.

ـ أنا أقول إنّه يكذب..

ـ كيف تعرف وأنت مثل أولاده؟

قال راغب هازئاً من غفلة الخمّار:

ـ ولكن هذا سعيد حزوم.. ابن صالح حزوم نفسه.

أجفل أبو الوفق. شعر أنه تورّط. أدرك الآن من هو سعيد هذا، ولماذا هذا الاعتداد بالنفس. قال متراجعاً، محاولاً تسوية الموقف:

ـ أنا لم أسمع هذا من الريّس عبدوش.. هوأكبرمن أن يقول كلاماً يتعلّق ببيته... إضافة الى أنه لا يكذب. صدّقني يا سعيد أنّه لا يكذب..

قال سعيد:

ـ مهما يكن.. دعنا بسلام الآن..

وبعد لحظة صمت سأل:

ـ تراه يعرف شيئاً عن صالح حزوم؟

ـ لا أدري.. ذكره أمامي مرة.. قال إنه غرق في باخرة جانحة في اسكندرونة.

ـ والدي لم يغرق.. ذهب في البحر لا أحد يدري إلى أين.. البحر وحش، نعم، لكنه لا يأكل بحّاراً مثله.

ـ ربّما، ربمّا، هل تريدان شيئاً؟

قال راغب:

ـ زجاجة عرق للريس عبدوش على حسابي.

ـ على رأسي (وبعد وقفة) وإذا رفضها؟

أجاب راغب ضاحكاً:

ـ قل له من ابن صالح حزوم وسيقبلها..

ـ سنرى..

وقال ذلك وانصرف.. سأل سعيد بضيق:

ـ لماذا فعلت ذلك؟

ـ كي يعرف أن سعيد حزوم رجل مثل والده..

ـ كنت أفضّل أن يبقى جاهلاً.. لا أرغب في فتح الدفاتر العتيقة..

ـ هل زعلت لأنه قال عن كاترين الحلوة ما قال؟

ـ أبداً! أنا لا شأن لي بكاترين الحلوة..

ـ وهل هي جميلة الى هذا الحد؟

ـ قلت لك لا أرغب في فتح الدفاتر العتيقة..

ـ كانت زوجة والدك؟

ـ كانت عشيقته..

ـ هل تعاركا لأجلها؟

ـ والدي لم يتعارك مع الريّس عبدوش حسبما أعرف.. والدي هو الذي طرد كاترين الحلوة.. كان يحبّها.. أحبّها حتى العظم، لكنهّا خانته مع الأتراك. جرى ذلك في مرسين. كان أبي في السجن،

وعندما خرج نفاها من مرسين.. أعادها الى اللاذقية.. وهنا تعرّف بها الريّس عبدوش وتزوّجها.. هذه هي الحكاية.. وهي حكاية قديمة جداً..

ـ هم.. لو لم تكن جميلة إلى حد مثير لما أوقعت بحّارين في حبها...

ـ تظنّ من الصعب إيقاع بحّار؟

ـ لا أدري.. ولكن.. أما سمعت ما قاله أبو الوفق عن الريّس عبدوش؟

ـ سمعت.

وقال سعيد في نفسه: «لكنّك لم تسمع ما يعرف الناس عن والدي. لو شاء أن يبقى كاترين الحلوة تحت فخذه لما وصل اليها ابن امرأة. ولو عاد والدي الآن ورغب في كاترين الحلوة لاستخلصها من الريّس عبدوش ولو دفع حياته ثمناً لذلك..

فجأة قال راغب:

ـ انظر.. الخمّار يوشوش الريّس عبدوش عنك..

وقال في نفسه: «دقّت ساعة المعركة».. وسمع، في هذه اللحظة، صوت الريّس عبدوش ينادي:

ـ سعيد! تعالَ إلي يا ابني.

ارتبك سعيد. فكر ألّا يجيب. أن يبقى مكانه.. لكنه وجد العيون مصوّبة نحوه. الريّس عبدوش وقف. إنه رجل كبير، مهيب، وهو في حلقته، ومن الحرج له، أن يستخفّ به شابّ كآبنه.

وقف سعيد وأجاب:

ـ نعم يا ريّس.. ماذا تأمر؟

ـ أنت في اللاذقية ولا أعرف؟ تعال إلي.. أم تريدني أن آتي أنا؟

ـ عفواً يا ريّس...

قالها واتجه نحوه:

ـ نحن بحّارتك...

ـ أنت ابني.. (قبّله) رحمة الله على والدك..

قال سعيد بعد أن جلس:

ـ والدي لم يمت يا ريّس..

ـ كيف؟ قالها الريّس عبدوش دهشاً، ألم يغرق في تلك السفينة؟

ـ ما أظنّه غرق.. والدي لا يغرق.. سافر بحراً الى جهة ما وسيعود.. أنا أنتظر عودته.

ـ إن شاء الله..

قالها الريّس عبدوش وقد أحسّ بشعور مقلق في داخله. أضاف: «إن شاء الله يعود.. كان بحّاراً عظيماً».

قال سعيد متابعاً تفاخره، رامياً، دون شعور، الى الإقلال من قيمة الريّس:

ـ وكان وطنيّاً جريئاً.. قاتل الفرنسيين. أما سمعت أنّه محكوم بالإعدام؟

ـ لم أسمع.. كلّ ما أعرفه أنه غرق.. وأنت تقول إنه لم يغرق.. هذا خبر مفرح.. مَن الرجل الذي معك؟

ـ راغب درويش.. هكذا قال عن نفسه.. أنا لا أعرفه إلاّ الليلة.

ـ يجب أن تدعوه إلى حلقتنا.. لا يصحّ أن يبقى وحيداً..

ـ سأعود اليه..

ـ لا، لن تعود.. ستبقى معي.. وغداً أراك ونتحدث. (قالها وصاح): يا سيّد راغب تفضّل الينا.. (وملتفتاً الى سعيد) ماذا تعمل يا سعيد؟

ـ في الميناء يا ريّس، على أحد الزوارق..

ـ لم تعمل بحّاراً كوالدك إذن..؟

ـ لم يتيسّر لي ذلك.. كنت في السجن بعد غياب والدي.. فرنسا انتقمت منه بسجني.. وبعد ذلك هاجرنا من اللواء.. أسكن في حي المرفأ...

ـ حسناً! غداً ألقاك ونتحدّث.. إذا رغبت في العمل معي فمركبي تحت تصرفك.. إكراماً للوالد..

قال أبو الوفق:

ـ وللابن أيضاً.. تصوّر يا ريّس.. كدت الليلة أتعارك مع سعيد.. كنت أحسبه غريباً.

قال راغب:

ـ الغريب حقيقة هو أنا، ومع ذلك فإن المعركة وقعت مع سعيد.

ـ لا غريب إلّا الشيطان.. أهلاً وسهلاً بالشباب.. كم سنة سُجنت يا سعيد؟

ـ ثلاث سنوات يا ريس..

ـ والسبب؟

ـ جثّة بحّار فرنسي..

ـ قتلته...

ـ عثرت على جثته في الباخرة الجانحة، بينما كنت أبحث عن جثة والدي.

ـ طريفة! وما ذنبك أنت؟

ـ لم أخبر السلطات عنها.. وزعموا أني مثّلت فيها.

ـ وبعد ذلك؟

ـ جاءت هجرة اللواء..

ـ والعائلة..

ـ معي هنا. تسكن في المرفأ..

ـ وهل أنتم بخير؟

ـ لا ينقصنا سوى رحمة الله..

ـ لن ينقصكم شيء بعد الآن.. الريح طيّبة يا سعيد والشغل كثير.. هل تسافر معي؟

ـ دعني أفكر يا ريّس..

ـ فكّر. نتحدث غداً.. أنا في مقهى الميناء كل يوم.

قال أبو الوفق:

ـ السفر مع الريّس عبدوش متعة وأمان.. ما أظنّ الميناء عرف ريّساً في مهارته.

ضحك الريّس عبدوش:

ـ لم يبق إلاّ أن تقول إني ملك البحر يا توفيق.

ـ أنت ملك الميناء، والبحر معاً.

ـ والبحر؟

ـ والبرّ أيضاً..

ـ كفى! أنت لا تعرف البحر.. تصوّروا توفيق الذي عاش على شاطىء البحر لا يعرف البحر..

قال أبو الوفق ضاحكاً:

ـ أنا لي بحري الخاصّ.. السجن..

وقال أحد الموجودين:

ـ وبفضل هذا نتمتّع بالأطايب هنا..

فانتفخ أبو الوفق:

ـ لولا خمّارتي ضعتم..

قال الريّس عبدوش في دعابة:

ـ ولهذا نمشي وراءك...

ـ أستغفر الله، صاح توفيق، نحن بحمايتك يا ريّس.

ـ ولهذا يجب أن نحتفظ بعقولنا. . يكفي الليلة (قالها ودفع النربيش الى غيره) غداً نتحدث يا سعيد. . تصبحون على خير يا شباب.

وقفوا جميعاً:

ـ وأنت بخير يا ريّس.

وقال راغب لسعيد في شبه همس:

ـ ننصرف؟

ـ إلى أين؟

ـ لنخرج من هنا أولاً. . نلت حظي هذه الليلة، وبتّ في حاجة الى شيء من الهواء. . (وبنبرة استفزاز) أم أنت خائف؟

ـ أنا أخاف؟

ـ إذن لننصرف. . .

وقفا. . بادر أبو الوفق الى الخدمة. أتى بحركة كمن يودّ إرجاع فلوس، تصفية للحساب. قال راغب:

ـ دع الباقي في جيبك. . أنت أكرمتنا فوق ما دفعنا. .

ـ وهل ننتظر تشريفكم مرة أخرى؟

ـ هذا يتوقف على انتهاء العمل. . ربّما سافرت غداً. .

ـ ولكنّنا لم نتعارف جيداً. .

ـ سيحدث هذا في المستقبل. .

ـ وسعيد؟

ـ برفقتي. .

وقال بخبث غير خاف:

ـ لقد عرفت الآن من هو سعيد يا سيّد راغب.

ـ هو في أمان. . قبل أن أعرف. .

ـ هل من خدمة؟ استشارة على الأقل؟

قال راغب ضاحكاً:

ـ لا تقلق.. أنا ابن المدينة مثلك.

خرجا. لحق بهما أبو الوفق الى الباب مودّعاً، راصداً، من خلفهما، الجهة التي يقصدانها،آملاً في أن يعرف أكثر ماذا يريد راغب، ولماذا حرص على اصطحاب سعيد معه.

قال راغب وقد ابتعدا عن الخمّارة، وسارا على الشاطىء باتّجاه السجن:

ـ من سوء الحظ أنني لا أقيم علاقات اجتماعية في هذه المدينة. أنا غريب فيها تماماً. لا آتيها إلا في عمل، وهي تعاقبني على عملي كل مرة عقاباً شديداً.

ـ هل تعذّبت في السجن كثيراً؟

ـ لم أتعذّب.. كان كل شيء يصلني الى هناك، والمال كفيل، كما تعلم، بأن يجعل السجن لا سجن...

ـ ومن أين كان يأتيك المال؟

ـ من حوريّات البحر..

ـ أنا لا أقصد شيئاً.. أردت أن أعرف هل لك أهل..

ـ أهل؟ لا.. معارف.. شركاء عمل..

ـ والسلطة؟

ـ مرحباً سلطة.. لدينا وسائلنا..

قال سعيد فجأة:

ـ ولكنك غير مغرم بالسجن الذي خرجت منه اليوم.. فالى أين نسير؟

قال راغب بلا مبالاة:

ـ إلى المبغى..

أحسّ سعيد بقلق ينبت في داخله، استعاد، على نحو كئيب،

ذكرى الليلة الفائتة مع عـزيزة. رغب عن التجـربة بسبب بـروز التخلخل النفسي الى سطح الوعي. قال في نفسه: «سيفتضح أمري. إذا أخفقت في ذلك الشيء افتضح أمري. إنني أفتقر إلى الثقة. لم أسترجعها بعد، لا أستطيع البوح لأحد، محال أن أحدّثه عما جرى. الأفضل أن أعتذر. أقول له يجب أن أعود إلى البيت. أتذرّع بأي حجة. هذا أفضل من أن أفقد سمعتي كرجل أمامه. البغايا يتكلمن. يقلن كل شيء بصوت عال. وسيسمع ويعرف مشكلتي.»

ــ إذن لنفترق.

قال سعيد وأضاف:

ــ لا أرغب في زيارة المبغى. كل ما فيه مقزّز. إضافةإلى أن لي عملي في الصباح، ويجب أن أنهض باكراً.

ــ لن تتأخر كثيراً.. وسيكون لنا مجلس شراب هناك.. لدي فتاة جميلة محجوزة، ولك أن تدخل معها، أو تنتقي التي تحلو لك.. هيّا.. دعنا نتمتع قليلاً.

ــ لا أرتاح الى جو المبغى، ولا أجد نشاطاً لذلك.

ــ لا أصدّق ما تقول.. إن فحلاً مثلك لا يفتقر إلى نشاط.. إسمـع.. لا حياء في المبغى، تسـتطيـع أن تتصبّب، وتشـرب، ولاتضاجع أي فتاة إذا كنت تخاف أن يلحقك أيّ مرض.

سكت سعيد. أسقط في يده. أحسّ أنه سيكون مهمًا في الحالين، شجّعه ألّا حياء في المبغى كما قال راغب. قال في نفسه: «ربما كان التجريب مع بغيّ أفضل. في وسعي ألّا أدخل أيضاً إذا لم أجد رغبة.. لقد غصت الليلة في وحل التجربة، فماذا بقي؟ حياة البحّار تتطلب كلّ هذا. إنني أسلك الطريق الى جهنم، لكنه الطريق الموصل الى اللجة، غداً سأتحدث الى الريّس عبدوش. ربمّا سافرت معه. في هذه الحال أكون قد اجتزت جميع الحواجز. أكون قد تعرّضت الى جميع المفاسد كما

ينبغي لبحّار، وبعدئذ أسلم نفسي للبحر.. أصير جندياً في جيشه الكبير».

في السماء نجمة صبح، على الطريق سقط وتحطّم. رغيف خبز أزرق في يد غجريّ جائع، البحر نائم، لا، البحر لا ينام. تطلّ الموجة برأسها وتفيض نثاراً في ماء زبرجديّ، الليل يلملم وشاحه ويدخل في النهار. الليل ينطوي على أجسام أضناها الانتظار. قلب يخفق، امرأة تلد. شيخ يحتضر، أكواخ الفقراء تتثاءب. ورجل يمشي على الشاطىء..

ودّع صاحبه ومشى على الشاطىء. قال في نفسه: «الآن، مع الفجر، ينتهي ما بيننا» الآخر قال: «في نفسه من يدري؟ ربّما كان هذا الوداع الى لقاء»، قالها في المبغى. الفتاة ترقد عارية على سرير عتيق من جوز. أطعمت اليوم كبدها للذئاب. في الصباح تستجمع ما تبقّى من صباها. في الليل تعتصر أيدٍ قذرة هذا الصبا، تعبث به كما الطبيب في جثة تحت التشريح، أيّتها السماء! كم أنت بعيدة يا سماء! الفقراء يستيقظون مع الفجر، يجب أن يركضوا وراء رغيف خيال: الرغيف، في هذه المدينة خيال.

ودّع صاحبه وسار على البحر خجلاً من البحر. قال في نفسه: «اليوم أولد بحّاراً» قال الآخر في نفسه: «من يدري؟ ربما ولدت، الليلة مهرّباً». الفتاة عارية على السرير، بقع زرق على كتفيها وظهرها. اليوم، وكل يوم، تنهش ذئاب جائعة جسدها، في كرنفال النخاسة تترك النيوب آثارها على جسدها. وهناك، في المدينة، أنياب ذئاب أخرى تترك آثارها على جسم آخر. هذه مدينة الذئاب مدن المرافىء مدن الذئاب، عبثاً تقام الأدعيات في البيوت، والمعابد، القمر لا يسمع، القمر الفضيّ سقط على الطريق وتحطّم.

قال راغب:

ــ سأبقى هنا.. أنا لا بيت لي.

قال سعيد:

ــ أنا ذاهب إذن. وقال في نفسه: «أنا هارب من هذا الدنس».

قال راغب:

ــ سأتصل بك في المستقبل:

ــ ....

ــ ألا تريد أن أتصل بك في المستقبل؟

ــ ...

ــ تخاف مني؟

ــ قلت لك أنا لا أخاف منك.. (وقال في نفسه: «بل أتقزّز»).

ــ مع السلامة إذن.

وأغلق الباب وراءه الآن، في هذه الساعة، تمنّ لو يلقي بنفسه في البحر. قالَ بغير صوت: «لا يغسلني سوى البحر، أنا ملوّث، ثيابي ملوّثة، ضميري ملوّث، ومن الداخل والخارج يجب أن أغتسل» مع الفجر يأخذون المحكومين الى الإعدام، مع الفجر يلبسونهم القمصان البيض ويعلّقونهم على المشانق. مع الفجر يفيق الفقراء، مع الفجر ينام الأغنياء، وكذلك يفعل الخطاة. «أنا خاطىء» قال في نفسه. لقد دخل التجربة، ألقى بنفسه من جرف عال فتلقّفه الشيطان، نجحت التجربة. سرّ بنجاح التجربة. تأكد أنه رجل وأنّه قادر. لكن، برغم سروره، أحس بلزوجة الإثم، وكما في المرة السابقة، قال في ذاته: «عليّ أن أغتسل كي أنسى هذه الليلة».

تابع طريقه الى البيت. البحّار لا يكون ناسكاً ــ قال في نفسه ــ

الريّس عبدوش نفسه كان في الخمّارة. شرب الخمرة والحشيش، الآن هو بين ذراعي كاترين الحلوة. امرأة الريّاس هذه. امـرأة البحارة الحقيقيين، أيّ سرّ يكمن في هذه المرأة؟ أيّ جاذبية وأيّ سطوة؟. ما الفرق بين امرأة وامرأة؟ وكيف، هذه المرأة، نسيت صالح حزوم؟»

«أيها البحر، قال سعيد حزوم بغير صوت، أين صالح حزوم الآن؟

ارتطمت على الصخرة موجة. تحطّمت وتناثرت الموجة.

البحر تكلم..

من يفهم كلام البحر...؟

وقال سعيد حزوم: «لا أحد، حتى ولا والدي نفسه».

٧

لم تقل أمه شيئاً، كان صمتها عتاباً قاسياً، لعنة البحر لحقت هذه العائلة. هي لا ترى مجد البحر، لا تعرفه. نساء البحارة يرين اللعنة، يعشنها، ويتركن لرجالهن أن يتحدّثن عن المجد، وأن يعيشوه أيضاً. «كل شيء، يا أم سعيد، له ثمن» وكان الثمن الذي تقاضاه البحر منها كبيراً. لو أن ماء البحر يحلو، لو أن في الدمع حلاوة، لغيّرت الدموع ماء البحر على طـول الزمن. إبكي يـا أم سعيد، إبكي. صالح حزوم لن يردّه البكاء. «لو كان البكاء يحيي كليباً، بكينا واستعرنا الباكيات» كليب كتب وصيّته بدمه، قال لابن أخيـه «لا تصالح». . زوجك لم يكتب أيّ وصية. لم يقل لابنه لا تكن، لأجل أمك، بحّاراً؛ أراده شبيهاً به، أن يسير على طريقه، والابن سار على طريق أبيه. بدأ باللعنة ليصل الى المجد. ما كل من بدأ باللعنة وصل الى المجد. بينهما، في حياة البحر، خطّ متعرج. لكنّها البداية التي لا بدّ منها. ابنك منذور. أحشاؤك نذرته، صلب زوجك نذره، النطفة كانت ماء مالحاً، عبثاً تبكين. ما أجْدَتْ نصائحك شيئاً. أسلميه للبحر. تخلّيّ عنه لأبيه الأكبر هذا، دعيه يتكرّس ابناً حبيباً له. النصر لا يأتي إلا عبر الوحل والدخان والموت. والبحّار لا يصير بحّاراً إلّا عبر الحانة والمرأة والميناء.

ــ أين كنت يا سعيد؟

يقول لكِ «في الحميم»؟ أنت أمّ، الأمّ تحسّ، تعرف. تدرك

بحاسّة الأمومة. هذا الخارج من الأتون ابنك وليس ابنك. في عينيه الحمراوين، في شعره المشعّث، وقميصه المفتوح، ووجهه الشاحب، وكل هيئته التي تبكيها الطفولة، تبكيها البراءة، صورة غريبة. سعيدك لم يعد سعيدك. هذا هيكله، أما الروح فقد حلّت بجسد مباع الى الشيطان. البحر لا يلد إنسيّاً. يستلب الإنسيين. يصيرهم أبناءه. يرمي بهم في اللجج السحيقة. هناك ينبتون أبنوساً أو شيحاً، وعلى قبورهم، حين يموتون، ينبت ورد أبيض أو عوسج. البحرإلّه عادل. الشجعانأبناؤه، والجبناء أبناؤه، لكنه بين هؤلاء وهؤلاء، يحكم بميزان دقيق، إفرحي وتهلّلي يا أمّ. ابنك في الشجعان، لكنّ درب التجارب وحدها التي تصهر الشجاعة. لا تسأليه أين كنت، هذا السؤال ملغى. امرأة البحار لا تسأل رجلها أين كنت. تسأله متى وصلت ومتى ترحل. لقد رحل زوجك، وسيرحل ابنك، وهذا البيت، كبيوت ألوف البحارة، وألوف الصيّادين، وألوف العاملين في البحر، لن يعرف الهناءة بعد اليوم، حسبك أن تسألي، اللطف به، أن تخرجي الى البحر، وتضرعي اليه قائلة: «يا بحر! ترفّق به ولا تأخذه كما أخذت أباه». وقالت في نفسها: «العمل يرهقه، فتى هو، ولم يعتد... كذلك يرهقني العمل في الريجي، ويرهقني العمل في البيت، فماذا نفعل؟ كل الفقراء أمثالنا، مرهقون. آه ما أكثر الفقراء في هذه المدينة» قالت أيضاً: «أيّ مدينة ليس فيها فقر؟ هناك، في مرسين، كنّا في حي الفقراء، وفي اسكندرونة عرفنا الجوع، وفي اللاذقية نكدح في سبيل اللقمة، وهذا العمر يمضي.. ونحن ننتظر...»

كان سعيد قد نام. خجل أن يتكلم فخلع ثيابه ونام. الأسرة كلها في غرفة واحدة مستطيلة كهف هي وليست غرفة. ما الفرق بين كهف من حجر وكهف من صخر؟ الإنسان وحده تغيرّ. صار يعرف، صار يدرك، صار يناضل. واقعه الشقيّ لم يعد يرضيه. يتململ، هذا

بداية. الأرض تتململ، ثم ترتعش، ثم تنفجر. أم سعيد غير راضية، لكنها جاهلة. تتساءل في نفسها: «ما علاقة فرنسا بكل هذا؟ ولماذا فعل ما فعل زوجي». لا بأس. تساءلي، يكفي الآن أن تتساءلي.

نامت هي أيضاً. وفي الصباح الباكر استيقظت لتذهب الى عملها. أيقظت ابنها أيضاً. كان الخمّار يدق كمطرقة في صدغيه. جفاف في حلقه. عيناه ما زالتاحمراوين. رغب عن النهوض. رغب عن التذكّر. ليلة أمس تقاضت ثمنها. الخطايا تتطلّب أثمانها. يأسف؟ وماذا ينفع الأسف؟ هذه هي حياة الميناء، وهو رجل في الميناء. غداً يصبح رجلاً في البحر. هذا هو الدرب. أنت بين قاسم وراغب. هذا يشدّ من طرف وهذا يشدّ من طرف. الإلّه والشيطان. الخير والشر. النضال أو الاستخذاء. تستطيع أن تكون شريفاً، وتستطيع أن تكون عاهراً. لا تقل الظروف. الإرادة لها دور، والوعي له دور، وسيرة أبيك لها دور. . هل تخون أباك؟

جلس في فراشه كارهاً. لا بدّ من الذهاب الى العمل. سيراه البحار العجوز ويسأله عن حاله. أمس كان مكتئباً من إحباط. اليوم أصبح متهدّماً من فجور. لقد نام مع البغيّ ونجح. ما مرّ معه كان مجرّد تعب. تعلّم الآن درساً. عامل البغيّ بلطف. إنسان وإنسانة. ليس من حب، وليس من كره أيضاً. نزوة الفحولة كانت عابرة. عرف معها كيف يضبط الوحش في داخله. في داخل كل إنسان وحش. وكل إنسان قادر على ضبط الوحش. سيعترف لعزيزة بخطئه. سيقول لها كلمات لطيفة. عليه أن يتعلّم كيف يقول لها كلمات لطيفة. اللطف لا يتعارض والرجولة. «أبي كان لطيفاً، وكان رجلاً أيضاً».

تغيّرت حاله وهو في الزورق. قهوة الصباح نفعته. مرأى البحر

أبهجه. مرّ ببيت عزيزة وعينه على نوافذها. قال في نفسه «أتكون حاقدة علي؟ لن أرى الصبي الأسود بعد؟.. لقد صفعتها. يا لي من نذل! أبدأ حياتي بضرب النساء. والدي لم يكن يضرب سوى الرجال. يضربهم عند الحاجة، وعندما يكونون أنذالاً. أفضل شيء أن أبحر. هذا خير من التعفُّن في الميناء. في البحر سأنسى. سأثبت للريّس عبدوش أنني ابن صالح حزّوم. ولكن صالح حزوم خصمه. تخاصما لأجل امرأة؟ ما أظن لو حدث هذا لسمعت به. والدي ترك كاترين الحلوة. تزوّجها الريّس عبدوش. هي الآن زوجة ريّس.. علي أن أعاملها باحترام. لقد كانت كيّسة على الدوام، وفي اسكندرونة رغبت في مساعدة العائلة. أمي غفرت لها. أمي مستعدة دائماً للغفران. إنها امرأة طيبة».

قال له البحار العجوز:

ـ بماذا تفكر؟

ـ بالبحر..

ـ ما رأيتك تفكر به مثلك اليوم.

ـ السبب أنني سأصير بحّاراً..

ـ هذا ما يجب.. البحر سيجعل منك رجلاً.. أما الميناء..

ـ أعرف ما يدور في رأسك.. أنا رجل في البحر وفي الميناء.

ـ للميناء أخلاقها يا سعيد..

ـ وللرجال أخلاقهم أيضاً..

ـ عدنا إلى الاعتداد؟

ـ لن يفارقني الاعتداد بعد اليوم..

ـ ستقول لي إنك سحقت امرأة..

ـ لا تحدّثني عن سحق النساء.. لن أمارس هذه اللعبة اللعينة.

ابتسم البحّار العجوز:

ـ أنت لم تعرف نساء المرافىء بعد..

ـ يكفي ما عرفت.. لا تعد الى هذا الحديث.. أرجوك..

ـ من هي هذه التي جعلتك تتوب؟

ـ ليس من امرأة تجعلني أتوب.. لكنني لا أريد هذا الحديث.. أنا إنسان ولست وحشاً.

ـ فهمت لماذا كنت كئيباً أمس.. هزمتك امرأة يا سعيد..

ـ لم تخلق التي تهزمني..

ـ هوّن عليك.. كل رجل لا بدّ أن ينهزم أمام امرأة.. غداً تتزوج.

ـ إذا كان الأمر كذلك فلن أتزوج.

ـ الهزيمة في هذه الحال أكبر. تكون قد ألقيت سلاحك قبل دخول المعركة.

صمت سعيد لحظة. قال في نفسه «ماذا يريد هذا العجوز؟» هو لا يخوّفني من الرجال، ولا من البحار، ولا من الوحوش.. يخوّفني من النساء.. أتكون المرأة أقوى من الرجل؟ أقوى من البحر؟ لست أفهم..»

ـ أحببت في حياتك؟

ـ لا..

ـ إنتظر إذن حتى تحبّ..

ـ تخوّفني من الحبّ أيضاً؟

ـ معاذ الله.. الحبّ خلق للشباب.. لكن الذي يحبّ يعرف من هي المرأة.

ـ وإذا أحبّته المرأة؟

ـ تعرف من هو الرجل..

ـ ألا يوجد حبّ بغير ذلك؟..

ـ يوجد.. يصير ذلك بعد الزواج.. يصبح الرجل حماراً تركبه امرأة..

ـ ولماذا لا تصير الزوجة حمارة يركبها الرجل؟

ـ تصير كذلك في الليل.. أما في النهار فينقلب الأمر.. عرفت رجلاً عجوزاً مجرّباً كان يقول: «المرأة تريك شيئاً في الليل، ومئة شيء في النهار»

ـ أنت تبالغ.. هذه عقلية قديمة..

ـ يجوز.. بعد زواجك، إذا عشت، نتلاقى..

ـ أنا لن أتزوج..

ـ وهذا أسوأ من الزواج نفسه..

ـ إحترت معك.. والدي كان زوجاً، ولم يكن حماراً.. لو عرفت أمي وعذابها..

ـ وأنت لو عرفت والدك وعذابه.. أبحر تعرف..

ـ أعوذ بالله من العجائز..

ـ بل أعوذ بالله من الشباب..

ـ التفاهم مفقود بيننا..

ـ لأنك لا تريد أن تتعلّم..

ـ أنا تعلّمت.. جعلتني وحشاً فدفعت الثمن..

ـ أين؟ في المبغى؟

ـ البغي امرأة شقية..

ـ أين قرأت هذا؟ في القصص؟

ـ لو أنك قرأت القصص..

ـ ربما، ربما.. كل الذين يسمعون قصة عنتر يصيرون عناتر..

ـ أنا لم أسمع قصة عنتر..

ـ أنت عنتر دون أن تسمعها. .

ـ تسخر مني؟

ـ أعوذ بالله. أنت اليوم مثل ديك الحبش. . أخبرني. . ماذا جرى معك أمس؟

ـ تعاركت في خمارة أبو الوفق.

ـ في المحششة؟

ـ هي بالذات. . وشربت الحشيش أيضاً.

ـ تهانينا

ـ شكرا. .

ـ ومع من تعاركت؟

ـ مع أبو الوفق ذاته. .

ـ لا أصدّق. .

ـ لماذا؟

ـ مع هذا المجرم؟ ضارب السكاكين؟

ـ ضرب هذه المرة بالكرسي. .

ـ أصابتك؟

ـ نسيت أنني ابن صالح حزوم؟

ـ وماذا فعلت أنت

ـ خلّصته الكرسي وألقيتها جانباً. . رفضت أن أضربه. . استهنت به. .

ـ طيّب. . أفرحت قلبي. .

ـ وتعرّفت الى راغب درويش.

ـ هذا المهرّب العالمي. .

ـ هو نفسه. .

ـ تهانينا مرة ثانية.

ـ شكراً على عواطفك.

كان الصوتان يزدادان تمايزاً. أحدهما ساخر متهكّم، والآخر، عابث مزهوّ. وكان البحّار العجوز يقترب من اللحظة التي يشعر فيها المرء ألّا فائدة من الكلام، فيدير ظهره للآخر ويلوذ بالصمت. بدا عليه الآن ظل من أسف. سعيد يضيع نفسه. يغرق في وحل الميناء. وهذا التردّي من المبغى الى المحششة الى معاشرة المهرّبين، سيؤدي به إلى التهلكة دون ريب. وعليه هو، زميله المجرب، المقدِّر لرجولة والده ولو سماعاً، أن ينصحه، أن يحاول زجره، لعلّه يثوب الى رشده.

قال له:

ــ في الماضي كانت النصيحة بجمل، أما الآن فبعداوة.

أدرك سعيد أن زميله مستاء، وأن به قلقاً عليه. وشت لهجة العجوز بالضيق وعدم الارتياح. ولأول مرة استشعر سعيد أن سخرية العجوز انقلبت الى أسى، وهذا من فرط مودّة له، وأن قصته عن ليلة البارحة خليقة أن تزعل الريّس عبد الحميد نفسه وأن تسقطه في عين الذين سمعوا بقصّة أبيه. قال مسترضياً:

ــ لا عاش من عاداك يا مصطو. أنت في مقام الوالد.
ــ لو سمع والدك بسلوكك هذا لأنكره أو أنكرك.
ــ أنا أجرب لا أكثر..
ــ قد تصبح التجربة عادة..
ــ لا تخف..
ــ كل الذين سقطوا زعموا أنهم يجرّبون ثم انزلقوا.
ــ أنا لن أنزلق ولن أسقط..
ــ هذا جواب حلو. ولكن.. في جوّ الميناء هذا..
ــ لن أبقى طويلاً في الميناء. قريباً أودّعك..
ــ إلى أين؟

ـ إلى البحر. . والدي أعدّني لأكون بحّاراً لا متسكعاً في الميناء.
ـ وفي البحر ستجد موانىء أكثر فساداً وأشد إغراء. .
ـ معنى هذا أنك لا تريدني أن أبحر. .
قال العجوز مستدركاً:
ـ لا، أبداً، وإنما أنا أحذّرك. .
ـ وأنا أفهم تحذيرك، وسأذكره دائمًا. .
ـ ومع من تبحر؟
ـ مع الريّس عبدوش.
ـ نعم الرجل ونعم الريّس. . ولكن احذر أن تسيء إليه بشيء. . إن سطوته شديدة، وهو منتقم لا يرحم، إذا لم يكن بحّارته كما يريد. .

ـ سأعرف كيف أتعامل معه. .
ـ وكيف تعرّفت به. .
ـ في خمارة أبو الوفق. .
ـ هم. . إنه من جماعة الكيف طبعاً. .
ـ المجالس بالأمانات. .
ـ تظنّه يتحرّج من ذلك؟ الحشيش شائع في السجن والميناء. . يفتخر به شاربوه. . يحسبون أنه يكسبهم جاهاً. .

ـ لم ألاحظ أيّما افتخار على الريّس عبدوش. .
ـ يسيطر على نفسه. . إنه جبّار عليها وعلى الآخرين. .
ـ خوّفتني منه. .
ـ قلت لك إنه رجل ويحبّ الرجال. .
ـ وكيف هو مع بحّارته؟
ـ أنا لم أشتغل معه. . غير أنه ريّس. . وصاحب مركب. . وما

أظنّه يختلف كثيراً عن أصحاب المراكب في معاملة الذين يعملون معه.

ــ يستبدّ بهم؟

ــ هذا قانون الريّاس...

ــ ويقتّر عليهم؟

ــ لا أعرف هذا.. ولكن من أين آغتنى أصحاب المراكب..؟ من رقاب بحّارتهم..

ــ أنا سيعاملني بشكل آخر.. إكراماً لوالدي..

ــ جرّب أن تحفظ سمعة والدك إذن، وأن تكون رجلاً مثله..

فكّر سعيد: «والدي كان بحّاراً ولهذا ظلّ فقيراً.. سيكرمني الريّس عبدوش، لكنّني، بالنسبةإليه لست إلاّ بحّاراً.. وربمّا توقف كل شيء على مسلكي، أكون مع الريّس ضد البحارة؟ مع البحارة ضد الريّس؟... هل لهذا يريد قاسم إنشاء نقابة لعمال الميناء والبحارة؟».

بعد الظهر التقى الريّس عبدوش في مقهى البحارة. قارنه بالريس عبد الحميد فوجده أوزن وأكثر هيبة. قال في نفسه: «كلّهم يتحدّثون عن سطوته.. فهل هذا ما أغرى كاترين الحلوة به؟ أتحبّه أم تخافه؟ وهل يُقاس حبّها له بحبّها لوالدي؟» أضاف كمن يستمدّ عزما: «أيهّما أفتك وأشدّ رجولة: الريس أو والدي؟».

قال الريّس عبدوش:

ــ أنا مبحر غداً أو بعده، حسب الريح، فاذا رجعت ضممتك الى المركب.. هل توافق؟

قال سعيد:

ــ هذه أمنيتي..

ــ هل عملت في البحر قبل الآن؟

ـ في الميناء فقط. .
ـ لابأس. . ستتدرّب معي. . هل تجيد السباحة؟
ـ نعم . .
ـ وتعرف ما معنى العمل في البحر؟
ـ سمعت ذلك من والدي كثيراً. .
ـ سنكرمك لأجل والدك. . ولكن حذار. . كن عند ثقتي. .
ـ إن شاء الله.
أخرج أوراقاً نقدية من جيبه وقال:
ـ خُذْ هذا على الحساب. .
تردّد سعيد. . رهب الارتباط المفاجىء هذا. قال:
ـ لا حاجة للفلوس الآن. .
قال الريس عبدوش بصوته الآمر الحازم:
ـ خذ. . غيبة البحّار تطول وعائلته بحاجة إلى المال. . ثم عليك أن تتجهَّز. . هيّىء نفسك وآنتظر عودتي.
قالها والتفت إلى من حوله:
ـ ماهي الأخبار؟
قال رجل:
ـ فرنساتتنمّر أكثر فأكثر.
قال الريّس عبدوش:
ـ وما من ظالم إلاّ سيُبلى بأظلم. .

أدرك سعيد أن حديث الريّس عبدوش اليه انتهى. . عجب من حفاوته ليلة أمس ومن جدّيته اليوم. قال مبرّراً ذلك: «حديث الكيف نوع وحديث العمل نوع آخر. . إنه ريّس هنا، صاحب مركب، ومن حوله البحارة، وهذا هو المظهر الذي يجب اتخاذه لمن كان مثله». ألقى التحيّة ونهض. عليه أن يعود إلى البيت. لا بدّ من إخبار والدته. تساءل: «كيف تتقبّل النبأ؟» اغتم لأنّ معركة ستنشب. . قد لا

تصرخ والدته، لكنه متأكد أنها ستعارض، ستبكي، وسترجوه ألّا يغامر، ولا يسافر في البحر. وستجدّد ذكر والده، وفجيعتها به. . إنها تعتبر غيابه وانقطاع أخباره فجيعة، ولا تريد أن تتكرّر، وأن يتخطّف البحر ابنها أيضاً.

صعد في الطريق وهو يمارس إحساساً مبهماً، فيه رغبة، وخشية، وتشتّت، وفيه محاولةلاستكشاف المجهول الذي ينتظره في عالمه الجديد وفي المهنة الشاقة والسعيدة، كبحّار عليه أن يعتاد الحرمان من رؤية الارض والناس والأهل، لشهور طويلة، أو أسابيع على الأقل، وهو يواجه في البحر كل المفاجآت المنتظرة.

أحسّ، منذ الآن، أنه سيفتقد الميناء، ومنطقة المرفأ، وهذه الكهوف، وكل العوالم الكبيرة والصغيرة التي ألفها في هذه المدينة. قال في نفسه: «كيف يصبر الرجال على فراق زوجاتهم وأولادهم وكل عزيز عليهم ويبحرون ولا يبالون؟ تصير لهم أخلاق أخرى وعادات أخرى؟ يحبّون الماء أكثر من اليابسة؟ يفقدون الصلة شيئاً فشيئاً بعالم المدن والشوارع والحدائق وكل المباهج التي يخلّفونها وراءهم؟ كيف يقضون أيّامهم في البواخر والمراكب وفوق الماء الواسع الذي لا يحدّ؟ يستوحشون؟ يصيرون حيوانات فوق أخشاب عائمة؟ وكيف قضى والدي حياته في عالم كهذا وأحبّه وأوصاني أن أعيش فيه؟» إنه سيبحث عن هذا الوالد. في كل مرفأ سيتنسّم أخباره. سيبحث، يسأل، يسمع الى أقوال البحارة ويختلط بهم، فإذا عرف أن والده في جهة ما فسيقصدها مهما تكن نائية. «أجل سأقصدها مهما تكن نائية». كانت الشمس قد أخذت تتلفّع بالسحب الصيفيّة المتراكمة عند الأفق، وعين نارية تشعّ من وراء كثبان قطنيّة ذات أشكال تجريدية، والبحر الازرق تتراكض موجاته بتكاسل وتتلاشى على الشاطىء، وسحر ليلة صيف ينتشر في الجو. تحرّكت في أعماقه نوازع شوق الى

مصالحة الأشياء قبل السفر. رغب في رضى والدته. وفي الاعتذار إلى عزيزة، وتقبيل البحّار العجوز الذي يعمل معه في الزورق. وزيارة خمارة أبي الوفق ليقول له: «إنسَ ما وقع بيننا يا توفيق».

حام حول بيت عزيزة. فكّر أن يصعد السطح، كما في الأيام الأولى لتعارفهما. أن ينتظر الليل ويقرع الباب متذرّعاً بأية ذريعة. أن يرصد خروج زوجها ويقتحم البيت عليها. زعم لنفسه أنه لا يريد شيئاً، مجرّد أن يراها، ويشرح لها أنه أخطأ في حقها، وأنه أفسد الليلة بحماقته، وأنه تعلّم درساً من ادّعائه وغروره، سيقول لها كل ما في قلبه، وينبئها أنه مسافر في البحر، وسيعود إليها، ويصون نفسه لأجلها.

قفز الجدار، عند شركة الامبريال، ونزل الشاطىء، سرّته لعبة ملاحقة الأفكار. في الهدوء الذي صار إليه، غدا التفكير نوعاً من متعة ذهنية. عليه، منذ الغد، أن يبتاع ما يحتاجه البيت، أن يعطي أمّه ما يكفيها من النقود. أن يصارحها أنه سيعمل مع زوج كاترين الحلوة. ترى أخبر الريّس عبدوش كاترين الحلوة أنه التقى به وسيعمل معه؟ ما ردّ فعلها على هذه الذكرى المفاجئة؟ ما موقفها منه هو الذي رفض مساعدتها في اسكندرونة؟ يجيز له الريّس عبدوش رؤ يتها؟ أسافرة هي الآن أم محجبة؟ تأتي لزيارتهم أم تتجاهل الأسرة كما تجاهلت صاحبها؟

البحر في الرأس. بحر واسع في الرأس. الموجات تتتالى، تأتي وترتطم وتتناثر. ينسى ما حوله ويعيش داخله. لا يضيق بالأسئلة لكنّه لا يملك أجوبتها. هو الآن يتعامل مع ريّس، مع صاحب مركب، مع ربّ عمل. عليه أن يفهم هذه الحقيقة. أن يقدر ما بينهما من مسافة، أن يكنّ الاحترام للزوجة كما يكنّ الاحترام للزوج، ثم إنها حبيبة أبيه ومعشوقته. لقد عرفها أبوه، ووفاء لهذه الذكرى الغالية عليه أن يكرمها، أن ينهي، في نفسه، كل عداء لها، ويصبح

صديقاً. أما إذا أرادته خادماً، وإذا أنفذه الريّس في حاجة إليها، فسيكون في موقف حرج، لكنه لن يقبل أية كلمة أو حركة تمس به، وبالتالي تنتقص من قدر والده، ولو أدى به ذلك إلى ترك العمل مع الريّس عبدوش.

غربت الشمس. شهد غروبها بافتتان. راق مزاجه. خيّل إليه أن النجوم، الليلة، أكثر عدداً، وأشدّ ٱلتماعاً. لم يكن ثمة قمر. ليالي الصيف، على الشاطىء، بهيّة بغير قمر. يحلو له، في مثلها، أن يأخذ شختورة ذات مجذافين، وينطلق في البحر، أويتوقّف حيث يجذف الآخرون ويستمع إلى تلك الموسيقى العذبة الصادرة عن المجاذيف.

فجأة رأى الصبيّ الأسود.

كانت عزيزة على الشرفة، ومن موقفها على السطح المنبسط أمام بيتها رأته وعرفته. لا بدّ أنها كانت تترصّده. قال في نفسه: «هذا جيّد يا عزيزة، يا حبيبتي الصغيرة، النحيلة، اللطيفة والمتوحّشة، جيّد أن يكون قلبك دليلك، وأن يكون طبعك الحلو قد مال بك إلى التسامح». وعندما زارها، في الموعد المحدّد، استقبلته على الباب. «أهلاً» قالت، ابتسمت، ولم تزد.

أراد أن يتكلم فوضعت يدها على فمه:

ــ لا تقل شيئاً...

ــ ولكنني أخطأت..

ــ يا حبيبي، لا تقل شيئاً.

قبّلته في فمه، قبّلها في خدها وعنقها. انفلش شعرها كمروحة. غطّى رأسه. العطر شذى. من رقبتها يفوح مسك. غالية، رائحة كالآهة، تسحب القلب إلى أعلى. قبّل صدرها أيضاً. أدرك لماذا تضع

المرأة العطر في المجرى المعذب بين نهديها، ولماذا تضعه وراء أذنيها. هذه نقطة حسّاسة، لكن الفم لا يتعطّر. عطر الفم خلقة، الفم، بين امرأة وأخرى، هو الذي يختلف. المرأة التي تجيد التقبيل هي التي تجيد الإثارة. عبثاً، بغير الفم، تكون إثارة.

جلست، في غرفتها، على مقعد. انحنى فوقها. رفعت رأسها. أفضل وضع للمرأة أن تجلس في مقعد وترفع رأسها. تهدّل شعرها إلى وراء. داعبه بأصابع مرتعشة. طال انتظارها. ينبغي للمرأة، أحياناً، أن يطول آنتظارها. أن تنظر إلى أعلى وتغمض عينيها، حالمة بالمتعة الكبرى، الأكبر من كل شيء. تبدّت، الآن، محرومة. الشعور بالحرمان، في الجنس، شعور شبقيّ. جوع إلى المائدة المنتظرة. أطيب الطعام ما أكل على جوع. الجنس طعام من الطعام. كُلْه وأنت جائع. لا تجلس إلى مائدته وأنت متخم، لا تشرب وأنت مرتوٍ، يتثاءب القدح عندئذ، والحبّ يغلّفه كسل قاتل.

انطبقت الشفاه واليد تتسلّل عبر فتحة الثوب. للبحث لذّته، وللاكتشاف لذّته. الرجل باحث ومكتشف دائمًا. إذا ملكت تحُفاً فلا تدع العين تسقط عليها منذ دخول الزائر من الباب. في الصين يقيمون جداراًخالياً من الزخرف أمام المعابد. يتركون للعين أن تبحث وتكتشف. . عزيزة، في كلّ مرّة، كانت تريد لسعيد أن يبحث ويكتشف. أعظم اكتشافاته كانت رمانتين صغيرتين، مكورتين، حارّتين في رأسيهما حلمتان نهديّتا اللون.

السرير يتشوّق. الاسرّة كلّها تتشوّق. لو تبوح الأسرّة يوماً بأشواقها وأسرارها. يا صانع الأسرّة، تعرف ما ينتظر أسرّتك؟ كلّ المعادن، كل الأخشاب، كلّ الأقمشة،سيّئة الحظ، منبوذة ومهجورة، موضوعة خارج فرح الآلهة. الأسرّة وحدها محظوظة، فهي ترى، وتسمع، وتعرف نهايات اللّذة، بعد طول تموّج واضطراب. تشهد،

دون غيرها، ما يتمنّ غيرها، لو يدفع العمر كي يشاهده.

قاما إلى السرير، تصالحا على السرير. تموّج السرير. اضطرب، وعلى الجدار، كانت صورة الزوج، تنظر صامتة، شاهدة على مأساة الحياة، وعلى ضجيج فرحتها، حين يتمرّد المملوك على مالكه، وينتقم منه أيضاً.

* * *

مع الفجر كان في البيت، وكانت أمه ساهرة. تظاهرت أنها نامت وأرقت. لم تسأله أين كنت. تعوّدت ألّا تسأل زوجها. من العبث أن تطرح امرأة البحّار أو أمّه مثل هذه الأسئلة على زوجها أو آبنها. يكفي، بعد طول ترقب، أن يطلّ الغائب، كأنمّا البحّار، في خروجه، يترك انطباعاً بأن العودة مشكوك فيها.

قال وهو يخلع ثيابه:

ــ سأسافر يا أمي.

فوجئت. تنبّه إحساس الأم إلى خطر مقبل. انتصبت في جلستها وقد آنقلبت سكينتها إلى توفز، سألت قلقة:

ــ إلى أين يا سعيد؟

ــ سأسافر في البحر، مع الريّس عبدوش.

ــ ومن هو الريّس عبدوش هذا؟

ــ صاحب مركب ضخم.. من الريّاس المَهرة.. يعرف الوالد..

ــ هل لديه أخبار عنه؟

ــ لا.. كل ما سمع عنه أنه غرق في تلك الباخرة.

ــ ولماذا تسافر معه؟

ــ سأعمل بحّاراً على مركبه؟

قالت نائحة:

ـ يا ويلي.. تسافر كما سافر أبوك؟

ـ أسافر للبحث عنه..

ـ تضيع مثله.

ـ كل شيء بإذن الله..

ـ آمنت بالله.. لكن البحر ليس له أمان..

ـ البحر لا يأكل الناس..

ـ أكل والدك قبلك..

ـ مهما يكن.. أريد أن أكون بحّاراً..

ـ لن تكون بحّاراً مهما حدث..

ـ أُنفذ وصيّة والدي..

ـ والدك غائب.. اسمع وصيّة أُمك..

ـ أعرفك عاقلة..

ـ سأصير مجنونة.. عقلي سبّب آلامي.. لو عارضت والدك لما تورّط وحدثت الكارثة.

ـ أنت تبالغين.. تخوّفينني.. والدي لم يغرق.. سأسافر وأبحث عنه.. هذا واجبي.

ـ وأنا أقول لن تسافر.. يكفي فجيعتي بواحد.. البحر أخد نصيبه منّا.. فريضته علينا انتهت.. فماذا يريد أكثر؟

تراءى لها البحر غولاً. صار أسود. تضاعف رعبها منه. لن تُسلِّم فلذة كبدها إلى هذا الشيْطان. لقد خافت طوال حياتها من هذا الذي يوشك أن يحدث. نهت ابنها منذ كان صبياً عن اتباع والده على طريق الهلاك. رجته، بكت أمامه، حاولت أن تصرفه عن التفكير به. قالت له: «إذا كان لا بدّ من العمل في البحر، فيلكن ذلك في الميناء». كانت تحسب أنه آستمع إليها وقنع منها، أيّ إبليس وسوس في صدره؟

أيّ قَدَر يوشك أن يهدم بيتها من جديد؟ لا، لن ترضى، ستفعل كلّ ما في وسعها لتحول بينه وبين الرحيل.

ــ اسمع يا سعيد، يا حبيبي، البحر غدّار، البحر عدوّ.. لا تفكّر في السفر. لماذا لا تقنع بعملك في الميناء؟

ــ أنا لم أخلق للميناء..

ــ كلمات والدك نفسها..

ــ هذه كلمات جميع البحّارة.. البحر للرجال..

ــ وأنت؟ صرت رجلاً؟

فكّر بالخمارة والحشيش والمبغى. فكر بعزيزة والبحار العجوز والريّس عبد الحميد. فكّر بالسجن وأبي الوفق والمهرّب راغب درويش.. وقال في نفسه: «أمي لا تعرف شيئاً عن كل هذا. تحسبني ذلك الصبيّ الذي كنت. قد لا تصدقأنني شربت الخمرة والحشيش، وعرفت نساء المبغى ونساء المدينة.»

قال لها:

ــ حسبتك ستفرحين لأنني مسافر في البحر.

ــ المرأة لا تفرح بسفر رجلها في البحر.

ــ وهؤلاء البحّارة.. ماذا تفعل زوجاتهم؟

ــ اذهب إلى بيوتهم تعرف..

ــ والنتيجة؟

ــ لن تسافر..

ــ سأسافر..

انتصبت كأنّ نابضاً دفعها إلى أعلى. تقدّمت منه بوجه مكفهرّ، ومن عينيها يتطاير الشرر. صفعته بقوة دهشت هي نفسها كيف واتتها. صاحت:

ــ قلت لك لن تسافر..

أحسّ بالصفعة في قلبه. لم تكن مؤلمة بقدر ما هي مخزية. رجل ويُضرب؟ هذه أُمُّه أم غيرها؟ هذه هي المرأة المسكينة الضعيفة التي لم تعرف أن تقول لا لوالده؟

قال ببرود:

ـ أين ثياب أبي؟

ـ في الصندوق. .

ـ سأرتديها منذ الغد. .

ـ هل ترفض رجائي؟

ـ عليّ أن أبحث عن أبي. .

ـ أبوك مات. . مات. . وأنت ستلحق به، وأبقى أرملة، ويبقى اخوتك يتامى. . هل يعجبك هذا؟ آه يا ربيّ!

قالتها وانفجرت بالبكاء. . تهاوت على الفراش وراحت تنشج. هي تعرف أن الدمع لا يفيد مع الابن، كما لم يفد مع الأب، لكنها أحست أنها مغلوبة، مسحوقة، تتعذّب بصمت، والحياة توجِّه لها اللطمة تلو الأخرى.

قال سعيد ملاطفاً:

ـ أبي لم يمت. . أنت واهمة. . تقطعين أملك من الدنيا. . تقنطين من رحمة الله. . هذا خطأ. . يجب أن تكوني قويّة، أن تصبري قليلاً. . والدي سيعود. . عليّ أن أبحث عنه. . أنا مسافر مع الريّس عبدوش. . مركبه جديد وضخم. . كوني مطمئنة. . خذي. .

قالها وأعطاها قسمًا من النقود التي تسلّمها من الريس عبدوش، فلم تمدّ إليها يداً. فزعت منها. تصورتها ثمناً لدم ابنها. وضعت يدها على خدّها وواصلت ذرف الدموع بصمت، كأنما يئست فاستسلمت.

وقال سعيد كمن تذكّر شيئاً مهمًا نسيه:

ـ هل تعرفين من هي زوجة الريّس عبدوش؟

ـ . . . .

ـ إنها كاترين الحلوة . .

خرجت عن صمتها:

ـ كاترين الحلوة؟

ـ هي نفسها

ـ من أخبرك؟

ـ أحدهم . .

ـ والريّس عبدوش؟

ـ لم يتكلم عنها بشيء . . الريّاس لا يتكلّمون عن نسائهم أمام البحّارة.

ـ وأين يسكن الريّس عبدوش.

ـ لا أعرف . .

ـ سَلْه غداً . . قل له أمي تريد زيارتكم . .

ـ لماذا؟

ـ هكذا أريد رؤية كاترين والسلام عليها . . ألا تذكر حين جاءتنا في اسكندرونة؟ كانت طيّبة معنا.

ـ إذا كنت ستتوسّلين إليها كي تمنع زوجها من أخذي على مركبه فسأبحر مع غيره.

ـ أريد استشارتها في الموضوع.

ـ وإذا وافقت؟

ـ عندئذ نرى.

ـ إذن تصبحين على خير . .

لم تردّ. كان الخير بعيداً الآن. لم تعد تصدقأن في الدنيا خيراً، كانت يائسة، يائسة، يائسة. وكانت النقود حيث وضعها، وكلّ ما في البيت مغلّف بصمت قاتل. كانا يفكّران بشيئين مختلفين: هو بثياب

والده التي سيلبسها غداً، وهي بزوجها الذي آغتاله البحر، كان سعيد مصمّمًا. «سأرتدي ثيابه وأظهر فيها بين البحارة. لن ألبس السترة. أحسبها ضيّقة. يكفيني الشروال والزنّار وطاقية الرأس. سأذهب إلى الميناء وأنهي عملي في الزورق. أقول للمسؤولين، للجميع: أنا مسافر في البحر، وأقول للبحار العجوز: وداعاً! سنرى مرافىء العالم، التي كنت تتحدّث عنها». وكانت أمّه مصمّمة أيضاً: «سأرى كاترين الحلوة من كل بدّ. ربما استطاعت إقناع زوجها بالتخليّ عن سعيد، قد تأتي وتقنعه بنفسها. سعيد عنيد مثل أبيه. لكنه اذا لم يجد مركباً بقي في الميناء. يريد البحث عن أبيه؟ آه، أين يبحث عنه؟ في أيّ أرض؟ في أيّ بحر؟ سنوات مضت ولا خبر منه.. لو كان البحث مجدياً لوافقت. على الابن أن يبحث عن أبيه.. ومن يدري.. يا الله! لا تكشف رأسي ولا تحرمني من ابني».

في اليوم التالي، حصلت على عنوان كاترين، وفي اليوم التالي جاءها سعيد في ثياب البحارة. حين رأته بوغتت. كان صورة عن أبيه. ابتسمت إعجاباً. بسملت في سرّها. غير أنها ظلّت على مقاومتها، رافضة أن يسافر مهما حدث. قالت لكاترين الحلوة:

ــ لا أريده أن يسافر..

ــ ولا مع الريّس عبدوش؟

ــ لا مع الريّس عبدوش ولا سواه..

ــ الرجل لا يوضع في علبة.. زوجك كان بحّاراً، وابنك سيكون بحّاراً.. الولد سرّ أبيه..

ــ وهذا ما أخافه.

ــ لا تخافي.

ــ كيف؟ هل أدعه يغرق كأبيه؟

ــ هذا مجرّد وهم.. صدّقيني..

ــ لن أصدق أبداً.. أريدك أنتقنعيه..

ـ أقنعه بترك البحر؟

ـ بترك السفر فقط. .

ـ طيّب. . أرسليه إلي. سأكلم الريّس من جهتي.

انتهت الزيارة، كانت كاترين مشفقة. كادت تبكي وهي ترى أمامها أمّاً تبكي، لكنها عندما رأت سعيد، بعد أيام، نسيت إشفاقها. بدا أمامها بحّاراً حقيقياً. ومنذ أن أطلّ عليها، تذكّرت ملامح والده. قالت بعد ترحيب حارّ، وهي تشعر باضطراب داخلي:

ـ حدّثني الريّس عنك. .

ـ وماذا قال؟

ـ قال لي: تذكرين صالح حزوم؟ اجتمعت بابنه سعيد. . سيعمل معي على المركب.

قال سعيدمتهكّمًا:

ـ وهل تذكرين صالح حزوم أنت؟

قالت بصوت زاجر:

ـ هذا شأن من شؤوني، لا أقبل حساباً فيه. . أم تراك جئت تكرر موقفك في اسكندرونة؟

أدرك أنه أخطأ. وجدها جميلة كما قالت أمه، لكن طيبتها التي حدّثته عنها تلاشت الآن. علاقتها بأبيه شيء يخصّها وحدها، وكلّ تلميح الى زواجها بعده لا معنى له. قال في نفسه: «إنها امرأة بعد كل شيء! ولا بدّ لها من زوج، لقد قسوت في السؤال».

ـ اسمع يا سعيد ـ قالت بنبرة أخرى، فيها ملاطفة ـ كنت صغيراً حين كنا في مرسين. . أعرفك جيدا، ومن أجل والدك، وأمك الطّيبة، أريد أن ندع الكلام فيما لا فائدة منه.

قال مرتبكاً:

ـ أعتذر.. ما قصدت الإساءة.. لكن ذكرى صالح حزوم عزيزة علي.. أنا ابنه.

ـ هذا، بالنسبة اليك واجب.. لكن ذكرى صالح حزوم عزيزة على غيرك أيضاً.. رغم أنه كان قاسياً.

ـ أفهم ما تريدين قوله..

ـ هيهات.. ما أنت إلّا شابّ صغير..

ـ لقد أساء اليك والدي، هذا ما أعرفه..

ـ طردني في ليلة لا ضوء فيها..

ـ وبعد ذلك؟

ـ لم نتلاق..

ـ انتهى ما بينكما فتزوّجت الريّس..

ـ قلت لك لا أريد حساباً في مسألة زواجي..

ـ أقصد أن هذا ما جرى..

ـ كلا.. ليس هذا ما جرى.. مابيني وبين صالح حزوم لم ينته..

فكّر: «إنها ما تزال حاقدة..»

ـ تنتظرينه لتثأري..

ضحكت لغفلته:

ـ أثأر من ماذا؟

ـ مما ألحق بك من أذى..

ـ كفى! كفى! أنت تتحدّث كما لو كان بيننا ما يكون بين قاطعي طريق..

دار في رأسه هذا السؤال: «وما الذي كان بينكما؟» لكنّه غيّب السؤال بسرعة، شاعراً أن فيه قدراً كبيراً من الحماقة.. قالت:

ـ والدتك جاءت الي..

ـ وتوسّلت إليك أن تحولي بيني وبين الإبحار.

ـ صحيح..

ـ وماذا ستفعلين؟

ـ أنا أيضا لا أريدك أن تبحر.

ـ عليّ أن أبحث عن والدي..

ـ قد تضيع أنت كما ضاع هو..

ـ لايصيبنا الا ما كتب الله لنا..

ـ من يضع يده في النار يحترق..

ـ البحر غير النار..

ـ البحر هو النار الكبرى..

ـ إذا لم أسافر مع الريّس سافرت مع غيره..

وضعت رجلاً على رجل، فبان ما فوق الركبة، كاشفاً عن بداية فخذ أبيض مدهش. أتت بهذه الحركة دون تصنّع. لكنّها تركت الفستان كما هو. تركته ليرى فخذها. قالت بصوت غنج وحدهاتملك مثله، ووحدها تعرف استخدامه:

ـ وإذا طلبت منك أن تبقى؟

ـ ما أظنّك تطلبين هذا الطلب.

ـ لماذا؟

ـ لأن والدي يعزّ عليك..

أنزلترجلها واستعادت هيئة الجدّ:

ـ يعزّ علي أكثر مما تتصوّر. ولو عاد الآن لعدت اليه.. سيّد الرجال هذا.. غير أنني أريدك أن تبقى..

ـ لماذا؟

قالها بسذاجة ابتسمت لها.

ـ اسأل أمك..

ـ أمي تخاف علي.

ـ وأنا أخاف عليك.. سأتحدث مع الريّس هذا المساء..
ـ أنا لن أسافر معه غداً..
ـ أعرف..
ـ ربمّا في السفرة القادمة..
ـ هذا يتوقّف على سلوكك.. أثبت أنك لست الذي رفض هديّتي وهو في السجن..
ـ ماذا أفعل لأثبت ذلك؟
ـ كن ولداً مطيعا!
فكّر قليلاً وأجاب:
ـ إن شاء الله..
وقالت وهي تودّعه:
ـ والدك لم يكن يلبس هذه الطاقية.
ـ ماذا كان يلبس إذن؟
ـ انتظر..
غابت قليلا وعادت، حاملة كوفية رصاصية، غامقة، معرقة:
ـ كان يلفّ هذه الكوفية، ويترك طرفها متدلّياً على كتفه.. فاذا مشى آهتزّت الأرض..
ـ ذاك والدي..
ـ أريد أن تكون مثله.
ـ وإذا لم أكن؟
ـ أشك في أنّك آبنه.

قالتها ضاحكة، ممعنة في الإيماء الى شيء خاصّ، شيء تعرف المرأة وحدها كيف تعبّر عنه بنظراتها. لهذا تساءل وهو يسير في الشارع: «هل كانت تحب والدي الى هذا الحد؟ قالت عنه «سيد الرجال» وهذا لقب جديد. لاشك أنها خبرته، حضرت مجالسه، سمعت بمعاركه، وكان شريك فراشها، تراها ماتزال تحنّ اليك كشريك فراش؟» اضاف

مزهّواً: «لابدّ أنّ والدي كان رجلا كاملاً» هتف، بعد ذلك، بغير صوت: «من أيّ طينة كنت يا والدي، يا سيّد الرجال؟ وأنا؟ من أكون أنا؟ هل ترى صورتك في وجهي؟ تسمع صوتك في صوتي؟ وهذه الكوفيهُ؟ تريدني أن أعتمرها وأترك طرفها متدلّياً كما كنت تفعـل؟ تستحضرك في شخصي؟ تعشق رجولتك في رجولتي؟ لماذا وضعت رجلا على رجل وهي تجلس أمامي؟»

مشى طويلا في الشارع وهو يفكّر. «جريئة» قال في نفسه. تعرف ما تريد وتقصده مباشرة. تساءل: «لماذا تريدني أن أبقى؟ كن ولداً مطيعاً، قالت، أطيعها في أيّ شيء؟ عدم السفر؟ هذه حيلتها إذن؟ تتظاهر بالودّ، حتى إذا استجبت لرغبتها في ترك السفر، حققت ما تريده أمي؟ ما كان لقاؤنا عادياً. المرأة الخارقة يكون لقاؤها خارقاً. هذه المرأة شهوانية الى حدّ الجنون. في تمام النضج هي. دمها يغلي. تسمّي زوجها «الريّس» باعتداد. مع ذلك مستعدّة لتركه إذا عـاد والدي. أي حبّ كان بينهما؟ وأي حبّ بينها وبين الريّس؟ ألا يكفيها الريّس؟ هذه الفرس البَطِرة لايكفيها عشرة ريّاس. ساحقة هي وحق الله. مسكينة عزيزة تجاهها. طفلة. عرق حبق. فراشة. لايمكن مقارنة كاترين بأية امرأة أخرى. . نوع خاص من النساء، فريد، نادر. . هذه هي اللؤلؤة التي يغوص عليها البحارة. الريّس عبدوش غاص جيداً. امتلكها. قاتل لأجلها. مشهور بالشجاعة والبطش، كذلك قال عنه أبو الوفق. يحمي المحششة بنفوذه، يحمي «اللؤلؤة» بسطوته . . لو ظهر والدي في المدينة فجأة ماذا يفعل؟ تقوم حرب بينهما؟ حرب لأجل امرأة؟ ولمن تكون الغلبة؟ وأنا، ماذا أفعل عندئذ؟ واذا تمادت معي، أحارب بدلاً عن والدي؟ أصير عشيقاً بالنيابة؟ أعادي الريّس؟ أستطيع أن أقاوم الريّس؟ ولو استطعت، أفعل؟ أحون والدي!؟» وقال جازماً: «لا، لايمكن أن أخون والدي».

صمّم أن يقصد حانة توفيق. سيظهر هناك بثيابه البحرية. بالكوفيّة المتدلي طرفها على كتفه. سيشرب ويسقي الآخرين. بحّار هو، ويملك. لن يفعل مثل راغب درويش. ليس في وسعه ذلك، لكنه سيكون أريحياً. بحّار وبخيل؟ هذا لايمكن. البخيل لايدخل مملكة البحر. البحر كريم. البحّار على الصورة والمثال عليه أن يترك ذكرى حميدة، أن يكون له حضور في الميناء. أن يثبت أنه رجل الميناء. يفعل ذلك لا لأنه ابن صالح حزوم، ولا لأنه سيعمل مع الريّس عبدوش، بل لأنه يريد أن يكون كفؤا لذلك الفخذ الذي رآه اليوم. سيجعلها تقنع أنه مثل أبيه، وأن السبع لايخلف أرنباً. يفعل ذلك حبّاً، تكرمة، لأجل عينيها، وحين يعود الريّس من سفرته يعرف من سيرافقه في رحلته المقبلة. «عزيزة يا عزيزة، سعيد ليس لك بعد اليوم. أنت امرأة تاجر، امرأة صيّاد، امرأة موظف في دائرة حكومية.. أما البحّار فلا، البحّار له امرأة أخرى، فخذها جميل، ابيض، مستدير، مثل ناب الفيل. امرأة مثل كاترين الحلوة، ولها فخذ كفخذها.. ترى يوجد في العالم فخذ كفخذها؟ يا عاشق الفخذ، يا صاحب الدم العكر كالشيطان، يا سعيد، تَوَقَّ أن تنتحر على فخذ امرأة. الرجل يعشق العين، الشعر، الوجه، العنق، الصدر، النهد، وأنت تعشق الفخذ، من أغراك بعشق الفخذ؟ داء مكتسب أم داء وراثي هذا؟»

وجد نفسه في الميناء. استشعر نشوة ممزوجة بدوار. كان التفكير بها يرهبه، وكان رفض هذا التفكير صعباً، نزل عليه كعصاب لا فكاك منه. ومهما أبعد صورتها عن ذهنه، كان الفخذ يظل مرتسمًا على الشاشة الدقيقة في المخيّلة التي تنتج صوراً للشبق الموجع.

ومثلما يأكل الكبير الصغير، والقويّ الضعيف، هكذا أكلت صورة كاترين صورة عزيزة، طمستها، محتها حتى كأنها لم تكن. غير أنه، في عقله الواعي، ظلّ يقاوم. «لا يمكن ــ يقول ــ إنها حبيبة

والدي ثم هي تقوم بلعبة صغيرة. وسواء كان انكشاف الفخذ مصادفة ام تدبيراً، فان الحادث، بذاته، لايعني أنها ترغب في. من أنا بجانب الريّس؟ وماهو الذي يرغّبها بشاب سيعمل بحّاراً عند زوجها؟ أو ليس تأكيدها على حب والدي دلالة على أنها لاتفكّر بغيره؟ يمكن أن تعشق الأب والابن؟ أن تنام معهما وتعطي مفاتنها لهما معا؟ كيف يحدث هذا؟ أية امرأة هي اذن؟ ما يكون شأني غداً عندما يعود والدي ويعرف أنني أثمت بحبيبته؟ بأيّ وجه أقابله؟ وإذا فتنت بها، وأغواني جسدها، أتنازل لوالدي عنها؟ يتنازل والدي لي؟ تقوم حرب بيننا؟ نصبح ثلاثة رجال يقتتلون على آمرأة؟»

لأول مرة، في حياته، شرب الناركيلة بجدّية. كان يجلس في مقهى الميناء، وقد طلب لنفسه قهوة وناركيله، واستسلم لتفكير سيطر عليه برغمه، كأنما كاترين حجر مغناطيسي يجذب أيما حديد يقترب منه. وفجأة، دنا خيال منه. تجسّد في هيئة رجل كان قدسسيه تماماً. إنه قاسم. أوّل شيء تذكّره فيه الرقاقة اللحمية بين إصبعيه في اليد اليمنى. إنه هو، هذا الناكر ذاته لأجل الآخرين. أين كان؟ ماذا يعمل؟ كيف يسري في الليالي كالطيف او النسمة؟ أما يزال يقاوم فرنسا؟ يعادي الزعماء؟ يناضل لتأليف نقابة لعمال الميناء والبحارة؟

قال قاسم وقد حيّا وجلس:

ـ قيل لي إنك تركت العمل في الميناء؟

ـ سأسافر في البحر..

ـ مع الريّس عبدوش؟

ـ نعم... كيف عرفت؟

ـ سمعتهم يتحدّثون عن ذلك في المقهى.

ـ وأنت، ما رأيك؟

أطرق قاسم قليلا وقال:

ـ تريد رأيي؟ لا أعرف.. ليس المهم أين نعمل، المهّم كيف نعمل، تلك هي المسألة.

أضاف:

ـ السفر جميل، جميل جداً.. السفر يعلّم.. سوف تتعلّم أشياء كثيرة في مرافىء العالم، إذا كنت مستعدّاً أن تهتمّ بحياة المرافىء، مثل آهتمامك بالنساء والخمّارات.

تضايق سعيد من هذه الملاحظة التي سقطت عليه كحجر. «ماذا يريد قاسم هذا؟ أنا مستعدّ أن أدفع كلّ ما معي مساعدة للمناضلين، للقضيّة التي يناضلون لأجلها، ولا أعرفها تماما.. أنا مع العمّال، مع البحّارة، لكني لا أصلح للبروبوغاندا، أنا ذاهب للبحث عن والدي...» قال مغاضباً:

ـ في كل مكان توجد نساء وخمارات..

ـ لذلك فإن الركض وراء مثل هذه الأشياء لايأتي بنتيجة.. يدمّر الإنسان لا أكثر.

ـ البحّار ليس وليّاً..

ـ وليس متهتّكاً أيضاً..

قالها قاسم ونقر بأصابعه على الطاولة كعادته. لقد بدأ بالمواعظ وتلك خطيئته.. استفزّ سعيد دون مبرّر. من العبث أن يذكره بوالده. هو نفسه، من خلال تجاربه، سيتذكّر ويتعلّم. سيعرف أن الريّس عبدوش صاحب مركب، وأنه سيكون أجيراً عنده. غداً، في البحر، يختبر الحياة، يجد الاستثمار في كل مكان، ويطلع على حياة البحّارة والعمال.. غيرّ الحديث:

ـ هل من خبر عن والدك؟

ـ لا خبر.. وهذا ما دفعني الى السفر.. سأبحث عنه..

خسارة ألّا يعود حتى الآن.. الوطن بحاجة إلى أمثاله..

ـ ما دامت فرنسا موجودة، فلن يعود أبداً..

ـ ولكي تخرج فرنسا.. لابدّ من وجود أمثاله..

ـ أفهم أن هناك فقراً في الرجال؟

ـ هناك فقر في الوعي.. ما نفع العامل والفلّاح والبحّار والثائر بغير وعي؟ فرنسا عدوّتنا لا لأنها من الفرنج، بل لأنها مستعمرة، وبعض الزعماء معها لا لأنهم يحبّون الشقرة والعيون الزرق، بل لأن مصالحهم مرتبطة معها...

ـ أنت لا تثق بالزعماء..

ـ أنا أثق بالعمّال.. بالشعب، ولكن في هذه المرحلة، لابأس من العمل مع الزعماء الذين يقفون ضد فرنسا.. طريق المقاومة واسع، وكل من سار فيه خطوة فهو مشكور.

ـ أحياناً لا أفهم ما تقول، وأحياناً أخرى لا أعرف ماذا علي أن أعمل.

ـ كلامي مفهوم جداً.. «الكريزة» في اسكندرونة سببها فرنسا.. لكن الكريزة أصابتنا نحن الفقراء. الجوع كان في حي البحارة، وبين عمال المرفأ، أما التجّار والزعماء فقد استفادوا منها.. أنا لا أتكلم عن التجّار الصغار، وزعماء الأحياء.. أتكلم عن الكبار.. والدك فهم هذه الحقيقة. تعاون معنا، قاوم فرنسا، لم يستزلم لأحد.. كان صاحب مبدأ، ولو لم يفهم تماما ما هو هذا المبدأ.

ـ والدي كان وطنياً..

ـ هذا هو المبدأ.. كن وطنياً الآن، وفي المستقبل تتعلّم كيف تنفع بوطنيتك.

ـ كلّ الذين ألقاهم في ا لميناء والبحر وطنيّون..

ـ ولهذا فإن فرنسا لن تبقى في سورية..

ـ تخرج قريباً تقول؟

ـ لا، ليس قريباً.. الحرب العالمية تقترب.. هتلر يهدّد العالم..

ـ وإذا وقعت الحرب؟

ـ تأخر خروج فرنسا. .

ـ معنى هذا أن والدي ستطول غيبته. . وأن علي أن أصبر.

ـ علينا جميعاً أن نصبر. . أن نناضل ونصبر. .

تنّهد سعيد ضجراً. . لا جديد في الموقف. فرنسا، الغلاء، البطالة، النضال، والصبر. . الى متى إذن؟

قال قاسم:

ـ لاتكن عصبياً. . سافر. . لابد أن ينفعك السفر. . ابحث عن والدك. . البحث جيّد في كل الأحوال.

ـ أنت لاتقول ذلك لترضيني؟

ـ أبداً. .

بدا الارتياح على سعيد. هاهو ، أخيراً، رجل يثق به. يقول له: سافر. . معنى هذا أنه لايسير على طريق خاطئة. تحدّثا بعد ذلك عن المدينة. عن فقرها، عن البطالة فيها، عن الميناء والبحر. ثم ودّعه قاسم قائلا:

ـ الى اللقاء إذن. .

ـ قف. . أريد أن أساعد بشيء. .

ـ لم آت لذلك. . لاتضايق نفسك. .

ـ سأدفع شيئاً قليلاً. .

ـ هذا جيّد.

ـ أنا لن أخون والدي. .

ـ ولن تخون ماضيك. . أما كنت سجيناً لأجل تلك الجثة؟

ـ ولن أخون الماضي أيضاً. .

ـ كن شريفا إذن. . هذا كل شيء.

وضع النقود في جيبه ومضى دون تردّد. طريقه واضح، يعرف الى أين يسير. . هذه حياته وهو يعيشها راضياً، وقال سعيد في نفسه:

«ترى لاتوجد في حياته مشكلة؟ ألا يحبّ؟ ألا يتعذّب في الحب؟ ألا يشرب؟ كيف يعيش هذا الصنف من الناس؟».

انصرف الى شرب ناركيلته. تنبّه الى أنه نسي كاترين الحلوة. الشيء القويّ يسيطر على الضعيف. كاترين الحلوة سيطرت على عزيزة، قضية فرنسا سيطرت على كاترين الحلوة. الأهمّ على المهمّ. «تكون قضية الوطن أعلى القضايا؟ تستبعد ما عداها؟ تأسر القلب كلّه؟ لهذا ينسى المناضلون أنفسهم وعائلاتهم ونساءهم؟ فكرة واحدة كبيرة كبيرة. بعدها يستريحون. يتخلّصون من الازدواجية والاضطراب والعشق والجنون؟ ألا يوجد بين المناضلين عشاق ومجانين؟ أيكون عشقهم وجنونهم شيئاً خاصّاً؟».

تذكرّ توفيق الخمّار، راغب المهرب، الريّس عبدوش، كل واحد من هؤلاء له شخصيته المتميّزة، الطريفة، المهيبة أو المضحكة. في المرفأ يكثر أمثال هؤلاء. المرافىء ليست نساء وخمارات فقط، بل نماذج بشرية عجيبة غريبة، لاحدود لشراستها ولا حدود لشذوذها. الموت هنا رخيص، وكذلك الحياة. عزيزة تنتقم من زوجها، وكاترين الحلوة توقع بالابن بعد أن اوقعت بالاب، وقاسم يسعى لتأليف نقابة، والريّس عبد الحميد يشتم فرنسا.. وعلى سعيد، بين كل هؤلاء، أن يجد طريقه الخاص.

اضطرب لهذا التداخل في الأفكار. وجد الأشياء متشابكة، معقّدة، ووجد نفسه في متاهة بينها. كان على غير انسجام مع نفسه. وكان ضميره، كناقوس نحاسيّ، يدقّ في الداخل، دقّ عندما كان سعيد في الخمّارة والمبغى، وعندما كان يشرب الحشيش، وكذلك عندما حاول سحق عزيزة فانسحق.. الآن يدقّ وهو يشتهي فخذ كاترين الحلوة. حذار يقول. كن شريفا كما أرادك أبوك، كما نصحك قاسم. عزيزة أحبتك. كاترين تلهو بك، إنك تهوى كاترين لا عزيزة. أنت مع

الفخذ لا الوجه. مع الدعر لا الطهر. مع آلة الجنس لا مع الروح. «أنت فاسد يا سعيد، فاسد، فاسد» ران عليه الحزن. لقد رأى نفسه في مرآة مكسورة. الرقاقة اللحمية بين أصابع قاسم مرآة، وفي يد الصياد العجوز مرآة، وفي ذكرى والده مرآة أكبر. . وهو مضطرب بينها جميعاً يغوص في لجة من المشاعر. لقد كان، دون أن يدري، شهوانياً أكثر مما كان محبّاً، وكان فخذ كاترين يغويه أكثر مما يستهويه قلب عزيزة.

الحجر حين يسقط من علٍ يهوي بقوة. تجتذبه الأرض. المرء حين يهوي إلى أدنى يسقط بقوة. تجتذبه حمأة الحياة. سعيد يعرف أنه يهوي. في عقله الواعي، في بقايا الإرادة، يناضل ضد تيّار السقوط، لكن فخذ كاترين يلهب مشاعره. «كيف يكون حين ينكشف الى أعلى؟ إلى جذره المتصّل بالجذع؟ وماذا في ذلك الحوض، حين يلتقي الجذران بالجذع المرمريّ؟» نعمى وجود ذاك. أصل الوجود ذاك. غير أن المؤسسة الزوجية طوّبته ملكاً. الملك مقدّس يا سعيد، حذارِ أن تنتهك مقدّسات الملكية، عندئذ يبعثون بك الى الجحيم.

قال في نفسه: «أنا لا أحتمل كل هذه الأفكار الشيطانيـة. مشتّت، لا أعرف كيف أستقر. عزيزة من جهة، وكاترين الحلوة من جهة. الرذيلة في المحششة والشرف مع ذكرى الوالد. أمي في البيت تبكي، والبحار العجوز يهز رأسه اسفا، وراغب المهرب يقول سنلتقي، وأنا؟ أين أنا؟ مع من؟ ماذا ينتظرني في المستقبل؟ كيف أهرب من هذا كله؟ كيف أنساه؟

الحجر يهوي. سعيد في خمارة توفيق. يا صاحب الخمارة جاءك زبون جديد. . تذكّر سعيد حزوم، إنه بحّار اليوم. لاتعجب من اللباس. هذا شروال الوالد، وهذا قميصه، والكوفية كانت له يوماً، تركها تذكاراً عند كاترين الحلوة. كان يعرف أن ابنه سيلتقي كاترين

الحلوة؟ ترك الكوفية أمانة فأوصلتها هي الى صاحبها؟ مهما يكن. . «والدي قال لي: كن بحّاراً، وها آنذا أكونه. .» افسحوا الطريق لابن اللجّة. البحر يستقبل كل الأنهار، ومع الانهار أوساخ المدن، البحر مصفاة كبيرة. الزبد يذهب جفاء، والأوشاب تقذفها الأمواج على الشواطىء. هو وحده يبقى نقيا. هو وحده يطهّر الجميع. ومهما تلوّثت سوف يطهّرك. إذا لم تتلوّث أنت، ولم يتلوّث سواك، فمن الذي يُطهّره ماء البحر؟ يبقى عاطلا؟.. اشرب الآن يا سعيد.. لاتفكر بجهنّم.. فخذ المرأة هو جهنّم، ومن أجله سيبقى الفردوس فارغاً.

رحّب به ابو الوفق. من هنا طريق الميناء، توفيق يخرّج بحّارة أيضاً. أما الريّاس فتخرّجهم العواصف، كي تصبح ريّساً لابد أن تعطي برهانك. متْ في البحر. متْ في البر. تقبّل المدية وسيكارة الحشيش. كن رجلاً.. إنسَ طفولتك. إنسَ آخرتك.. عِشْ لدنياك فقط... اذا أصبحت فقد لاتمسي. إذا أمسيت فقد لاتصبح. من أجل ذلك هب نفسك للشيطان. في هذه الحال فقط يتحطم فيك قمقم العطر. تزنخ. تنتن. تصير وحشا. تتقاتل مع وحوش، وحين تنتصر تختار طريقك، فاما الى يمين واما الى يسار.. أما الوقوف في الوسط فمحال. هكذا تدفع الرياسة ثمنها. تصبح جديرة بفخذ كاترين وسرّتها أيضاً.

ـ ألم تسافر يا سعيد؟ سأله أبو الوفق..

ـ في السفرة القادمة.

ـ سنسمع بأخبارك من الريّس..

ـ أخباري سيرويها كل البُحّارة..

ـ أنت كفء.. الذي خلّف ما مات.

ـ هو حيّ يرزق، وأنا مسافر للبحث عنه.

ـ تحسبه يعود إذا لم تخرج فرنسا؟

ــ يجب أن يعود برغم فرنسا . .

فتل ابو الوفق شاربه النحيل المتدليّ على جوانب الفم وسأل:

ــ تريد شيئاً من حشيشة البحر؟

ــ أريد أن تشرب كأساً معي . .

لاحظ توفيق أن سعيد صادق في دعوته. كان به ألم لايعرف سببه. كان بحاجة إلى إنسان يجالسه، لهذا قال توفيق:

ــ سأعود إليك، بعد تلبية طلبات هؤلاء الأوباش.

ــ طيّب . . ولكن لا تتأخر . .

في هذه اللحظة صاح رجل طويل، نحيل، عيناه مشقوقتان الى أعلى، فيهما احمرار، ومن كل هيئته تتبدى الصعلكة والإدمان:

ــ أعطني بطحة يا توفيق . .

ــ كفى ما شربت اليوم . .

ــ لو كنت أملك مالا ما قلت هذا:

ــ اسمع يا زنيبة . . قلت لك ولا قطرة بعد . . كفى، انصرف . .

ــ زنيبة لاينصرف بأمر منك يا ابن القحبة . . أعطني عرقاً وحشيشة أو أقلب الخمّارة على رؤوس من فيها.

نظر سعيد الى الرجل المعربد. رازه جيداً. وجده طريفا. كاد يصيح: «يا ابو الوفق . . بطحة للأخ على حسابي» غير أن زنيبة رفس كرسياً فقلبه وأحدث ضجّة.

ــ اذا كنت تتعنتر يا توفيق لأن الريّس حاميك فأنا لا أخاف الريّاس . . أنا كنت بحّاراً . . أيضاً . . اسأل الميناء عني . . أنا لا أخاف زوج القحبة . .

ــ اخرس يا زنيبة . . لو كان الريّس هنا لفسخك اثنين . .

ــ يفسخني؟ أنا؟ زوج القحبة هذا . .

وقف سعيد بغير وعي. أن يشتم زنيبة الريّس فهذا حسابه مع الريّس نفسه. أن يفتعل معركة فهذا ابو الوفق موجود، ولكن أن يسبّ عرض الريّس، وأن تكون المسبّة موجهة إليها، هي كاترين الحلوة، فإن هذا يستحقّ معركة كاملة. قال في نفسه: «يبدو أن القدر ساقه إلي.. كنت، في داخلي، أبحث عن شيء.. حسناً، وجدت ما أبحث عنه، كي أكون بحّاراً عند الريّس، ورجلاً عند صاحبة الفخذ يجب أن أحطّم ابن العاهرة هذا... القتال لم يكن مهنة والدي. كان يجب الا يكون مهنتي ايضاً. ولكن ما العمل؟ إنني أتمرّن على حياة المرافىء، وهذا أفضل من أن أدخلها كبنت البيت».

ــ أتعرف من تشتم يا زنيبة؟.. سأل متحديا.

ــ ومن أنت؟ عرص عندها؟

ــ ستعرف من أنا حين أقطع لسانك.

ــ لايقطع لساني ابن زانية مثلك.

تضاحك بعض السكارى. زنيبة خارج المجتمع. تصرُّفه يصدر عن حقد او استهتار. ليست مياه البحر وحدها التي تلفظ أوساخها على الشاطىء. السفن والمراكب تفعل ذلك أيضاً. زنيبة نفاية من نفايات المراكب. لابيت له ولا أسرة. أضاع كل شيء. تحوّل الى لصّ. المرفأ عانى من سرقاته الى درجة الملل من ملاحقته وسجنه. الخمّارات خضعت لإتاواته بأشكال مختلفة. الريّاس يعطفون عليه، وكثيراً ما يضيقون بزفر لسانه فيضربونه هم وبحّارتهم. لايجرؤ على دخول الخمارة اذا كان الريّس عبدوش فيها، يخافه موجوداً ويشتمه غائبا. وعلى إجرام صاحب الخمارة فهو يتجرأ عليه، وكلما كان الريس عبدوش غائبا افتعل خناقة.

قال سعيد وقد ارتجف لنعت أمّه بالزانية:

ــ أنا لن أقطع لسانك يا زنيبة.. سأسحبه كمصران..

ـ إذا أردت أن أخرج أمعاءك تقدّم خطوة واحدة.

قالها وشهر سكينه. تدخّل أبو الوفق. «دعه يا سعيد. . . هذا النذل لايستحقّ حتى أن يضرب» وقف الذين في الخمّارة. خيّم صمت على الجميع. جريمة! وضعوا أيديهم على قلوبهم. خافوا على سعيد. كان زنيبة وراء طاولة عند الجدار. ركض بعضهم إليه يحاول سحب السكّين من يده. تركزت الأنظار على سعيد: يتقدّم؟ إذا فعلها مات، وإذا تراجع مات. . زنيبة لصّ وقاتل محترف. . غدّار. . وماذا بقي لسعيد؟ ريّسه وأمه وكاترين الحلوة. زنيبة شتم الثلاثة، وقال له «يا ابن الزانية» اذا سكت فبأي وجه يعود الى البيت؟ وكيف يقابل الريّس متى عاد؟ وفخذ كاترين، ألا يستحقّ حياة بكاملها؟

دفع توفيق من طريقه بنترة قوية. لو كان يملك عصا، خشبة، ولو كان لديه، هو الآخر سكين؟ الكرسيّ وحده في المتناول. حسناً، اضرب بها يا سعيد! لك زند كالفولاذ. لكن زنيبة له جسم كالافعى، ويد بهلوان رهيب. . طاشت الكرسي، وانجرد زنيبة بضربة سكين الى الصدر مباشرة، لم تصب الضربة، لكنها لم تخطىء تماما. . جاءت في الزند الايسر فجرحته ونفر الدم. . تراجع الموجودون. صاح بعضهم: «يا ساتر!» ورفعت السكين في الهواء. ظلّت مشهورة يلتمع نصلها الحادّ، ويد سعيد تقبض على ساعد زنيبة وتدفعه الى وراء، وكلاهما يكشر عن أسنان حاقدة، في صراع رهيب، بينما رأس المدية يرتجف وقد استقر في نقطة يجاهد كلّ منهما لتحويلها الى صالحه.

كان أبو الوفق، في هذه اللحظة، قادراً على أن يفعل شيئاً. المعركة في خمارته، ومن أجله، ويكفي أن يقبض على المدية وينتزعها، لكنه، لسبب ما، آثر ألّا يفعل. هل كان خائفاً؟ هل كان حاقداً؟ هل من تقاليد البحر أن يُترك الديكان يتعاركان حتى يموت أحدهما؟

المهمّ أنّه لم يتدخّل، ولا أحد من الموجودين تدخّل، وخلال ثوانٍ ظلّت المكاسرة، بين ساعدين قويين، والسكّين معلقة في الفضاء.

أخيراً تراجعت آلة الموت. ارتجفت ومالت الى وراء لسان الميزان، وفي ضربة عنيفة، وحشيّة جاءت في بطن زنيبة، حُسم الموقف لصالح سعيد، وتمكّن من تخليصه السكين. لو كان والده لاكتفى بقذف السكين برجله، وعاد الى مجلسه منتصراً. كان يعرف أن يلجم غضبه. غير أن سعيد كان جريحاً، نازفاً، وكان القضاء على خصمه، وحده، يهدّىء من سورة غضبه. رفعه عن الأرض. ولكمه في وجهه. أعاد رفعه ولكمه. ثم انحنى عليه محاولاً فتح فمه لسحب لسانه. كان دم زنيبة يملأ فمه، وقد تلوّثت يدا سعيد، غير أنه تابع، بشراسة مجنونة، ضربه برجليه ويديه في مختلف أنحاء جسمه، وبعد ذلك أمسكه من قميصه وجرّه بين الطاولات والكراسي، وفتح الباب فقذف به خارجاً.

عاد الى مجلسه والدم ينزف من زنده الأيسر. ركض أبو الوفق وغسل الجرح بالعرق، وضع عليه قهوة. لم ينقطع الدم. اضطر سعيد الى الاستعانة بطبيب قريب، رافضاً الذهاب الى المستشفى للإسعاف، وفتح تحقيق حول ما جرى.

وفيما هو يعود الى البيت، في ساعة متأخرة من الليل، قال في نفسه مازحاً: «هذه دفعة على الحساب!.»

ورغم استهانته بما جرى، وجهده لتخفيف وقعه على أمه، فقد كان الحادث سبباً إضافياً لألمها. تعزز قلقها: ابنها يسير الى الهاوية. صار له أعداء. أصبح من روّاد الخمّارات. غداً يقضي عليه البحر، فاذا نجا منه وقع في شباك فتيان المرافىء. وهي تعرف نوع الحياة التي يتردّى إليها. كانت في مرسين، في اسكندرونة، وها هي في اللاذقية.

كانت تسمع عن شقاوات الحياة، عن معاركها، عن مفاسدها، وكان البحارة ونساؤهم يتحدّثون عن قصص غريبة، وكان زوجها يقصّ عليها بعض الوقائع، لكنه، هو، لم يبدأ سيرته بداية سيئة، شقيّة كما يبدأها ابنه. ماذا تفعل؟ أين الأب الذي يردع؟ أين النجاة من أخطار البحر والميناء؟ لمن تشتكي همومها؟ تذهب إلى كاترين الحلوة؟ لكن كاترين، بخلافها، كانت سعيدة بما حدث. استعادت في بأس الابن بأس الأب. كانت راضية حتى لو قُتل سعيد في معركته مع زنيبة. تنتشي حين يتقاتل الرجال لأجلها. تعطي نفسها بسخاء للفائز منهم. تجد في الفحولة، المقترنة برجولة، مناها. لايهمّها من يَقتل ومن يُقتل، بقدر ما يهمّها أن يكون ثمّة قتال، وأن تكون هي موضوعه. تتهيّج عندئذ حتى درجة الغلمة. نارها لاتنطفىء بالماء بل بالدم. وهاهو سعيد، منذ المقابلة الأولى، يسفح دمه قرباناً لركبتها، وانتصاراً للريّس البعيد، الذي يسرّه أن يجد بين بحّارته من يمتاز بشجاعة قلب كهذه. قالت في نفسها: «إنّه لي!» أكّدت ذلك بإصرار. «هذا رجل المستقبل الذي يؤاتي، كالريح الشرة. إنه ابنك يا صالح حزوم، لتد طردتني يوماً من مرسين. أنا لا أنتقم ولكنني أستيعد مجدي. لم تبلغ السنوات أن تقهرني أو تُعجزني عن الإغراء والفتك. أنت، ياصالح حزوم، لن تستطيع تجاه ابنك شيئاً. لقد فرعت ذقنه فاحلق ذقنك. إذهب حيث شئت، لكنك حين تعود، إذا عدت، ستجد منافساً من لحمك ودمك. هو ابنك، وهو عربيّ مثلك، ولن تتحجّج بالعرق التركي، وتخفي غيرتك بقناع الغيرة على العرب. اقتله اذا شئت. أو فليقتلك إذا استطاع، بالنسبة لي سيّان، ما دام سيقاسمني فراشي المنتصر بينكما. أنت عجوز يا صالح، والريّس عبدوش عجوز أيضاً. شمسكما غربت. هذا زمان القمر الطالع بدراً. أنا سأضاجع القمر الطالع بدراً».

وبعد أيّام ضاجعت القمر الطالع بدراً..

خانت زوجها وحبيبها . .
وخان الابن أباه . . .
واكتملت اللوحة الملعونة، بإضافة لطخة سوداء اليها.

٨

ملعون من يخون أباه،
لا الشفة تبرّر، ولا السرّة، ولا الفخذ.
والبحر، غاسل الخطايا، لايغسل خطيئة كهذه،
فهو، كذلك، خين، لا في طهره، بل في عنفوانه.
المرأة، المرأة، المرأة،
ماذا فعلت يا آدم؟
والحيّة رقطاء تنساب.
منحلّة عن شجرة الخير والشر..
وأنت تسقط من الفردوس..
تسقط؟ قل ترتفع، تحقّق ذاتاً، تعانق وجوداً،
ومرّة أخرى، كما في البداية، تواجه دنياك.. تصنعها من جديد، كل يوم، على الشكل الذي تريد، لأنه منك الخير والشرّ، ومنك الراحة والشقاء.
حوّاء أغرتك؟ اقرأ: دفعتك..
كنت جبانا، وكانت شجاعة.
كنت راضياً بالعطالة، وكانت راغبة في العمل.
كنت اتكاليا، وكانت من عرق الجبين تريد أن تأكل خبزاً.
كنت قعدة، وكانت طموحاً..
رهبت آكتشاف السر، وافتضّت بكارته هي..

لا تلعنها إذن، بل نفسك آلعن . .
العن نفسك يا سعيد، العنها بغير تردّد،
لكن سعيد لايريد أن يفعل . .
لماذا أيّها الولد-العاقّ؟
البحر يسأل . .
والرمل يسأل . .
والريح تسأل . .
وفي الظلمة يستبطن الجواب فلا إفصاح . .
كلّ ما في الأمر أنك تحسّ ذنباً . .

وفي تلك الأيام ، بعد مضاجعتك «كاترين الحلوة» أحسست الذنب نفسه، واندفعت، بسبب منه، تريد الهرب، زاعمًا أنك تبحث عن أبيك.

وقال لك الريّس عبدوش:
ــ ماذا صنعت في غيابي يا سعيد؟

ولم تجب أنت . تساءلت: «تراه يحدس؟ يشكّ؟ يقدّر» البحّار العجوز، في الزورق، روى لك هذه الحكاية: رجل غاب عن حبيبته، وفي غيابها عرف امرأة وأحبّها، فلما التقى مع الأولى وقبّلها، قالت له: «إنك لم تعد تحبني». قال «كيف؟» أجابت: «عرفت من ملامسة شفتي لشفتيك». ماذا قالت شفتا الريّس عبدوش بعد ملامسة شفتي كاترين؟

لم تعد تحبك؟

لكن صالح حزوم لم يظهر في المدينة . . وفي مثل قامتك، ورجولتك، وشجاعتك، لم يظهر بحّار أيضاً يا ريّس عبدوش، وهذه الضجّة التي أحدثتها معركة سعيد مع زنيبة لاتستحقّ الكلام الذي

أُنفق فيها. أولاً من هوزنيبــة هذا؟ وثانياً ماذا أحدث سعيد من رجولة؟ وثالثاً إنه بحّار لديك، فإذا كان هو، بحّارك، فعل ما فعل، فكيف أنت، لو كنت حاضراً!؟

مع ذلك، وأنت لاتستطيع أن تنكر، ظهر نجم جديد في سماء البحر والميناء. لو كان غيرك لقال: «غاب كليب واسترحنا من بلاه.. طلع الجرو ألعن من اباه» وقد يكون سعيد جرواً ضعيفاً ما يزال، غير أن بقاءه في الميناء خطر، وتركه في المدينة وأنت غائب خطر، ولابدّ من وضعه تحت رقابتك، تحت إمرتك، لابـد من إذلاله، وترويضه على الطاعة، وتحجيمه قبل أن يصبح قرشا، يخيف الأسماك في حوض الميناء وما حولها ، وينتزع منك كاترين الحلوة منتقما لأبيه.

هذه الشكوك انضاف اليها شك آخر قاتل: كاترين الحلوة، في ساعة صفاء، طلبت من الريّس عبدوش ألّا يأخذ معه سعيد في البحر، قالت:

ــ أريدك أن تبقي سعيد هنا ، في الميناء.

صدمه الطلب. أحسه كرةً نارية تتدحرج في أمعائه. صحا من نشوة الكأس وسيكارة الحشيش. لم يقل شيئاً. جهد لضبط أعصابه. عيناه، برغمه، التمعتا بوميض غاضب. أطرق كي لاترى فيهما شكّه المعذِّب. رزح تحت وطأة وسواس تفشّت بقعته كنقطة حبر. وخَزته الريح. جرحه الضوء: أنّت كبرياء الريس المزهوّ برياسته. قال في نفسه: «الخائنة تريده إلى جانبها. شابّ هو قياساً إلّي. فتّي وقويّ.. رجل ميناء حقيقيّ. فتنها حتى عن أبيه». تنّهد وأطلق هذه الشتيمة: «يااللعاهرة!» سألها، محاولاً في اللاشعور، أن يسمع منها ذريعة تريحه من الوسواس:

ــ لماذا تريدينه أن يبقى؟

ــ رحمة بأمه..

ـ هم..

وقال في نفسه «بأمّه أم بك؟».

سأل:

ـ جاءت أمُّه إليكِ؟

ـ جاءت وبكت.. لاتريد أن تفقد زوجها وآبنها في البحر..

ـ هل آقتنعت أن زوجها مات؟

ـ لاتستقرّ على رأي.. الحيرة تعذّبها.. ثم إنها تخاف البحر.. عاشت حياتها كلّها على الخوف..

ـ وأنتِ؟

قالها بغير لطف، فارتعشت لرنّة السؤال.

ـ أنا ؟ ـ قالت ـ أخاف البحر وأنت الريّس؟

قال في نفسه: «أنت أخطر من البحر على الريّس»

ـ ما دمت الريّس فأنا أعرف شغلي.. سعيد سيسافر معي.

ـ وعائلته؟

ـ كلنا أصحاب عيال..

ـ ألا تشفق على أمه؟

قال في نفسه: «وعليك أيضاً.. لهذا سأحرمك منه».

أجاب:

ـ قلت سيسافر معي والسلام.. لا أريد نقاشاً في هذا الموضوع..

انسحبت كاترين من المجلس الى سريرها. أدركت، بحسّ الأنثى، أن ثمة شيئاً. لقد رفض الريّس لها طلبا، هو الذي اعتاد أن يجيبها الى كل ما تطلب. لو تركت أم سعيد تأتي الى الريّس وتسأله ما سألت لكان أفضل. لم تقدّر أن حساسية الريّس من الرهافة بحيث يفطن الى ما وراء الطلب. عليها أن تداري الموقف، لكنّ عليها، من

جهة ثانية، ألاّ تبدو ضعيفة، خانعة أمامه، مهما يكن من شأن رياسته. قالت في نفسها: «أنا لست باللقمة السهلة يا ريّس عبدوش، لن تستطيع أن تعلكني وتبصقني بهذه السهولة. كل الرجال الذين عرفتهم، أدرت لهم ظهري غير مبالية. أنت تعرف البحر يا ريّس لكنك لاتعرف المرأة. لاتعرف من هي كاترين الحلوة بين النساء. صالح حزوم لم يمت على كل حال. وإذا مات الأب فهناك الابن. أعرف كيف اجعلك تدوخ وتركع. قادرة أن أبلبلك فتدير الدفّة يساراً وأنت تريدها يميناً، سيّان ما سوف يحدث. رجال كثيرون يتمنّوني، لكن عجوزاً مثلك لايمكنه أن يعثر على مثلي في كل حين».

الريّس عبدوش ظلّ في مجلسه يشرب. هاجمته الوساوس. ماذا إذا تحقّق من خيانتها؟ صالح حزوم طردها من مرسين. هو، إلى أين يطردها؟ وماذا إذا عاشرت غيره نكاية؟ والأسوأ أن تعاشر فرنسياً، من أولاد الكلب الذين يدوسون حرمة البلد. في هذه الحال يقتلها. نظر في يديه ليستا نظيفتين على كل حال. لكنْ أن يلوثهما بدماء امرأة؟ صالح حزوم لم يفعلها. احترم رجولته. اكتفى بترحيلها. اقتلعها من ذاته وانصرف الى ما هو أهمّ. قال الريّس عبدوش في نفسه: «إذا كان لابدّ من القتل فليكن على يد سواي، على يد واحد مثل زنيبة مثلاً. هذا يصلح لتصفية الحساب معها ومع سعيد. إن له ثأراً. يمكن استخدامه ببساطة وبغير ضجّة. لكن هل أقتل سعيد؟ وإذا عاد والده غداً؟ أقتل الوالد أيضاً؟ سلسلة من الجرائم لأجل امرأة؟ آه أيتها القحبة!.. كان علي ألاّ أعلق في شباكك منذ البدء. كان علي ألاّ أغفر ماضيك القذر. ما أنت إلا أفعى، أنت شر من الأفعى».

قرّر في ذات نفسه أن يأخذ العذاب لحسابه. هو أيضاً كان رجلاً قويّ الإرادة. خير ما يفعله أن يتظاهر بما ليس يضمر. لايعود الى إظهار شكوكه. يمسك عن الأسئلة المحرجة. يراقب الأشياء بعين

يقظة، فإذا تأكدت الوساوس، وثبت أنّ كاترين تخونه مع سعيد، ضرب الاثنين ضربة قاضية لارحمة فيها. لقد تقرّر، منذ الآن، سفر سعيد معه في البحر. إنّ شاباً بهذه الشجاعة، بهذه النخوة، بحّاراً ابن بحار، سيكون كسباً أن يضمّه إليه، أن يصطنعه في الملمّات، لكن كاترين أفسدت كل شيء. «المرأة ــ قال في نفسه ــ تفسد كل شيء، وتقلب صداقات الرجال الى عداوات»

في الميناء أولى حكاية سعيد وزنيبة أقلّ ما يمكن من اهتمام. «هذا الكلب ــ قال ــ ليس إلا صعلوكاً. لطالما قبّل زنيبة قدمي حتى أعفو عنه. وها هو، في غيابي، يتمرجل. كان في وسع توفيق أن يلقيه خارجاً. لكن سعيد تكفّل بالمهمة وقد أحسن.. اللعنة على الميناء ومشاكلها.. هؤلاء الأنذال الذين يعيشون فيها، ليسوا إلاّ نفاية، حفنة من اللصوص والأوباش».

ــ لكن سعيد دافع عنك.

ــ ضد من؟ضرب زنيبة يُعتبر دفاعاً..؟ المرأة تضربه بنعلها.

ــ لقد قام بواجبه.

ــ هذا صحيح وسيكون بحّاراً جيّداً.. من أجل ذلك أضمُّه الى طاقم مركبي.

ــ ومتى الإبحار يا ريّس؟

ــ بعد أيام.. عندما يكتمل تحميل المركب، وتصبح الريح مؤاتية.

ــ وأنى وجهتك؟

ــ الإسكندرية..

ــ وما حمولتك..؟

ــ العفص.. والركّاب..

ــ مركبك كبير وانت كفؤ.. رافقتك السلامة..

وقال بحّار:

– الإبحار في الخريف متعة.. البحر يكون بلاطة من ماء..
– لكن تقلّب الطقس يكون في الخريف أيضاً.. لا أمان للبحر..

قال بحّار كهل:
– البحر مثل المرأة.. لاتعرف حرده من رضاه..
– كل شيء يتوقّف على الريّس.. وكل شيء يتوقّف على الرجل.. لكل فرس خيّالها.

فكّر الريّس عبدوش: «أنا هو الريّس في البحر، فهل أنا الخيّال في البرّ أيضاً؟ فرسي الشموس تكاد تفلت من يدي، بينما الدفّة، على هول البحر، ظلّت طيّعة على طول الإبحار.» تنهد خفية. استشعر وطأة الهمّ الحقيقي لأول مرة قبل السفر. وفي نفسه اعتزم أن يضع حدّاً لعذابه بعد عودته من رحلة الاسكندرية.

خرج من مقهى الميناء مغموما. صعد في الطريق الى أعلى، سائراً بين صفّي الكهوف، متمهّلا في مشيته، الحذاء اللمّاع الأسود في قدميه، فوقه شروال «الست كروزا».. والطربوش الخمريّ، وزنار الريّس الحريري يشدّ وسطه كأنما ليبتعث في ذاته ثقة دفينة.

كان يجهد أن ينساها.. أن يطردها من فكره ودنياه جميعاً. نظر إلى البحر، عن يساره، ماسحاً صدره الرحب بحنان أبوي. خيّل إليه، في المشهد المترامي عند الغروب، أنه خان البحر على نحو ما، ذلك التعبّد القديم، للجّة الهولة، بنيرانها المقدسة، قد أصبح تاريخاً قديماً. كان يسافر ولا يريد أن يؤوب، وصار يؤوب ولا يريد أن يسافر. سحره الجسد المعجون من شبق لا يعرف الارتواء. بياض المرأة طغى على زرقة البحر. الهمسة، في الأذن، عند مقاربة الخلاص. الصرخة الملعونة، المثيرة، وهو في سطوة الامتلاك، من لذّة أو ألم، سدّت أذنيه عن كل أناشيد القاع. لقد استعبدته امرأة البحر،

وصرفته عن عروس البحر. وقـال للبحر، بغـير كلام: «سـامحني» ومضى في طريقه الى خمّارة توفيق.

بعد أيام كان كل شيء جاهزاً للإقلاع. اكتملت حمولة المركب من العفص. وثّقوا العنابر جيّداً. تركوا السطح للرّكاب. قام بحّارته بكل ما يلزم، وعندما نزل هو، أخيراً، الى المركب، قام بتفقّد كل شيء، الدفّة، الصواري، الحبال، الياطر، البكرة، المؤونة، القمرة، والمطبخ. وقال في نفسه، خاشعاً: «بـاسم الله مجراهـا ومرسـاها» استعاد، على نحو إرادي بالغ القدرة، سيطرته على أعصابـه. بدا كعادته، جبّاراً، كفؤاً لنزال لا يعرف متى يحين، ربّاناً مهيمناً على مملكته الصغيرة، بكلّ ما فيها من بحارة وركاب. الفارس آرتدى درع القتال. المحارب تقلّد خوذة الجندي. الريّس لبس ثياب السفر. أيها الأفق البعيد، يا بحر العواصف والظلمات، يا لّجة في معابدها تقرع طبول نحاسيّة وتتعالى تراتيل، ليس، في كـوننا هـذا، من عريس أجمل، ومن ملك أرهب من ريّس يسير إلى ملاقاة المجهول، في عينيه يتّقد فردوس وجحيم، وفي مهابته تسـطع رجولـة إنسان لا يخشى العدم.

كان ظهر المركبغاصّاً بالمسافرين والأمتعة والأشكال المتفـاوتة للثياب والأعمار والحركات. كلّ شخص، كلّ عائلة، كلّ مجموعة، تحاول أن يكون لها ركن محدّد. الصرر، السلل، البطّانيات، مبعثرة، متداخلة، تنتظر أن يستقر أصحابهـا لتستقرّ هي، وثمـة كلب يهرّ وئيداً، كلما اصطفقت المياه على جوانب المركب، وامرأة أرملة مع طفلها، أخذ أحد البحّارة على عاتقه، منذ بلغت السطح، أن يتقرّب منها بأيّ شكل، وبابور كاز يشتعل في الطرف الأقصى من المؤخرة، عند عائلة استقرّت وانصرفت لإعـداد الشاي، وببغـاء في قفص، يحملها أحد الركاب، والأطفال يتجمّعون حولها، وديك فحل، ذو

عرف أحمر يتدلّ لفرط كبره، على جانب المنقار، وصاحبه يحضنه بين ذراعيه، ويمسّد ريشه بيده استرضاء، كأنه ذاهب بهإلى إحدى المباريات، وشيخ يسعل وهو يمجّ دخان سيكارة ممعّجة، ملفوفة،... وأشرعة المركب، حوالي الصواري، تصطاد نسمات المساء، فتنفتح وتهتزّ، والبحّارة في كل مكان، يذهبون ويجيئون لإنجاز الأشغال قبل إقلاع المركب وبعضهم في حركة من صعود وهبوط حول الصواري، لتضبيط الحبال والأشرعة.

لم يكن سعيد غريباً عن هذا الجو في الميناء. أما وهو يستقبل البحر، في رحلته الأولى، فقد استشعر غربة لم يعرف إلامَ يردّها. كانت هناك أمه، وكانت هناك كاترين الحلوة، وكانت هناك عزيزة مخلوقاً إلى النسيان أقرب. صارت شيئاً للذكرى. بعدت كأنما عرفها منذ زمن بعيد. منطقة الميناء، والشاطىء الصخري، والصبي الأسود، أشياء تراجعت إلى خلفية الأحداث، بعد الذي عرفه في أسابيعه الاخيرة من حياة ملأى بأسرار الجنس على يد كاترين. والآن، ها هو على وشك الانطلاق. إنه الانفتاح على الكون، بعد ذلك الانحباس على بلد واحدوهو في الميناء. لقد تسرّب نبأ، أعياه أن يعرف مصدره، أن والده في الاسكندرية. الريّس عبدوش لم يقل هذا، ولم يأت على ذكر والده، فهو أذكى من أن يلعب ورقة مكشوفة. صالح حزوم فارق كاترين الحلوة وفاء بواجب قومي، وهو يفارقها وفاء بواجب أبوي وحين تدقّ ساعته، بعد قليل، ستكون له حرية البحر، في سبيل أن يحقق تلك الأسفار الغريبة التي سمع بها من البحّارة وقرأ عنها في القصص. إنه سيجتاز عتبة الصمت في الملح، ليعطي نفسه إلى أغنية الشجعان في الريح، وسيكون اجتيازه للمعبر الخرافي. بين عالمي الماء واليابسة، جسراً يحقّق فيه مآثر لم يسبقه إليها بحّار. غير أن المرأة في المرافىء البعيدة، لم تعد تشكل نداءً جسدياً بالنسبة إليه. إنه، على نحو ما، يمارس إحساساً حسوداً تجاه الريّس عبدوش الذي يمتلك،

وحده، كلّ ذلك الجسم الحارّ. أما الضمير المعذّب الذي بكّته في البدء لأنه خان أباه مع عشيقته، فقد خفّف من تبكيته العقل المرن الذي برّر له فعلته. لم يكن يحسّ، كالريّس عبدوش، بمرارة ما. كانا رجلين يحبّان امرأة واحدة على ظهر مركب واحد، أحدهما يتعذّب بالفراق والآخر يتعذّب بالشك، وكان انطلاق المركب، في الثلث الأول من الليل، فيصلاً بين ما قبل وما بعد، جسماً ومادة، ماء ويابسة، لكنه لم يبلغ أن يقطع خيوط الشبكة الفكرية التي تعلّق طرفها في اللاذقية، وامتدّت هي مع المركب فيإبحاره البعيد.

في الوهلة الأولى للإبحار، كان الريّس عبدوش على الدفّة. ناور لإخراج المركب من الميناء، وصرخ بأوامره في توجيه الأشرعة وشدّ الحبال. انقلب من ذلك الهدوء الذي عرف به على البرّ، الى كتلة من أعصاب مستنفرة، مستبدّة، غاضبة، آمرة بلهجة قاطعة لا مكان معها للتردّد أو التأخر في التنفيذ. غدا ذئباً حقيقياً في قطيع من خراف. تجاهل سعيد كأنّه لا يعرفه. مرَّ به دون أن يلتفت اليه، أسلم أمره الى أحد قدامى البحّارة. راح هو يراقب حركة الجميع ويضبطها، ويوجّه بقسوة آمر في فرقة صدامية، حتى خُيّل لسعيد أن الكلام، بله المناقشة، أمرٌ غير وارد مع هذا الرجل، وأنّه لو قرّر الاندفاع بمركبه نحو جبل صخري ليتحطّم عليه، لم يكن لأحد من بحارتهقِبَلُ بمراجعته في تصرّفه.

كان ضخم الجثّة. ألواحه عريضة. شارباه كبيران، وفي ذقنه معجة ظاهرة، وله يدان ضخمتان وعينان واسعتان، وصوته الجهوري المهيب ينفذ كمسمار في الأذن. كان يلبس الأسود الآن، وعلى رأسه لبّادة، وليس في زناره أي سلاح، وإن كان البحارة قد ذكروا، فيما بعد، أن قمرته تضمّ أسلحة من أنواع مختلفة، مخبّأة تحت خشبة

سرّية، في جهة ما منها، لا يعرفها إلّا نائبه، الذي يتولىّ القيادة حين يكون هو في استراحته أو نومه.

سار المركب في عرض البحر متهادياً. كانت الريح مؤاتية. انتظرها الريّس عبدوش بخبرته الطويلة، وأفاد منها في إقلاع موفق يتفاءل به عادة. وعندما ابتعدوا عن اليابسة، وصار الماء محيطاً هائلاً من حولهم، سلّم الدفة إلى أحد البحّارة، وتنحّى هو ليلفّ سيكارة ثخينة هي من علامات الرياسة، وشربها بنهم وهو يحدّق في الابعاد، عبر ظلمة الليل، دون أن يكلم أحداً، أو يسأل واحداً من الركاب أو يتحدث معه. اكتفى بالذهاب الى مقدّمة المركب. هناك استند الى الحافة الخشبية. استراح الى الريح المنعشة التي تأتي من أمام وتغمر وجهه وصدره بطراوتها. تذكّر أنه، منذ عرف كاترين الحلوة، يسافر لأول مرّة دون أن يقضي ليلة جميلة معها. قال في نفسه: «صالح حزوم كبت شهوته. انتصر عليها، رحّلها في ليلة لا قمر فيها. خاف الثعبان الذي في جسدها. استراح بعد ذلك. انصرف الى ما هو أهمّ، أنا بحاجة أيضاً لأن أكبت شهوتي، أن أبعد صور مفاتنها عن عيني. أن أتخذ قراراً أنصرف بعده الى البحر، ثم يكون لي في اللاذقية، وكل مرفأ، المرأة التي تشتهيها نفسي». أغمض عينيه، تمنّى أن ينام واقفاً. أن يتّحد بالبحر فلا يفترق عنه أبداً. أن يغوص في اللجة، ويعانق عرائس البحر ويتقبّل زهور القاع البيضاء، تلك التي تضفرها العرائس وتتوّج بها رأس البحار الذي يتجرأ على أبواب البحر المقفلة ويقتحمها بقيدوم سفينته.

في هذا الوقت، كان سعيد يستلقي، في مؤخرة السفينة، ناظراً الى النجوم العالية، تئنّ مفاصله من التعب، وتحترق كفّاه من الآثار التي تركتها الحبال عليها. هو أيضاً رغب أن ينام. أن يغمض جفنيه وينسى أن يخرج من عالم التيه والمذلّة الذي وجدنفسه فيه. استعاد كلمات قاسم: «الريّس رب عمل، والبحّارة أجراء» إنـه أجير لا

أكثر. حريّة البحر لا تتحقّق مع عبودية الملكية الخاصة التي يتصرف بموجبها الريّس عبدوش كسيّد. الأجير يفقد حريته أينما كان. في الميناء كان عبداً لصاحب الزورق، وهنا عبد لصاحب المركب. في أحد الأفلام رأى قبطان السفينة، يجلد واحداً من بحّارته. تساءل: «يجلد الريس عبدوش بحّارته أيضاً؟» ولوى عنقه أمام وطأة الحقيقة وأضاف: «من يمنعه؟» تصوّر نفسه مجلوداً «آه، كيف أعود الى البرّ بخصيتين إذن؟ أصبح عندئذ مخصيّاً. أصبح رجلاً تابعاً، ظلاًّ ينسرب وراء صاحبه. أرجع الى كاترين وقد فقدت زهو شبابي؟ أدخل خمّارة توفيق دون احتفال يليق بثياب البحر التي أرتديها؟ وما هو الأجر الذي أتقاضاه لقاء وضع كهذا؟ الريّس هو الذي يحدّد، يعطي ويمنع. يتعب أو يريح. كل شيء بأمره هنا. ليس للبحّار الحق في المطالبة. لا قانون يحمي ولا نظام يردّ الأذى، وأمام هذا الطغيان لا يقف أحد، الريّس قادر على أن يسوط أي بحّار بسوطه. قادر على أن يقتله بمسدسه. في وسعه أن يلقيه في البحر. لا شيء يمنعه سوى تكتّل البحّارة.. لكن كيف يفعلون ذلك؟» تذكّر قولة قاسم: «الوعي يا سعيد، الوعي» وقال في نفسه: «لو وعى البحارة حقوقهم، ولو وعى عمال المرفأ حقوقهم. لو حصل هذا الوعي لكلّ الناس.. عندئذ كانت تتبدّل الأشياء.. يتغيّر وجه هذه الدنيا السافلة».

ظلّ ملقى، كمية مهملة، وفي داخله ينوس أمل في لقاء والده الذي سمع أنه في الاسكندرية. الريّس لم يدعه اليه كما كان يأمل ويتوقّع. الريّس لا يعرفه هنا، نسي أنهآبن صالح حزوم، أو لعلّه، لأجل ذلك، يرمي الى إذلاله. عليه أن يتحمّل إذن. لكي يكون بحّاراً عليه أن يمر بكلّ تجارب البحر، ومنها آحترام المسافة التي يفرضها الريّس بينه وبين بحّارته. شدّ الحبال الثخينة، بين سطح المركب والصواري، وبينالصواري ذاتها، ورفع القلع إلى أعلى، أو فتحه أُفقياً، عملية مضنية، كان ينبغي أن يسمع نصيحة البحّار الذي

أوصاه ان يضع خرقة في كفيه عند شدّ الحبل، ريثما تدمل الكفان وتعتادان. سحب الباطر من البحر، عند الإقلاع، كان عملية جماعية. ثلاثة تعاونوا على إدارة البكرة الحديدية الى وراء، لكن زميليه، لتعليمه أو إتعابه، تهاونا في تدوير البكرة، فأحس بعضلتي ساعديه تتقلّصان وتتمدّدان بعنف يشبه في صريره غير المسموع، صرير السلك الحديدي الذي يربط الباطر وهو يلتف على البكرة. ولقد سأل: «تتكرّر هذه العملية كثيراً؟»ضحك أحد البحّارين وقال: «عند الرسوّ والاقلاع، وكلما أراد الريّس أن يتوقف في منطقة ما بانتظار الريح لتغيير الاتجاه».

بعد الفراغ من شد الحبال، نودي على الطعام فأعطوه، كأيّ جندي، قصعة فارغة وطلبوا منه أن يذهب إلى المطبخ فيأخذحصّته. الوجبة للجميع، لا تنويع، لا مخلّلات، والماء باقتصاد، وشرب الكحول ــ حتى لو وجد ــ ممنوع على البحّارة، وللريّس الحريّة في كل شيء، ففي قمرته الخمرة والحشيش وكل ما تشتهي نفسه.

«طبقية إذن؟». . تساءل سعيد بمرارة. المالك والأجراء. لكنّه رأى، في الأفلام أيضاً، أن للبحارة براميل من النبيذ. كانت تلك سفينة قرصان، قال سعيد في نفسه: «أخطأت. كان يجب أن أعمل مع قرصان». قال أيضاً: «لا شيء حرام أو معيب في البحر، العمل مع قرصان والعمل مع ريّس سواء. القرصان يسلب الآخرين، والريّس يستثمر البحّارة. وقد يكون القرصان مغامراً، أريحياً، ولديه خمر ونساء وموسيقى، أما هنا فلا شيء. . وكل ست ساعات نوبة مراقبة، أو عمل على الدفّة، أو حراسة على المركب، ولا أدري ماذا أيضاً».

نودي باسمه من بعيد. نائب الريّس يأمر بتغيير القلوع. مضى إليه وفي نفسه غضب. «أنا لا أستطيع، يا معلّم، شدّ الحبل. . انظر

الفقاقيع في يدي» قال المعلّم: «أمسك الحبل بخرقة، هيّا» «قلت لك لا أستطيع، سأتكلم مع الريّس» ـ «الريّس نائم ولا يمكن إيقاظه» ـ «ماذا أفعل إذن؟» ـ «تعلّم أن تكون بحّاراً مطيعاً. هذه قاعدة ذهبيّة في البحر». كاد يشتم البحر، نظر في البحّارة من حوله عسى أن يجد من يرأف به، من يقول كلمة لصالحه، من يتطوّع بشدّ الحبال نيابة عنه، فما وجد فيهم غير الإطراق، السكوت، النظرات الترابية، كأنهم قد مُسخوا، فغدوا على المركب غيرهم في الميناء، وغيرهم في مقاهيها وخماراتها. أيقن الا بدّ من إطاعة الأمر فخلع قميصه، في حركة تنمّ عن استنكار ومضى يستجيب للمعلّم في كلّ ما يطلب.

كان المسافرون قد ناموا. حتى الكلب أقعى وأمسك عن الهرير. صاحب الديك وحده ظل ساهراً والديك يلبد في حضنه مستأمناً. وكان الليل قد انتصف منذ وقت طويل، والظلام الذي يخترقه المركب كما يخترق صدر الماء، غبشي، يأسر في بهائه الصيفيّ، وفي سجوّه الذي يزيد في مهابة الجو وسط بحر لا يبين، من جهاته الأربع، سوى الماء.

اقترب بعض البحّارة، بعد إصلاح القلوع، من سعيد. حمل إليه أحدهم دواء يخفّف لذع الفقاقيع في كفيه ويشفيها بسرعة. لفّ له آخر سيكارة. عرض ثالث أن يقوم مكانه في نوبة الحراسة. قالوا له كلمات ودّية، من القلب، فأجابهم شاكراً، شاعراً بامتنان عميق، متقبّلاً وضعه الجديد، وضع البحّار الذي عليه أن يألف الماء، ويجد في زملائه عائلته.

كذلك جاء المعلّم حنوش الذي كان يأمره قبل قليل. استعاد الآن صفته الأخرى، اللطيفة، التضامنية، فأخذه وذهب به إلى مقدمة المركب.

ـ اسمع يا سعيد ـ قال له بنبرة ودود ـ اعذرني إذا كنت، فيما

يتعلّق بالعمل، قاسياً بعض الأحيان. إنّجدّية العمل، وضرورة الانضباط، تقتضيني آصطناع تلك الجدية كلّها.. أنا نائب الريّس في غيابه، والمطلوب منيّ أن أتصرّف كما يفعل هو، غير أنني، خارج نطاق هذه المهمة، بحّار مثلك ومثل الآخرين.. عبد مأجور ومأمور.

قال سعيد وقد مسحت الكلمات الطيّبة على جراح يديه:

ــ أعذرك يا معلم حنوش .. سأكون بحّاراً جيداً، صبرك عليّ قليلاً.. شيء واحد لا أستطيع تقبّله، هو الاستبداد في المعاملة، لماذا لا نكون عائلة واحدة كما كنت أسمع؟

ــ نحن على المركب عائلة واحدة..

ــ والريّس..

ــ هذا ريّسنا.. صاحب المركب وربّانه..

ــ معنى ذلك أنه سيّدنا.. هو السيّد ونحن العبيد. نحن الأجراء.

ــ لماذا هذه الكلمات الكبيرة ولم نكد نقلع بعد.. من علّمك إيّاها؟

ــ المسألة لا تحتاج الى تعليم.. كنت في السجن لأنني كنت ضد فرنسا.. وكنت في الميناء لأن أبي كان قبلي فيها.. الإنسان يتعلّم أشياء كثيرة..

ــ وتظلّ تنقصه أشياء كثيرة.. تعلّم أن تحترم الريّس وتطيعه، وألّا تستغيبه أو تنتقده ولو تلميحاً.. روح التمرّد هذه، ومنذ اليوم الأول، مسلك خطير في البحر، له عواقبه.

ــ وما هي هذه العواقب؟

ــ ستعرفها من تلقاء نفسك..

ــ الريّس كان طيباً على البرّ..

ــ البرّ غير البحر.. هو الحاكم هنا، وصاحب القرار الذي لا يناقش ولا يعارض..

ـ لم أسمع بهذا من والدي..

ـ والدك لم يقل لك كل شيء.. كان بمثابة معلّم على المراكب التي عمل عليها.. كان الريّاس يحسبون حسابه..

ـ عملت معه أنت؟

ـ سمعت به من الآخرين.. رحمه الله إذا كان قد غرق، وردّ الله غربته إذا كان ما يزال حيّاً.

ـ والدي حيّ.. لا يمكن أن يغرق..

ـ لا تقل هذا وأنت في البحر.. يزعل منك..

ـ كيف؟ أنا لا أشتمه..

ـ أنت تتجبّر عليه، هو، البحر، الجبّار الأكبر يا سعيد.. اسأل والدك غداً..

ـ والدي لم يكن يخافه..

ـ الخوف شيء، والاحترام شيء آخر.. والكلام على البر شيء، ووسط اللجة شيء آخر. أنت في حضرة الملك!

ابتسم سعيد في سرّه. هذا المعلّمإلى الشيخ أقرب.. ماذا يبقى من البحّار إذا تصاغرإلى هذه الدرجة أمام البحر؟ أين الرجولة؟ أين التشوُّف في الميناء؟ بل أين ذلك الكفر على اليابسة؟..

ـ أي ملك هذا؟

ـ البحّارة اعتادوا أن يقولوا ذلك.. جرّبوه فوجدوه ملكاً.. أنت ستجرّبه أيضاً.. ستعرف أنه ملك..

ـ يجوز.. أنت أعرف منّي، لكن البحر، عدم المؤاخذة، ليس جبّاراً أكثر من الإنسان، والدي كان يقول «لا شيء كالإنسان، لا مخلوق أقوى منه، ولا كائن أعظم منه» وأشياء من هذا القبيل.

ـ والدك على حق، لكنه، كما أسمع، كان معتدّاً بنفسه أكثر من اللزوم.. أراد محاربة فرنسا..

ـ ليس محاربتها بل مقاومتها. .

ـ المهمّ. .

ـ ولماذا لا يفعل؟

ـ هل يمكن مقومة فرنسا؟

فكّر سعيد وقال بلهجة أقرب الى التمنيّ:

ـ لو اتحّد الجميع ضدّها، لو نهض الجميع لمقاومتها. .

ـ والسلاح؟

ـ الا يوجد من يعطينا السلاح؟

ـ لا. .

اغتمّ سعيد، لكنه لم يتراجع:

ـ سيوجد. . في المستقبل سيوجد. . الريّس عبد الحميد يقول: فرنسا لن تبقى في سورية.

ـ وأنا أقول أيضاً. . كلّ حال سيتغير. . ولكنّ والدك متهوّر. . سمعت بقصّة النهر والمراكب؟

ـ سمعت. . لكنّ والدي غير متهوّر. . والدي شجاع. .

ـ الشجاعةإذا زادت عن حدّها صارت تهوّراً. . صارت جنوناً. .

ـ لو عرفت والدي لقلت إنه صاحب عقل كبير. . في هذه أنت مخطىء يا معلّم.

ـ المهمّ. .

ـ كان قلبه من حديد. .

ـ مهما يكن. . لا يجوز الاستخفاف بالبحر. .

ـ لم يكن يستخفّ به. .

ـ وكيف نزل الى تلك الباخرة إذن؟

ـ وماذا يفعل إذا كان الحيّ جائعاً؟

ـ المهمّ. .

ـ أنا أحترم البحر مثلك يا معلّم.. ولكن ليس الى درجة الخوف.. لا أخاف البحر ولا الريّس..

ـ ستتعب في حياتك البحرية إذن.. اذكرني في المستقبل.. أما الآن فانظر الى السماء.. كلّفني الريّس أن أشرح لك كيف تعمل مراقباً على رأس الصاري. وكيف تميّز الاتجاهات من النجوم، وكيف تعرف الوقت منها أيضاً.

ـ في البواخر لا يفعلون هذا.. لديهم بوصلة، وساعات، وكلّ ما يلزم.

شعر المعلّم حنوش بالإهانة:

ـ لتذهب بواخرك إلى الجحيم.. إذا تعطّلت البوصلة، كيف يهتدون؟ انظر.. هذا الدبّ الأكبر.. وهذه الثريا.. وبعد وقت ستظهر نجمة الصبح.. نحن نسير جنوباً.. نجعل الدبّ عن يميننا..

ـ وحين نسير شمالاً؟

ـ يكون الدبّ عن يسارنا طبعاً..

ـ فهمت..

ـ لا تتسرّع.. عندما تكون السماء غائمة..

انطلقت صرخة استغاثة من على ظهر المركب، قطعت كلام المعلّم حنوش الذي هرع يستطلع الخبر، تراكض البحارة. أفاق النيام، شكت الأرملة من تحرّش أحد البحّارة بها. قالت إنه ساعدها حين صعدت إلى ظهر المركب فقبلت مساعدته، أتاها بطعام فقبلت طعامه. جاءها بماء فشربت ماءه.. لكنه في النهاية، دخل فراشها خلسة..

انطلقت بعض الضحكات من هنا وهناك. كان البحار ينفي

التهمة. يشتم الأرملة. يقسم على أن غرضه شريف، فقال المعلّم حنوش:

ــ فهمنا غرضك الشريف من المساعدة والطعام والماء... لكن الفراش..

فقال صاحب الديك:

ــ «من يأكل هذه الأكلات ينام هذه النومات».. الحقّ عليها يا معلّم..

وفي هذه اللحظة سمع صوت الريّس عبدوش صارخاً:

ــ ماذا يجري هنا؟

تفرّق البحارة بسرعة. مشى المعلّم حنوش الى ريّسه. ظل سعيد واقفاً، يتأمل الأرملة الجميلة، وهيئة البحار الذي آرتعد من الخوف، ويفكّر: «هل ينزل الريّس به عقاباً؟ وما هو؟ أيكون الضرب؟ الجلد؟ السجن؟» وقال في نفسه: «لا أشكّ أن مشهداً جديداً سيظهر الآن على مسرح المركب الذي يواصل شقّ صدر البحر والانحدار نحو الجنوب».

* * *

أربعة نهارات واربع ليالٍ مضت والريح مؤاتية. تابع المركب سيره بغير حادث، سوى التغييرات الطفيفة على القلاع، والانعطاف بالدفّة نحو الجنوب الغربي، اختصاراً للطريق التي تمرّ بمحاذاة الشواطىء والتي يُخشى معها، في حالات العواصف، من الانجراف أو الجنوح. وطوال هذه المدة لم ير سعيد الريّس عبدوش ولم يكلّمه. كان هذا في قمرته، معتصمًا بالكبرياء والصمت، لا يخرج الى ظهر المركب إلا لماماً، تاركاً للمعلم حنّوش أن يسيرّ الامور، ما دامت الاحوال الجوّية لاتتطلّب وجوده.

عانى سعيد، خلال الأيام الأربعة، معاناة شديدة. تعلّم أشياء كثيرة، دفع ثمنها من جهده وعرقه، من صبره وطاعته للمعلّم حنوش وزملائه البحارة. صار يقوم بالحراسة، وبتسوية القلوع، والرقابة من أعلى الدقل[1]. فاذا فرغ من ذلك قضى وقته بين الركّاب، مستمعاً إلى قصصهم، ومشاحناتهم، وإلى حكايات البحّارة، متابعاً ذلك الذي صفعه الريّس صفعة قوية قصاصاً له على التحرّش بالأرملة الجميلة، واستمرار البحار بالتحويم حولها، في صبوة مجنونة للوصول إليها.

لشد ما فتن بالبحر وهو في رأس الدقل. كانت الريح رخيّة، والأمواج تنفج وتشرئبّ على مقدّمة المركب وهي تشقها وتمضي، وصحراء الماء تنداح في الأمداء بغير نهايات، وعلى سطح البحر ظلال رصاصية، وصوت مموسق، عميق، مسكر، يصدر عن الأمواج المرتطمة على الجوانب، وأجراس خضر غير مرئية، تتابع رنينها النحاسي في الصمت المخيّم على الكون، ولا أثر، في الجهات الأربع، لأيّما ضوء، كأن البحر قد فرغ للمركب وحده، أو أن المركب تاه في بيداء من الرمال الزرق المذابة.

«حسناً ــ قال في نفسه ــ أنا لم أكن يوماً وحيداً مثلي الآن، ومرتفعاً مثل ارتفاعي هذا» كان يمسك بحبال عمود يهتز بتوافق مع حركة المركب، ويشرف على الدنيا، من فوق ستائر بيض، ذات أشكال طولانية وأفقية، هي الأشرعة المنفوخة بالريح، والركّاب على السطح، تنوس أضواؤهم نوسان قافلة طويلة تبحث عن طريق النجاة من التيه. وكان يحس أنّه يسبح في الفضاء، والريح منعشة بطراوتها، تأتي لتداعب صدره المفتوح، وتلعب بشعره، وتقبل وجهه. هكذا، شيئاً فشيئاً، امتلأ رهبة. كانت للبحر مهابة جليلة، وكان شعور

---

(١) الدّقل: الصاري الرئيسي وسط المركب

بالمغامرة ينبت في أعماقه، وناموس البحر المقامر، المراهن على مجهول، يتكشّف في أعماقه، فيزداد التصاقاً بالدقل، ويرى نفسه، كما كان يرى في الأفلام البحرية، جسماً معلقاً على سلّم طويل من حبال، كأنه عصفور داخل شبكة منشورة قرب الغيم.

فجأة انشقّ البحر أمامه عن جسم ضخم. بدأ يظهر الوحش مقنطراً في الماء. كان كبيراً وطويلاً، حتى خاف سعيد على المركب منه. لكن السمكة التي لم يعرف نوعها في العتمة، تأخّرت عن المركب وتبعته، دون أن تصطدم به أو تهاجمه. قال سعيد في نفسه: «هذا هو القرش» توقّع ظهور قروش أخرى ــ إنها جائعة وتطلب الغذاء. ثم غيّر رأيه وقال: «بل هي حوت». بعد قليل غاصت السمكة وغابت، لكن أنظاره ظلّت مشدودة الى الماء. كان مشوقاً أن ينبثق جسم غريب من سطح البحر الراكد، أن يتكشّف له المحيط عن بعض أسراره، تذكّر حكايا البحارة والصيادين، وأضمر في ذاته هذا الرجاء «لو تظهر عروس البحر» جسمها الجميل، اللامع، يتشكل من الزبد وينفصل عنه، وفي متابعتها للسفن والمراكب، تغوي البحارةوتجتذبهم الى القاع، حيث مملكة والدها، فتتزوجهم وتقتلهم. تساءل سعيد: «أتكون كاترين الحلوة من عرائس البحر؟ ربما كانت من نسلهم، فهي أيضاً تغري الرجال، وتدفعهم الى الاقتتال فيما بينهم.» أضاف: «لو كانت معي على هذا المركب؟ أما جرّب الريّس عبدوش أن يبحر بها مرّة؟ ولو فعل ماذا كان يحدث؟ يقتتل البحّارة عليها وهم يستشعرون الحرمان؟ يضطر الريّس الى حبسها في قمرته؟ يمارس معها الجنس طوال الوقت؟ يملّها لأنها زوجته، ولأنها معه دائماً؟ يخاف عليها من البحّارة؟ يتمرّد البحارة لأجلها؟ يثورون لأجل المرأة ولايثورون لأجل حقوقهم؟ يحسون بالجوع الجنسي أكثر من الاحساس بالجوع المِعَدي؟ تكون المرأة بهذا النفوذ؟ بهذا الخطر؟ يا إلهي! كم هي لذيذة المرأة الجميلة وكم هي متعبة!!».

أمضى ما تبقّى من وقت المراقبة بالتفكير بكاترين الحلوة. استعرض، في نوبة من الاشتهاء المغتلم، كلّ أعضاء جسدها، كلّ التفاصيل والجزئيات، كلّ مكامن الفتنة. توقّف طويلاً وهو يتصورها عارية، مستلقية. كذلك توقّف وهو يتصوّر صدرها، حوضها، وهي تقبل، ظهرها، أردافها، وهي تدبر، تخيّلها بين ذراعي الريّس عبدوش. استعاد كلماتها وضحكاتها، هزّ الحبال التي يمسك بها في نوبة من الشبق المدمر. أضمر في نفسه كرهاً للريّس عبدوش. فكر: «كيف يمكنني أن أستخلصها لنفسي؟ أجعلها ملكي؟ أكون رجلها الوحيد في هذه الدنيا؟».

حاول، على ظهر المركب، أن يستريح.. من عادة البحّارة أن يستغرقوا في النوم بعد تعب نهار كامل، التمس النوم فجفاه. كانت حواسه مستيقظة، وصور داعرة تتهيّأ له في أوضاع مختلفة. لم يكن قادراً، بعد، على تبين الظواهر الجوية، ومعرفة أهمية تقلّبات الجوّ وخطرها. رأى غيوماً تتشكّل عند الأفق الغربي. غير أن السماء، من فوقه كانت صافية. «ما همّ ــ قال في نفسه ــ أن تكون هناك غيوم بعيدة، وأن تهبّ ريح غربيّة. نحن في الصيف ما نزال. الخريف صيف ثانٍ. البحر رائق، والمركب ضخم كل شيء على ما يرام إذن، وسيضحكون عليّ لو نزلت لأبلّغ عن أمر تافه كهذا». وحتىّ عندما انتهت نوبة مراقبته لم يكن ثمة ما يقلقه، فاعتبر الحالة طبيعية.

غير أنّ البحّار الذي صعد مكانه الى المراقبة نزل بسرعة. هرع الى المعلّم حنوش ولفته الى الأفق الغربي، لفته أيضاً الى تغير الريح طلب منه أن يصعد الى فوق لرؤية الأشياء بنفسه. لم يضطرب المعلّم حنوش. بدا أن إشارة المراقب لم تفجأه. كان يعرف، قبل أن يرى الغيوم، أن الريح تغيّرت، وأن تغيّرها ينذر بخطر. لكنه، هو أيضاً، لم يقدّر حجم هذا الخطر. ذهب الى الريّس عبدوش وأبلغه. الريّس

لم يفاجأ أيضاً، فقد كانت نافذة القمرة مفتوحة، وكان يدرك من النسمة التي تهبّ، أيّ تغير يطرأ على الطقس، قال له: «توقَّ أن يعرف الركّاب ذلك فيدبّ الذعر قبل الأوان. تصرّف بهدوء وحكمة. نحن نواجه عاصفة. جوِّن[1] ما استطعت. لنحاول أن نسبق العاصفة الى الداخل، ركّز القلوع بما يسمح لنا بالإبحار عميقاً، والله نسأل أن يدفع عنا الأذى».

نفّذ المعلم حنوش كل تعليمات الريّس، اتجه بالمركب نحو الداخل. فتح القلع الرئيسي على مداه، جعل القلاع الأخرى مساعدة له. عمد إلى كلّ خبرته في مثل هذه المواقف. أبلغ الريّس بالنتائج، خرج هذا من قمرته مستشعراً، من اهتزازات المركب، أن العاصفة سريعة أكثر مما تصوّر، وأن الفوز بالسباق معها ضرورة قصوى.

وكما توقّع تماماً، أحدث ظهوره على سطح المركب، حالتين متناقضتين ومتلازمتين. أدرك بعض الركاب أن ثمة طارئاً استدعى وجود الريّس على السطح، واطمأنّ، في الوقت نفسه، بوجوده هو الريّس المشهور بتجاربه في عراك البحر. كان الكلب قد أخذ يرتعش ويهرّ. الديك لبد في حضن صاحبه. الأرملة حضنت طفلها وابتعدت عن طرف المركب الى جدار قمرة الريّس. المعلّم حنوش استنفر البحّارة. ازدادت حركة هؤلاء على سطح المركب. بدوا قساة الوجره، في قمصان ينفخ بها الريح، ينجردون متوتّري الأعصاب، عيونهم معلّقة بالأفق الغربي، ومن وقت لآخر يرفع أحدهم رأسه ليرى آنتشار الغيم الأسود. سعيد كان أقلّ تقديراً للخطر. كان في أعماقه يريد شيئاً من هذا، كأنما في اللاشعور، ينشد العراك مع البحر الذي سمع

---

(١) أدخل الجون، وابتعد عن الشاطىء خوف الجنوح.

عنه كثيراً، ويرغب، من جهة أخرى، أن يثبت للريّس عبدوش، الذي ازدراه، أيّ نوع من البحارة هو، وأيّ رجل في مواجهة الشدائد يكون.

خلع الريّس عبدوش سترته بغير حذر. أدرك أن وقت مداراة المشاعر قد فات. تولىّ بنفسه قيادة الدفة، ومنذ أن أطبقت الغيوم، واسودّت الدنيا في الجهات الاربع، راح يصدر الأوامر بصوت عالٍ، بغير تحفّظ. قطعت العاصفة عليه طريق الإيغال في البحر. لا يمكنه أن يتّجه ضد التيّار ولا يستطيع أن يدع نفسه للتّيار أيضاً. عمد الى الانحراف البطيء، كأنما يخادع الموج، ويتجنّب أن يعطي بطن المركب له. أسلم شيء، في مثل هذا الموقف، أن يستقبل قيدوم المركب حدّة الصدمات المائية ويمتصّها، يشقّها، يدعها تنطلق من على جانبي المقدمة، وتتطاير رذاذاً أبيض على حوافي المركب. لكن الريح، التي بدأت غربيّة، رفضت أن تستمرّ كذلك. تداخلت عناصرها في عراك نّهاش، واستدارت على نفسها في شكل دوّامات، وأقبل إعصارها الرهيب يلفّ كل ما يصادفه في طريقه، ويسوط وجه البحر فيشرئبّ الموج، ويتعالى جبالاً مخيفة، هادرة متدحرجة من كل الأطراف، والمركب كتابوت خشبيّ، يضطرب في «الخبّ» الذي يردم السفن في ديانه السحيقة.

قال الريّس، لأول مرة منذ نزل البحر:

ــ يا الله!

بينما ركع المعلم حنّوش وتضرّع:

ــ اللهم الطف بنا يا أرحم الراحمين!

وظلّ سعيد صامتاً، مأخوذاً بالوجه الآخر للبحر. الوجه الشرس، القاتم، الجلّاد، المنتقم بغير رحمة.

وراح البحارة، تحت صبيب المطر، يشدّون الحبال، بينما الريح تصفع وجوههم، وشعورهم تتطاير وتغطي عيونهم، والماء يقطر منها كأنهم تحت دوش، وثيابهم قد ابتلّت كلّها، وهم يتخبّطون في جريهم بين مقدمة المركب ومؤخّرته، والريّس يصيح:

ــ لّموا القلوع.. اطووها.. هيّا يا شباب.. هيّا يا إخوتي.

تسارعوا الى تسلّق السلالم الحبلية، كانوا يتعربشون عليها، كأنهم بهلوانات في سيرك.. وكان المركب يميل، فيتدلّون فوق البحر، فاذا استقام المركب، ابتعدوا عن أشداق الموج الفاغرة، وطفقوا في محاولات عنيدة، يائسة، لطيّ القلوع، ممسكين حبال السلالم بيد، وأطراف الأشرعة بالأخرى، والإعصار يزمجر، ويهزّهم بعنف، محاولاً اقتلاعهم وقذفهم الى البحر.

أما على السطح فقد اضطرب كل شيء. المياه غمرت الركاب وأمتعتهم، فرّقتهم في كل اتّجاه، فعلا البكاء والعويل، وأخذ الكلب ينبح، وأفلت صاحب الديك ديكه وتعلّق بحبل، واحتضنت الأرملة ابنها الصغير وراحت تولول صائحة:

ــ ابني.. يا الله ابني.. ساعدوني يا ناس، كرامة النبي ساعدوني، أنقذوا ولدي.

وأصيب رجل بانهيار عصبي، فهو ما يفتأ يبكي ويصرخ:

ــ لا أريد أن أغرق.. لا أريد أن أموت.. الحقوني، يا ريّس! يا ريّس!

أمسك به بحّار من كتفه وهزه قائلاً:

ــ هل جننت؟ هل أنت امرأة؟ لماذا البكاء؟ اسكت.. هدّىء أعصابك..

وفيما كان الرجل ينهض، محاولا احتضان البحّار طلباً للنجاة، جاءت موجة عاتية قافزة عن حافة المركب فجرفته، وعندئذ انهار تماما وراح يستجير:

ــ دخيلكم، يا أهل محمد، الحقوني.. غرقت..

وصاح الريّس من بعيد:

ــ افتحوا العنبر. اقذفوا بهذا الجبان الى الجحيم.. هيا..

تعلق بحلقة حديدية. كان مبللاً، مرنّخاً[1] مثل فرخ ألقي في بركة ماء، وقد آزداد بكاؤه عند سماع صوت الريّس، وراح يتخبّط في الماء كمن به صرعة، وهو يجأر:

ــ لا تغرقوني.. ارحموني.. أنقذوني، يا أهل محمد.. يا أهل محمد..

قال البحّار:

ــ في العنبر ستكون في أمان.. هيّا.. تعال.. تعالوا.. أسرعوا..

وقال راكب:

ــ المياه تغمر العنبر أيضاً.. سنختنق هناك.. دعونا على السطح..

لم يعرف البحّار كيف يتصرّف. كانت الأصوات تضيع في الهدير، والريح تقتلع الأشرعة، وانصفاقات المياه الثائرة على أطراف المركب تجعله يدور في مكانه، فاذا حاول الريّس أن يعطي قيدوم المركب للموج، رفعه إلى أعلى، حتى يظهر غاطسه في الهواء، ويبدو المركب كأنه يقعي على مؤخرته، فاذا فاتت الموجة، وانحسر الماء، وانفتحت تلك الردمة السحيقة، تحتالقيدوم، شكّ المركب على رأسه، كأنه يغور في القاع، عموداً ضخمًا من خشب، لا يبين منه سوى المؤخّرة.

أمسك الركاب الذين جرفت المياه أمتعتهم بعضهم بعضاً. كانوا

---

(١) مشبعاً بالمطر.

مذعورين، مولولين، نائحين، يضعون أذرعهم على رؤوسهم، في حركة لا إرادية. فاذا مال المركب على جنبه، وآشرأبت الامواج وطغت على السطح غمرتهم كلّهم، وألقتهم أرضاً، حتى إذا نهضوا، ومال المركب على جنبه الآخر، داهمتهم الأمواج من الجهة الأخرى، وألقت بهم أرضاً، ومهما حاولوا أن يتمسّكوا بما تطوله أيديهم فقد كانت الأمواج أقوى منهم. لقد غدا العالم من حولهم ملحاً وحبالاً وعاصفة، وفي آنفجار البروق، كان هؤلاء التعساء يبدون كأشباح، كسمكات كبيرة في مطاوي أمواج هائجة، وهي سمكات هزيلة، هلعة، بعيون يتجمّد فيها الرعب، بعضها من ملح وبعضها من ماء أسود.

قاوم البحّارة ما استطاعوا. طووا القلوع أو ما تبقّى منها. شدّوا الحبال بزنود معدنية تضيء في اللّمع الخاطف الذي يتقدّم الرعد المتفجّر. كافحوا المياه التي فتحت لها ثغرة وطفقت تتسرّب إلى جوف المركب. صلّوا، ابتهلوا، عملوا، أغمضوا عيونهم من هول تلك الصرخة الداوية التي آنطلقت من بحّار كان على الدقل، فانتزعته الريح بوحشية وقذفت به في اليمّ. ظلّ الريّس عبدوش يدير الدفّة. بدا الآن عجوزاً على حقيقته، وجبّاراً حتى في الشيخوخة نفسها. كان ينادي بحارته بأسمائهم. يكنّيهم. يصفهم بالإخوة، يتضامن معهم أمام الخطر الأكبر، شاعراً أنهم عائلته، وشهود الهولة الكبرى، والناس الذين، في قلب الكارثة، يتحدّون بقلوب شجاعة، المصير المحتوم للعدم الفاغر فاه كتنّين بألف رأس وألف مخلب.

«أيها الربّ الرحيم ـ شرع يبتهل بتواضع وخشوع ـ أنقذني، أحطني بلطفك، نجّني من هذا الكرب، أشفق عليّ وعلى هؤلاء الذين أنا مسؤول عنهم». ويأتي الجواب بالرفض. ويقهقه في الأبعاد المظلمة، رعد شامت، ساخر، محمحم، غاضب، يتدحرج محطّماً القبة

البلورية، ناشراً صدى مخيفاً، فيما البرق يكشفجبالاً من الأمواج حول المركب، لاتلبث أن تخلّف ودياناً من المياه، والمركب يرتفع تارة وينخفض طوراً، والرذاذ والرّيح والمطر تعمي العيون وتحرقها حرقاً.

حدث ذلك بعد الظهر. قرب العصر تماماً، لكن الغيوم الكثيفة، في إطباقها على السماء والبحر، صنعت دجنةخاصّة، فهبط الليل على كل شيء فجأة، وصار على البحّارة أن يعملوا في الظلام، ذلك العمل الخارق الذي خافوه واعتادوه دائمًا، ذلك الانخطاف في فورة الحماسة وهم على حافة الخطر الرهيب، على فوهة هاوية لن تلبث أن تبتلعهم، بعد أن ترضي لبانتها من اللعب بهم انتقاماً من جسارتهم الغريبة، ومن جرأتهم على المملكة الاكبر، مملكة البحر.

طقطق شيء ما في أعالي المركب، فارتجّ الجسم الخشبي المضطرب في الماء. انكسر الصاري الذي يرتبط بالدقل، واختلّ نظام الأشرعة، وبات فقدان الانسجام، بين الصواري حاملة القلوع، وبين الدقل الكبير، يهدّد المركب بالجنوح على أحد جانبيه. كانت تلك كارثة. فاذا لم يُفصل الصاري المكسور عن شبكة الأعمدة المترابطة فيما بينها بحبال ثخينة، تحطَّم الدقل الكبير وهوى، محدثاً دويّاً اشبهبالهزة، دويّاً كذاك الذي أحدثه الصاري، والذي سمعه الركاب فظنّوا أن أعمدة المركب تتقوّض عليهم، وصاحوا:

ــ يا ساتر!

فتح الريس عبدوش صدره، طالباً العون من ربّ السماء، وتعالى البكاء والنحيب من النسوة المسافرات، وراح صاحب الديك يتلو بعض الأدعية، حتى إذا جاء البرق، استطاع الجميع، في نظرة سريعة، أن يروا الصاري المكسور وهو يرتطم بالدقل، ويلوي بالأعمدة، لفرط الضغط على الحبال التي تشدّه اليها.

كان الظلام قد غدا حالكاً في هذا الوقت، واشتدّت العاصفة وعنُفت. صار الوقوف على القدمين، بَلْهَ السير، يعرّض الإنسان للاقتلاع بفعل الريح الهوجاء، لهذا تمسّك كلّ من على ظهر المركب بشيء ما، وواجهوا اندفاقات الامواج على السطح، والأمطار الشديدة، والرياح التي تهبّ من كل جهة، بمقاومة عنيدة، استدعتها نوازع حبّ البقاء التي آستيقظت في الصدور. كانوا يحُسّون أنهم غرقى لايميزون بين موقفهم على السطح ا لمغمور بالماء والبحر نفسه، وكانوا يغمضون عيونهم حين تغمرهم الأمواج، فإذا انحسرت عنهم فتحوا أفواهاً أيبسها الخوف وتنفسوا بحركة شهيقية.

وفي غمرة البحث عن الخلاص الشخصي، والتفكير بالهول القادم إذا ما تكسّر المركب أو غرق، نسي الجميع ذلك البحّار الذي قذفته الرياح من على الدقل. كانت صرخته، من حلاوة الروح، أشبه بالعواء المسعور، حادّة، صمّاء، ذابحة كالسكّين، وعبثاً بحث البحارة عنه حوالي المركب، ليُلقوا اليه بحبلٍ ويسحبوه. التيّار القوي، الجامح، سحبه الى بعيد، وربمّا ردمته المياه، أو غرق بفعل الصدمة أو ابتلعه وحش ما. المهمّ أنه لم يظهر، وأن واحداً من أسرة البحّارة قد فُقد، وترك فقدانُه في نفوس زملائه جرحاً من الحزن القاتم، وتوقّف البحث بعد قليل، استجابة لنداء الريّس الضارع بأن يهتمّوا بما تبقّى.

قال سعيد في نفسه جزعاً: «هذه هي النهاية» كان يحاول أن يصرف ذهنه عن المصير الفاجع المنتظر. لكن صورة أمّه وهي تبكي للحيلولة بينه وبين الإبحار كانت تفرض نفسها عليه. قال بغير صوت: «أمّي كانت على حقّ، كانت تحدس بما سيقع. حذّرتني من البحر. قالت أخذ والدك وسيأخذك. أنا لم آبه بكلامها. كان البحر بالنسبة الي هو الميناء. ما كنت أعرف البحر. قال لي المعلّم حنوش: تَوَقَّ أن يزعل منك.. إنه ملك، بل ملك الملوك.. صدق بما قال.. «أيها البحر -

صاح في سره ـ أنا لن أزعلك بعد اليوم. لن أتحـدّاك قد لا أخاف منك، لكنني أعترف أنك مخيف، وقد لا أتجبّر عليك، لكنني سأنادي أنك جبار. . فقط رُدّني الى أميّ، إلى إخوتي، دَعْني أبحث عن والدي، عن صديقك. . نسيت صديقك؟ والخبز والملح يابحر؟ وعِشرة الأيام، وليالي الصيف. . والنجوم، وبوّابات الأعماق، وعرائسك البيض، وزهورك الفضية، وعريس البحر الذي كان. . تذكره؟ إنني آبنه، أنا من صلبه، وبحّار مثله، وصديقك كما كان هو؛، ولن نفترق يا بحر. . فأنا، في هذه الساعات السود، المأتمية، في هذا البركان الثائر، في هذا الجحيم الذي ناره ماء، أشهد أنني أحبك أكثر مما كنت، وأحترمك أكثر مما فعلت، وأبايعك ملكا، بل أبايعك ملكا على الملوك، وأجنّ رعباً ولذة بهذا الخطر الذي أنا على حافته».

ولم يقبل البحر ندمه، ولا اكترث بنجواه، ظلّ يعج، يرغي، يزبد، يغور ويقصف المركب المترنّح بصخور من أمواجه العاتية. وعجب سعيد أن الريّس عبـدوش ظلّ يتجـاهله. وعجب الريّس عبدوش أن سعيد ظلّ بعيداً عنه. كانت كاترين الحلوة، في اللاوعي عند الرجلين، مصدر تفكير آثم: «من منّا ينجو ويعود إليها؟» إن تفكيرهما لم يكن واضحا الى هذا الحد، غير أن الغيرة كانت تعبّر عن نفسها، بالجفاء، وكل منهما يسعى لإثبات أنه الأقوى.

أخيرا جاءت اللحظة الحاسمة للإثبات. كان فصل الصاري عن الدقل، لقطع الحبال التي توثّق بينهما، ضرورة حياة. إذا ظل الصاري يرتطم بالدقل زعزعه، واذا آنهار الدقل غرق المركب لا محالة، لقد مات رجل ياريّس عبدوش، ومن المقدّر أن يموت غيره اذا دفعت به إلى أعلى الدقل. إن بحّارتك ليسوا خرافاً، برغم الطاعة الكاملة لك. . أنت في المعركة، والقائد في المعركة يتصرّف بحكمة، يتقدَّم ليلحق بـه جنوده. كنَ شجاعاً تبعث الشجاعة في الآخرين. كن ريّساً حقيقيّاً. احترم

ماضيك. مُتْ في الوقت المناسب، فإذا نجا بحّار ما تحدّث الى من في الميناء أنك لم تخن تقاليد الريّاس. لاتقل لبحارتك اصعدوا. خُذْ هذه المهمّة لنفسك. إذا نجحت فقد أدّيت واجبك، استحققت كاترين الحلوة بجدارة، وإذا متّ فمن البحر واليه، كما يليق بربّان مركب بهذه الضخامة.

نادى على المعلـم حنّوش وطلب منه أن يتسلّم الدفّة. قال للبحارة: «سأصعد الى الدقل وأفصل الصاري عنه. إذا متّ جاهدوا الى النهاية في سبيل النجاة. لاتكترثوا لما في المركب من بضاعة بل لمن فيه من ركاب.. واذا نجوت، ومرّت هذه العاصفة، كان لي معكم كلام آخر، وفعل آخر، يليق بإخوة البحر وشرف المهنة».

كان الآن يتكلّم من قلبه. عائلة البحّارة تعود الى الالتئام في ساعة الخطر. جرّدت ثورة الطبيعة الريّس عبدوش من أسلحته. المركب الذي كان له، لم يعُدْ له، الى أن يتمّ إنقاذه، وفي سبيل إنقاذه لابدّ من تضافر جهود الرجال. الآن يعزف على وتيرة الاخلاق. البراءة التي حطّمها في بحّارته، يحاول استعادتها. النخوة، لا المصلحة، هي الوتر الحساس، «أنتم إخوتي!» من أوّل الليل وهو يناديهم باخوتي «أيّة أخوّة هذه؟» تساءلوا في ذواتهم. أخوة التضحية ، ولكن لأجل ماذا؟ وقال الريّس عبدوش: «ليذهب المركب الى الجحيم... أنا لا أبالي به، همّي أن ننجو نحن، وهؤلاء الركاب بمن فيهم من نساء وأطفال عجز.. المركب ضروري لهذا، إنه آلة الإنقاذ الوحيدة بين أيدينا».

وقال بحّار:

ــ لاتصعد الى الدقل بنفسك، يا ريّس.. مازال الجميع بحاجة إليك.

ــ لكنني المسؤول عنكم جميعاً، وعليّ أن افتديكم جميعاً.

تعالت أصوات:

ـ اختر واحداً منا . .

ـ هذا صعب علي، لا استطيع . .

ـ لابدّ من الاختيار . .

ـ نحن لانستطيع إجراء قرعـة . . إذن لابدّ من الاختيـار، سنرضى جميعاً بما تراه صواباً .

ـ في هذه الحال دعوني أفكر لحظة .

وعلا صوت سعيد من المؤخرة :

ـ لاتفكر يا ريّس . . . أنا لهذه المهمّة . .

قال الريّس في نفسه : «كنت أتوقع هذا . سعيد كان ينتظر إشارة مني . يريد أن يصبح بطلاً . . البطولة ضرورية له . في الميناء سيتحدّثون عنها . . لا . . لن أدعه يفعل . . أنا من سأجعل الميناء تتحدّث عني بإعجاب . . »

صاح بصوت عال :

ـ لقد اخترت نفسي . .

قالها وتقدّم من سلّم الدقل، في الظلمة وتحت وابل المطر وفي هوج الرياح ، لكن سعيد خطا نحوه بعزم ، بإصرار ، بقرار لا ينقض في أن يفصل الصاري عن الدقل بنفسه :

ـ دَعْ هذا لي يا ريّس . . أعطني السكّين . .

وصاح البحّارة :

ـ هذا حقّ يا ريّس . . أعطه السكين . . لانسمح أن تصعد بنفسك .

ـ لكنّني قرّرت . .

ـ قرار الأكثرية هو الملزم . . أعطه السكين . . هيّا يا سعيد . . توكّل على الله .

سحب الريس عبدوش السكين من زناره وهو يمارس إحساساً

متناقضاً، فيه إعجاب بالرجولة وفيه غيرة منها. قال لسعيد: «أنت بحّار مستجدّ والخطر شديد.. من الأفضل أن تترك ذلك لي»

وقال سعيد وهو يروزه في الظلام «الريّس لايموت الا بعد البحّارة كلهم.. هذه هي القاعدة التي يعرفها الجميع. لانرضى أن يقال غداً إنك صعدت الى الدقل ونحن، كالنساء، نتفرج عليك».

صاح البحارة:

ـ عظيم! هذا هو الصواب... نحن لم نفقد رجولتنا بعد..

قال الريّس عبدوش:

ـ أنت مصمّم اذن يا سعيد؟

ـ دون تراجع.

ـ خذ (ناوله السكّين) اقطع الحبال بسرعة.. تمسّك بالدقل جيّداً.. انتبه!

وقال سعيد:

ـ ما عليك يا ريّس.. إذا متّ قل لوالدي ما تراه مناسباً..

أجاب بحّار:

ـ سنقول له إنك كنت ابنه حقيقة..

ـ هذا يكفي..

قالها وصعد على السلّم الحبلي. لقد استطاع، خلال الأيام الأربعة، أن يتعرف الى الدقل والصواري جيّداً. ساعده في ذلك أنه لم يكن غريباً عن الميناء، وأنه نزل المراكب كثيراً، في كل الموانىء، التي عاش فيها. وكما فعل والده، حين روى له حكايته مع «الغيز» والنهر، وضع السكّين في فمه، وصرّ عليها بأسنانه، واندفع بعزم الى أعلى، غير آبهٍ بالمطر والريح. راح، مع تأرجح المركب، يتدلىّ، في الفضاء تارةً، وبين الأعمدة طوراً، وحين يميل المركب ميلاً حادّاً، وتضربه الأمواج بشراسة، يغمره الماء فتعشى عيناه وتلتهبان. يحُسّ أنه صار على وجه

البحر، وأن المركب لن يعاود الاستقامة، وفي هذه الحال كان يصعب عليه أن يتحرَّك ، فيشدّ بقبضتيه على الحبال وينتظر عودة المركب ، الى وضعه العمودي .

بقي كذلك ساعة كاملة. كان يبذل كلّ ما في مدخّر طاقته من قوى. وفجأة أحسّ باختناق إثر جرعة كبيرة من الماء المالح، فتقيّأ ما في معدته، وزاغت عيناه من أثر دوخة هاجمته بغتة. أدرك الآن أن مهمّته ليست بالبسر الذي تخيّله وهو على سطح المركب. فهم لماذا تردّد البحارة وتركوا للريّس أن يختار من يريد منهم. كانوا خائفين في أعماقهم، وكلٌّ ينتظر أن يختار الريّس سواه، غير أنّ الريّس اختار نفسه، وعندئذ أثبت أنه ذلك البحّار الأصيل، وانّ رياسته حقّة لادخلة فيها.

بلغ أعلى الدقل أخيراً. تلمّس الخشب المبلّل بأصابع مرتعشة من التوتّر. غرس قدميه على السلّم. حضن الدقل بيده اليسرى، بسمل وشرع يعمل. كان الحبل ثخيناً. ومع كل مضاء السكينّ، وشدّة ضغط سعيد عليها، فإن الحبل لم يستجب لحركة النشر إلاّ قليلا. صرّ سعيد على أسنانه، كاد يحطّمها. توتّر ساعده الأيمن الى درجة الانقصاف، والحبل مازال يشدّ الصاري الى الدقل. «أيّتها السماء ــ صاح بغير صوت ـــ أعينيني على جزّ هذا الحبل. أوقفي هذا المطر. احبسي الريح قليلاً. أقيمي هدنة رحمة بنا» ولم تجب السماء. عصفت الريح وأزّت، التمع البرق في الأبعاد، كاشفاً عن هولة من الماء المصطخب. هدر الرعد. صخبت الأمطار، فاستشعر سعيد خوراً في ركبتيه. بلغ التوتّر منتهاه. الآن أو لا شيء. إما أن يقطع الحبل فوراً، أو تعصف به الريح كخرقة بالية. المواجهة، بين الانسان والطبيعة، غدت نوعاً من التحدّي. كلّ العناصر مجتمعة، وكلّ حب البقاء مستنفر. آدم لايأكل التفاحة الآن، يحقّق وجوده بفضل ما أكل من تلك التفاحة. من تراب خُلقت يا آدم، ومن ماء ونار، وأنت في سرمديّة وجودك، تنازل الماء

والنار و التراب. تنتقض على أصلك الأرضي. ترتفع عليه، تصير أعلى، أقدر، أشجع، وفي المباراةالتي تتكرّر ملايين المرات، في ملايين اللحظات، تريد أن تنتزع النصر، أن تقول للطبيعة: «أنا الطبيعة. أنا البداية والنهاية. أنا الحياة والموت، أنا الوجود والموجود منى كل شيء، وفيّ كل شيء، أنا السرّ الأعظم، وأنا المرّوض الأكبر».

تروّض الحبل وانقطع. سُمع دوي شديد. سقط الصاري في البحر. سلم الدقل. انتهت المهمّة. إنزل بهدوء يا سعيد. احذر السراب في واقع النصر. لاتَدَعْ نفسك فريسة سهلة للريح، أطرد الوهم، فالمعركة مازالت مفتوحة.

لم يجد على السطح من يحتفي بفوزه. سمع فقط عبارة «المركب يغرق» اشتدّت ولولة الراكب الذي لايريد أن يموت. قام بحّار بنقل الطفل الى القمرة. الكلب يعوي على المطر. المياه غمرت العنابر واتّخذ الريّس قراره:

ــ إلقاء كل شيء في البحر.

كان القرار مرعباً في ذاته. حين يتخذ الريّس مثله يكون الخطر قد فاق التوقّع. تبقى النجاة وحدها أملاً لايقطعه سوى العدم. في هذا الوقت لاشيء يعصم. البحر يتطلّب ضحاياه. لم يكتف بالقربان الكبشي الآدمي الذي ذبح نذراً من فوق الدقل. لم يتقبّله البحر كما يجب. يريد أكثر. المركب كله، بما ومن فيه. اذا لم يرتفع الغاطس عن المنسوب المعينّ للحمولة غمرته المياه. الآن لا شيء يشفع. كل شيء إلى البحر، خُذْ يا بحر. الطفل وحده، في القمرة، دَعْه لأمه، لأجله يا بحر، لأجل الطفولة، لأجل الاطفال الذين هناك.. لك الحمولة ولنا نسمة الحياة..

علا الصياح:

ــ اطرحوا كلّ شيء في البحر..

وقال الريس مخاطباً الركاب:

ــ تحرّكوا. . ساعدوا في طرح الحمولة، وإلاّ غرقنا.

ومن جديد، كأنما في سباق، في حركة غاضبة، في معاندة للمطر والريح، شرعت الأجسام في غدوّ ورواح، ترفع أكياس العفص وتطرحها في البحر. عمل في ذلك الريّس، البحّارة، الركّاب، ولم تتخلف الأرملة. . كان طفلها هناك، في القمرة، وتريد، ولو بحياتها، أن تفتدي حياته. وكان سعيد في المقدمّة، يرفع كيس العفص ويطرحه في الماء، وينحني، وسط المياه الفاترة من تحت، إلى رفع غيره، في حركة مكوكية، أشبه برقص دينّي متواتر. كان يرى الأمواج وقد ظلّلت سطح المركب، ثم لاتلبث أن تنكسر تحت فاتحة هاوية عميقة. نظر الجميع الى السماء فما بانت. . حجبتها الأمواج، حجبها ما غشي العيون من ماء مالح، وسمع الريّس يصيح، بصوت متوسّل، منفعل، متهدّج:

ــ ضاعفوا الهمّة وإلاّ غرقنا!

استجاب الجميع للاستغاثة. عملوا فوق طاقتهم. تقوسّت ظهورهم، تجرّحت أظافرهم، وفجأة تدفّق الماء من حائط المركب، وتعالت الأصوات، نائحة مستجيرة:

ــ غرقنا! غرقنا!. .

أمر الريّس:

ــ انزحوا الجمة(١). . .

وقام البحّارة بنزح المياه، لكن الثغرة اتّسعت، وتدفق البحر الى الداخل عنيفاً جارفاً، وبدأت الأجسام تتخبّط. ثمة من عام في الماء، مستسلمًا للغرق، ومن طفا، فهو يتخبّط ويصرخ مستنجداً. والظلمة

---

(١) الماء الكثير المتجمّع في المركب.

شديدة، وليس إلا فانوس محاط بالزجاج، يلقي على رؤوس الغرقى، ظلاً مأتميا من نور شحيح.

بدا، الآن، ألاّ فائدة. المياه المتدفّقة تحطّم جدران المركب. استعصت الجمّة على النزح، وخُيّل إلى الجميع ألاّ نجاة، وأن الفرار الى السطح هو الأجدى..

ضاعت أوامر الريّس عبدوش، دبّت الفوضى. كلّ بحّار ذهب في جهة. ما تبقّى من الركّاب أنشأوا يلطمون صدورهم ويسجدون طالبين الغوث، ولم يبق الا انزال السنبوق[1] عسى أن تتم النجاة لمن ينزل فيه.

وقف الريس عبدوش يائساً. تجمّدت في عينيه نظرات ألم مخيف. خسر المعركة. ربح البحر مرة أخرى. وصاح المعلم حنّوش:
ــ أنزلوا السنبوق...

هرع البحارة إلى إنزال الزورق. إنه التراجع. الفرار من معركة خاسرة. وكانت الأرملة التي بقي ابنها في القمرة، قد أضاعت الطريق إليها بسبب ما تجمّع على السطح من ماء فهي تنادي وسط الفوضى الكاملة:

ــ ابني، ابني..
لكنّ البحارة والركاب تسابقوا يتزاحمون، وأخذوا يلقون أنفسهم في السنبوق، ثم جاء البحّار الذي راود الأرملة عن نفسها، فاحتضنها وألقى بنفسه، وهي بين أحضانه في الزورق، وكان حبل طويل، يسترخي ويتوتّر، ما يزال يربطه بالمركب.

بقي رجلان على السطح المغمور بالماء: الريّس عبدوش وسعيد

---

(١) قارب صغير للنجاة.

حزوم. وقفا متقابلين، صامتين، كئيبين، ينزّان فجيعة لاحدّ لهولها. قال سعيد وهو يجاهد لإخراج الكلمات:

ـ الزورق مازال مربوطاً بالمركب.. انجُ بنفسك يا ريّس.

أحسّ هذا أن سعيد يذبحه.. القاعدة ان يبقى الريّس وحده، أن يواجه القدر بأعصاب لاتخون. أن يغرق مع المركب أو ينجو معه. سعيد يعرف ذلك، فهذا العرف المتداول ذو صلة بشرف الريّاس وكرامتهم، وكل ما عداه وصمة عار يرفضها حتى الذليل.

قال الريّس عبدوش هادئاً:

ـ أنا لم أبلغ من النذالة حدّاً كهذا..

توقّف ريثما ابتلع بقية ريق مرّ وأضاف:

ـ الريّس عبدوش لايخاف الموت يا سعيد.. تذكّر هذا.. قله أيضا لوالدك الذي تبحث عنه.

وقال سعيد:

ـ أعرف.. لكن هناك من ينتظرك..

ـ لينتظر ما شاء، أو يتصرّف كما يشاء. صار الأمر سيان عندي..

ـ أهذه كلمتك الأخيرة؟

ـ ليس لديّ سواها..

ـ ماذا أقول لزوجتك؟

ـ كان شجاعاً..

ـ وداعاً إذن..

ـ وداعاً..

تعلّق سعيد بحبل السنبوق وألقى نفسه بالماء. كان الذين في الزورق يشدّون الحبل ليتمكّن سعيد من التعلّق به والوصول إليهم، لكن الريس عبدوش كان واقفاً مع المركب الذي يغرق، وكانت السكين

معه.. وشيء كالنار، يرزّ من عينيه، والغيرة قد وشّحت وجهه كله. رفع يده وانتظر.. مدّها وانتظر.. وحين صار سعيد في منتصف الطريق، قطع الحبل وهو يفح كأفعى:

ـ لنغرق معاً يا سعيد، أنت في البحر وأنا على ظهر المركب.. هكذا لاتكون كاترين الحلوة لك، ولا لي، وهكذا تتحقق العدالة بيننا.

انتهى الكتاب الثاني من «حكاية بحار» ليل ١١ أيلول ١٩٨١

ويليه الكتاب الثالث.

E.O.F

Exclusively

First published on the net by :

Passer By_in Time

MARCH 2009

Passerby_intime@yahoo.com

Passer by in time